إذا كانت الحروب تتولد في عقول البشر
ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام

المركب الثقافي

25 دسمبر 2000

الثمن 200 أوقية

مجلة ثقافية تربوية علمية تصدر عن اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والثقافة والعلوم

أخبار المنظمات

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، حصيلة سنة من النشاط

اليونسكو واللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والعلوم والثقافة

استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب

المحور التربوي

تقويم النظام التربوي: الدلالة والوظائف

المحور العلمي

التصنيع في موريتانيا – دراسة جغرافية

المحور الثقافي

العلامة أحمد بن العاقل:

العلم - القضاء - السياسة

اكتشاف مخطوط مفقود لابن رشد:

الضروري في صناعة النحو

المدير الناشر: اعلي ولد ببوط

فهـــرست المـــواضيـــع

الافتتاحية	
الإعلان عن المشاركة في إعداد مادة المجلة العربية للمعلومات	4
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حصيلة سنة من النشاط	5
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -المجلس التنفيذي	7
مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية يصادق على استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب	8
اليونسكو:واللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والثقافة والعلوم	10
تأملات ومصطلحات في ثقافة السلام	12
العلامة أحمد بن العاقل -العلم - القضاء- السياسة	17
أعلام الأمكنة في الشعر العربي الشنقيطي (مصادرها- وظائفها)	23
النبويات الشنقيطية(ملاحظات في البنية والأسلوب)	28
اكتشاف مخطوط مفقود لابن رشد، الضروري في صناعة النحو	35
من أجل فهم عقلاني للتراث	43
الصيغة السردية في رواية احمد الوادي: ملامح التشكل والتعالق مع سرد الصحراء	48
الإصلاحية والاستعمار في موريتانيا	52
حول نظرية النسبية لدى البير انشتاين	58
تقويم النظام التربوي: الدلالة والوظائف	62
الهجرة القروية في موريتانيا وإعادة الإنتاج النسق التقليدي	65
التنمية وإشكاليات حرية الاختيار	69
نحو استراتيجية بعيدة المدى لتحقيق الأمن المائي في موريتانيا	74
التصنيع في موريتانيا -دراسة جغرافية	78

لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام

الموكب الثقافي

العدد: 25

مجلة ثقافية تربوية علمية تصدر عن اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والثقافة والعلوم

المدير الناشر:
الأستاذ اعلي ولد ببوط
رئيس التحرير:
محمد الأمين ولد المنير
المدير الفني:
محمد ولد محمدن بن احظانا
المدر المنتدب للقسم الفرنسي:
امبارك ولد بيروك
يساعده:
أحمد ولد الشيخ
سكرتير التحرير:
أحمد جدو ولد محمد
مصلحة المتابعة والاشتراكات:
المسؤول: سليمان ولد محمد بونا
محمد ولد اعمر ابـــال
عبد الرحمن ولد محمد الحافظ
المحررون:
الشيخ المعلوم ولد محمد سالم
مريم بنت بكـــر
محمد ولد محمد فال
محمد الأمين ولد المنيـــر
محمد, م, ولد احظانا
احمد جدو ولد محمد

إخراج: اللجنة الوطنية
سحب: **المطبعة الوطنية**

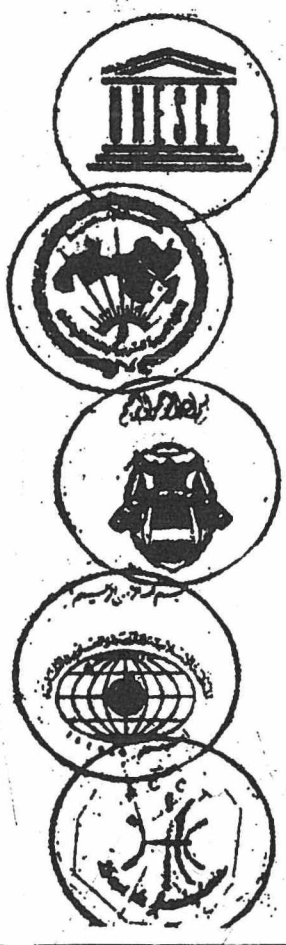

الافتتاحية

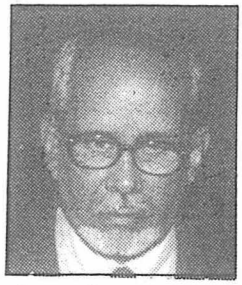

نعتبر الديمقراطية أحسن تنظيم سياسي ابتكرته البشرية حتى، وإن كانت له نواقص الفعل الإنساني.

واليوم - وبالرغم من الشوائب الناجمة عن التطبيقات السياسية المضطربة أحيانا - فإن فكرة الديمقراطية قد استقطبت العالم.

وليس من نافلة القول أن نتساءل عن سر نجاح هذا النموذج الديمقراطي، رغم ما انتقدته به نظريات كانت تعد البشرية جمعاء بجنان على الأرض.

إن انتصار النظام الديمقراطي -إن صح التعبير- كامن في كونه أحسن ضمان لإشاعة روح التسامح. والتسامح هو أولا وقبل كل شيء قبول الاختلاف.

وهو الاعتراف للآخر بحق اكتساب مثل عليا، وثقافة، ودين وتحضر، فالتسامح هو الشرط الضروري للتعايش المنسجم بين الشعوب والأفراد.

وليس من قبيل الصدفة أن تجعل اليونسكو وسائر المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة من التسامح حجر الزاوية في عملها، ذلك أن التسامح يقود إلى السلام بين الشعوب والأفراد، فهو أساس كل "ثقافة".

وبإعلان الأمم المتحدة وتعينها اليونسكو للقيام بما يلزم لنجاح العمليات والأنشطة المتعلقة بالأمر، وعرفت السنة الدولية لثقافة السلم نجاحا باهرا، بتوقيع ملايين الأفراد عبر العالم لبيان ثقافة السلم، فإنها قد عملت كذلك على تجذير النموذج الديمقراطي في كافة البلدان. ونحن اليوم على أهبة الاستعداد للعمل الفعال بقصد إنجاح العقد الدولي لترقية ثقافة "نبذ العنف وتحقيق السلام لصالح الأطفال" (2000-2001)، الذي أعلنته الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة. وقد عينت اليونسكو رائدة لهذا العقد.

إلا أنه لا يمكن ازدهار أية ثقافة دون تحقيق النمو.

وفي موريتانيا فإننا نشهد منذ المصادقة على دستور 20 يوليو 91 قيام إطار تنظيمي ومؤسسي، يدعم دولة القانون ويمنح الأولوية لفكرة حسن التسيير.

هذه المقاربة تتجه - دون جدال- نحو إشاعة "ثقافة السلم"، يشكل النظام الديمقراطي عنصرا أساسيا فيها. وإن التئام ملتقيين دوليين خلال شهر فبراير فقط، أحدهما حول "دولة القانون في المغرب العربي" والثاني حول:"ثنائية الغرف البرلمانية في إفريقيا" (علما بأن بلادنا من البلاد القليلة التي لها غرفتان في إفريقيا)، لهو خير دليل - إن كان من حاجة إلى دليل- على الصدى الطيب لتجربتنا خارجيا.

الديمقراطية إذن هي أفضل نظام سياسي في العالم، لا لأنها تقدم فردوسا مستحيلا، وإنما لأنها تضع كمسلمة، فكرة التسامح، وبالتالي السلم، وبالتالي الاستقرار السياسي، والنمو الاقتصادي.

ونحن في اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والعلوم والثقافة نؤمن بأن إشاعتنا لفكرة "ثقافة السلم" تسهم في عملية تجذير الفكرة الديمقراطية في العقل والممارسة.

اعلي ولد ببوط

إعلان عن المشاركة في إعداد مادة المجلة العربية للمعلومات

تدعو إدارة التوثيق والمعلومات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الباحثين والمختصين وذوي الخبرة والكفاءة إلى المشاركة بالكتابة في المجلة العربية للمعلومات التي تصدرها الإدارة المذكورة. وهي مجلة علمية نصف سنوية تهتم بمجالات المعلومات والمكتبات والوثائق والأرشيف والإحصائيات ونشر الدراسات والتقارير باللغة العربية والمعربة، وتخضع هذه الدراسات لتحكيم علمي يتولاه أساتذة متخصصون.

<u>شروط المشاركة:</u>

- تكون الدراسة أو التقرير في حدود 12-20 صفحة مطبوعة وترفق بمستخلص لا يزيد عن نصف صفحة مشفوعا إن أمكن- واصفلت، ويعد المستخلص باللغة الإنكليزية أو الفرنسية.
- يفضل أن يكون نص العمل الموجه إلى المجلة في نسخة ورقية معالجة نصيا بالحاسوب وأخرى على قرص ممغنط على أحدث أنظمة WOLD.

يلتزم الكاتب بأن لا يقدم للمجلة دراسة سبق نشرها، وباتباع قواعد منهجية للبحث العلمي.

- تنشر المجلة مقالات مترجمة إما بمبادرة شخصية، وفي هذه الحالة يشترط أن يقدم المترجم ترخيصا من الناشر الأصلي مرفوقا بالنص الأصلي، أو بتكليف من المجلة التي تكون قد استوفت الإجراءات الضرورية لذلك.
- إن المجلة لا تأخذ بالاعتبار الدراسات التي لا تراعي هذه المبادئ؛ وهي تنشر المقالات المحكمة في حدود المساحة المتاحة، ولا تلتزم برد ما لم يقبل للنشر أو ما لم ينشر من دراسات لأصحابها.
- هيئة التحرير لها حق تصويب الأخطاء التي تتعلق بالمعلومات، وبإجراء بعض التعديلات التي لا تؤثر في محتوى الدراسة ووجهة نظر صاحبها.

وإذا تعلقت التعديلات بمسائل جوهرية فإن ذلك يتم بعد التشاور مع صاحب الدراسة.

- حق الرد مسموح به للشخص أو المؤسسة المعنية، ولا يقبل الرد على الرد وذلك تجنبا للجدال.
- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تلزم إلا أصحابها ولا تحمل بالضرورة وجهد نظر المنظمة.
- تدفع المجلة مكافأة مالية لأصحاب المقالات التي تنشرها وذلك حسب الأنظمة المالية المعمول بها في المنظمة وهي حاليا في حدود 150 إلى 200 دولار امريكي.
- توجه جميع المكاتبات الخاصة بالمجلة إلى مدير إدارة التوثيق والمعلومات على العنوان الألكسو بتونس.

موضوعات ترى المجلة ضرورة التركيز عليها في الأعداد القادمة

سعيا إلى مواكبة المستجدات العلمية في مجالات المكتبات والتوثيق والأرشيف والمعلومات وغيرها من المجلات ذات الصلة، وحرصا على الإسهام العلمي العربي الجاد في هذه المجالات الحيوية وتطوير الإنتاج العربي فيها كما وكيفا، فإن المجلة ترجو من السادة الباحثين والجامعيين وسائر المختصين أن يوافوها بدراساتهم وبحوثهم في المجالات التالية خاصة:

- الإنتاج الفكري العربي في الانترنت والويبلوغرافيا (webliography).
- النشر الإلكتروني وتأثيره في خدمات المعلومات
- تقويم أداء المكتبات ومراكز المعلومات العربية.
- المكتبات المدرسية ودورها في النظم التربوية العربية.
- أدوات العمل التوثيقي العربي: لغات التصنيف (تعديلات ديوي العشري العربية -المكانز - قوائم رؤوس الانترنت في تنمية مجموعات المكتبة والفهرسة والمراجع.
- النشر الإلكتروني وحقوق المؤلف عربيا وعالميا (في العالم العربي وأوربا والولايات المتحدة).

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

"حصيلة سنة من النشاط"

مريم بنت بكر – اللجنة الوطنية

عملت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خلال مسيرتها على القيام بالعديد من الأنشطة الهادفة والهامة بغية الرفع من مستوى التربية والثقافة والعلوم في مختلف أنحاء العالم العربي. ومن الصعب حصر هذه الأنشطة في عجالة كهذه إلا أننا سنقتصر هنا على أهم الأنشطة التي استفادت منها بلادنا أم مثلت في بعضها عن طريق اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم وأهم هذه النشاطات نذكرد فيما يلي:

- ندوة تصميم برامج تدريب معلمي التعليم متعدد الفصول التي احتضنتها انواكشوط في الفترة ما بين 1 إلى 6 يوليو 2000 والتي مكنت من تدارس أهم المشاكل المطروحة على معلمي هذا النوع من الفصول الذي تكاد تنفرد به المنطقة العربية كما أسفرت عن وضع تصور لبرامج هذا النوع من الفصول.
- المؤتمر التربوي الثاني المنظم في الفترة ما بين 23 إلى 30 يوليو بدمشق والذي ضم لفيف من ذوي الاختصاص التربوي في الوطن العربي.
- مؤتمر الاسكندرية السابع حول تعليم الكبار ومحو الأمية والذي احتضنته أبو ظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة ما بين 30 شتمبر إلى 3 اكتوبر 2000.
- المؤتمر الأول للوزراء المسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي والذي إلتأم بلبنان فى الفترة ما بين 18 إلى 21 شتمبر 2000.
- مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافي في الوطن العربى الذي احتضنته الرياض، بالمملكة العربية السعودية، من 16 إلى 28 نوفمبر 2000.
- اجتماع تشاور لإنشاء الشبكة العربية للربط بين الجامعات المنظم في الفترة ما بين 14 إلى 16 فبراير 2000 بتونس.
- ندوة حول تحديث برامج إعداد معلمي التعليم المهني والفني، انتظمت في طرابلس – الجماهيرية العربية الليبية في الفترة ما بين 8 إلى 13 اكتوبر 2000.
- ندوة المعالم الأساسية للمدرسة المثالية في القرن الواحد والعشرين المنظمة

بالدوحة في الفترة ما بين 6 إلى 11 مليو 2000.

- اجتماع حول تطوير البحث التربوي للتعليم النظامي ومحو الأمية، عقد في الفترة ما بين 6 إلى 10 مارس 2000 بتونس.
- اجتماع خبراء تطوير محتوى أهم المواد العلمية في المرحلة الثانوية العامة، احتضنته صنعاء، في الفترة من 14 إلى 19 مايو 2000.
- ورشة عمل في الإعلام الثقافي – السيناريو – نظمت في الفترة من 15 إلى 22 يوليو 2000 بالقاهرة.
- ندوة حول البحث العلمي في العالم العربي، نظمت في الفترة ما بين 24 إلى 26 إبريل 2000 بالشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة.
- دورة تدريبية حول تخطيط حملات محو الأمية نظمت في الفترة ما بين 3 إلى 8 يونيو 2000 بالخرطوم.
- ورشة عمل حول تعليم اللغات في التعليم العام نظمت في الفترةِ ما بين 11 إلى 15 مايو 2000 بتونس.
- دورة حول الجامعة وتحديات المستقبل نظمت في الفترة من 25 إلى 28 شتمبر 2000 بالمملكة المغربية.
- دورة تدريبية للعاملين في مجال التعليم عن بعد احتضنتها عمان في الفترة من 15 إلى 20 مايو 2000.
- دورة تدريبية حول استعمال نظام المعالجات الإحصائية استضافتها القاهرة في الفترة من 9 إلى 14 شتمبر 2000.
- ندوة علمية لمناقشة الدراسات والبحوث التي أسفرت عن اعداد مشروع استخدام التكنولوجيا والتي نظمت في الفترة من 21 إلى 25 اكتوبر 2000 بعمان.
- دورة تدريبية للعاملين في اللجان الوطنية العربية نظمت في الفترة من 29 اغسطس إلى 9 شتمبر 2000 بالقاهرة.

وهنا نذكر الجهود الكبيرة التي بذلتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في سبيل النهوض بالعلوم وترسيخ الثقافة العربية وتعزيز دور التربية في مختلف أقطار الوطن العربي سواء تعلق الأمر بالندوات والورشات التكوينية أم بالاجتماعات الوزارية والملتقيات التعليمية.

وقد سعت لجنتنا الوطنية إلى مشاركة بلادنا في جميع التظاهرات المذكورة أعلاه عن طريق القطاعات المعنية بالتربية والعلم والثقافة.

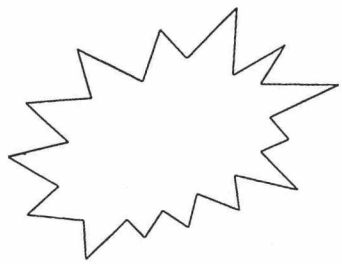

المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة المجلس التنفيذي

الدورة 21 الرباط 16-20/نوفمبر 2000

(مشروع خطة العمل الثلاثية والموازنة للاعوام 2001-2003)

الشيخ المعلوم ولد محمد سالم
اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة

صادق المجلس التنفيذي للمنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الايسيسكو) في دورته الاحدى والعشرين المنعقدة في الرباط المملكة المغربية في الفترة من 16 إلى 20 نوفمبر 2000 على مشروع الخطة الثلاثية وموازنة المنظمة للأعوام 2001-2003.

وتأتي أهمية هذا المشروع في أنه المشروع الذي ستفتتح به المنظمة نشاطاتها مع بداية الالفية الثالثة، ولهذا حرصت الادارة العامة على إغنائه بالعناصر الأكاديمية والتنفيذية القادرة على مساعدة الدول الأعضاء على مواجهة التحديات الجديدة التي تولدت عن المتغيرات الدولية المتسارعة في ميدان التربية والعلوم والثقافة والاتصال والمعلومات.

وقد تضمن المشروع برامج لتطوير التربية والعلوم والثقافة والاتصال والتعاون بين الدول الاسلامية، وسنعرض لأهم مرتكزاتها على النحو التالي:

1.برامج التربية وتشمل خمسة حقول:

- خصوصيات التعليم في الدول الاسلامية.
- محو الامية
- التعليم النافع
- التعليم ودوره في خدمة التنمية الدائمة
- التربية ومواكبة العصر

2.برامج العلوم: وتشمل أربعة حقول هي:

- البحث من أجل التنمية العلمية والتقانة وتطبيقاته
- تعزيز تدريس العلوم والتقانة
- الموارد الطبيعية والتنمية
- العلوم الاجتماعية والانسانية

3.برامج الثقافة والاتصال: تشمل هذه البرامج اربعة حقول هي:

- الذاتية الثقافية الاسلامية
- الثقافة في خدمة التنمية الشاملة
- الثقافة الاسلامية الفاعلة والمتفاعلة
- القدرات الاتصالية للبلدان الإسلامية

4.برامج العلاقات الخارجية والتعاون: تشمل هذه البرامج اربعة حقول هي:

- التعاون العربي الاسلامي والدولي
- تطوير المؤسسات التربوية والعلمية والثقافية والاجتماعية في القدس الشريف.
- تطوير المؤسسات بسرايفو
- تفعيل التعاون مع اللجان الوطنية للدول الاعضاء.

كما تضمن مشروع الخطة الثلاثية برامج أخرى تتعلق بمركز المعلومات والتوثيق وبرامج التخطيط والمتابعة والتقييم وبرامج الصحة والترجمة.

المؤتمر الإسلامي لوزراء خارجية المؤتمر الاسلامي يصادق على استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب

أكد المؤتمر الإسلامي السابع والعشرون لوزراء الخارجية، على أهمية إنجاز استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية وآلياتها التنفيذية، ودعا المؤتمر الإسلامي الأول لوزراء التعليم العالي والبحث العلمي الذي عقد في أكتوبر الماضي في الرياض، إلى اعتماد الآليات، وشدد على أهمية تنامي التعاون في مجال البحث العلمي والتطوير بين الدول الإسلامية، وعلى ضرورة اكتساب المعارف والمهارات في مجالات المعلومات والاتصالات والتكنولوجيا.

ودعا المؤتمر المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - إلى رفع آليات تنفيذ استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية، إلى الدورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامي المنعقدة في الدوحة في شهر نوفمبر الماضي.

وصادق المؤتمر على مشروع استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب وآليات تنفيذها لتي أعدتها الإيسيسكو لرفع هذه الاستراتيجية وآليات تطبيقها، إلى الدورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامي للمصادقة عليها.

وأشاد المؤتمر بالإنجازات التي حققتها الإيسيسكو في ميادين التربية والعلوم والثقافة والاتصال لفائدة الدول الأعضاء والمجتمعات الإسلامية، وبالخصوص ما يتعلق منها بتطوير برامج محو الامية ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وتشجيع الحوار بين الحضارات والثقافات والأديان، ورعاية أبناء الجاليات الإسلامية في المهجر، وتشجيع البحث العلمي وتطوير المناهج العلمية ومسايرة التقدم العلمي والتكنولوجي وتطوير المختبرات العلمية، ومساعدة البلدان الإسلامية على المحافظة على مواردها الطبيعية وحسن تدبيرها.

واثنى المؤتمر على جهود الإيسيسكو في مجالات اختصاصاتها لفائدة الجمهوريات المستقلة عن الاتحاد سوفيتي السابق، وأشاد بقيامها بإنشاء قسم اللغة العربية والثقافة الإسلامية في جامعة موسكو لتكوين المعلمين، ودعاها إلى تعميم هذه التجربة في جامعات أخرى في أوربا وأمريكا.

وأشاد المؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية بالأداء المتميز للمدير العام للإيسيسكو، وبالدور الفعال الذي تقوم به المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة برعايته، من أجل تحقيق النهضة التربوية والعلمية والثقافية للعالم الإسلامي، وحث المؤتمر الإيسيسكو على البحث عن موارد مالية

إضافية من خارج موازنتها لتنفيذ مشاريعها الحضارية.

وعبر المؤتمر عن اعتزازه بالموقع المتميز الذي تحتله الإيسيسكو على الساحة الدولية من خلال علاقات التعاون الفاعلة مع كبريات المنظمات الدولية والإقليمية الموازية.

وطلب المؤتمر الإيسيسكو المساهمة في إنجاز صياغة مشروع الإعلان العالمي حول الحوار بين الحضارات، واعرب عن تقديره لمبادرة الإيسيسكو بعقد ندوة دولية في برلين يوم الخامس يوليو، حول الحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات.

وأشاد المؤتمر بقرار الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة بانضمام الجزائر إلى عضوية الإيسيسكو، وناشد الدول الأعضاء التي لم تنضم بعد إلى عضوية الإيسيسكو، إلى الانضمام إليها. كما دعا المؤتمر الدول الاعضاء إلى الوفاء بالتزاماتها المالية لتمكين الإيسيسكو من تنفيذ برامجها ومشروعاتها.

وشكر المؤتمر الاسلامي لوزراء الخارجية العاهل المغربي جلالة الملك محمد السادس على الدعم الموصول الذي تلقاه الإيسيسكو من الحكومة المغربية. كما شكر المؤتمر المملكة العربية السعودية على قرارها باستضافة المؤتمر الاسلامي الأول لوزراء التعليم العالي والبحث العلمي من أجل إقرار آليات التنفيذ استراتيجية التطوير في العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية، وعلى دعمها السخي للمنظمة الإسلامية من أجل تنفيذ البرامج والأنشطة الموجهة لتعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

وعبر المؤتمر عن تقديره البالغ للتقرير الذي قدمته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إليه، حول أنشطتها في القدس الشريف، وطلب منها رفع هذا التقرير إلى دورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامي.

اليونسكو واللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والعلوم والثقافة

(جهود مشتركة لإشاعة السلام)

محمد المختار ولد المصطفى

أن إشاعة ثقافة السلام داخل الشعوب وبين الدول وفي العالم هدف سامي من أهداف اليونسكو التي هي منظمة عالمية تمثل إرادة الدول الأعضاء بها وتلزمهم بقوة النصوص وضوابط الأخلاق الإنسانية بالعمل المشترك على توطيد هذه الثقافة والتمكين لها في وجدانات النشء وهم ما يزالون في طور النمو والاستكمال ، وهو ما جعل اللجنة الوطنية الموريتانية للتربة والعلوم والثقافة تستجيب بسرعة لنداء اليونسكو المتعلق بتخليد السنة الدولية لثقافة السلام ، وهي بهذا العمل لا تستجيب لمطالب اليونسكو فحسب و إنما تعمل في نفس الوقت لتحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها والتي حددها المرسوم المنشئ لها باعتبارها تسعى الى دراسة مختلف القضايا المتعلقة بالتربية والثقافة والعلم ومتابعة التعاون مع المنظمات الأممية والدولية المهتمة بالمجال وتشجيع المبادلات في هذا الميدان ودفع الرأي العام إلى معرفة المنظمات وأهدافها من أجل التفاهم والتقارب بواسطة التربية والعلم والثقافة وفي هذا السياق عملت اللجنة الوطنية الموريتانية خلال سنة ألفين على توعية الرأي العام الوطني بأهمية هذا الموضوع وذلك بتوزيع آلاف النسخ من إعلان 2000 لثقافة السلام ودفع العديد من ذوي الرأي والمثقفين للتوقيع عليه والالتزام بالمشاركة الفعالة في توزيعه وشرح مضامينه وقد شمل مجال تحركها إضافة الى شركائها من أندية وروابط اليونسكو وشبكة المدارس المنتسبة لها ، الجمعيات والروابط والمنظمات غير الحكومية خاصة في القطاعات النسوية والشبابية. كما شجعت الكتاب والمفكرين والجامعيين على عقد حلقات التدارس والنقاش حول مقومات التكامل الثقافي في خدمة السلم الاجتماعي المحلي من جهة والحوار والتفاهم العالمي من جهة أخرى ، وقد كان مقر اللجنة ومركز التوثيق بها منتدى لعديد من الجامعيين والمهتمين بالحقل لتدارس هذه الموضوعات وهم يتواجدون في هذا المكانة لنشر بحوثهم في دورية اللجنة "الموكب الثقافي" التي أعلنت عن هذا الموضوع اكثر من مرة كما عملت اللجنة على تشجيع الصحافة لتناول هذا الموضوع والتحسيس حوله وقد شاركت المدارس المنتسبة في هذه الحملة في الأوساط المدرسية .

وقد توجت أنشطة هذه السنة بإقامة يوم تحسيسي بالتعاون ما بين اللجنة واليونسكو من خلال مكتبها الجهوي بالرباط أقيم في هذا اليوم عدد من النشاطات وزعت خلاله نشرية أنتجتها اللجنة الوطنية تحمل جملة من الشعارات من شأنها التأثير على الرأي وتحريكه في اتجاه العمل الإيجابي الفعال على طريق المسالمة والسلام وقد كانت مخاطبة الوجدان الذي تسيطر عليه العقيدة الدينية هي المدخل

الذي فضلت المطوية الولوج منه الى نفس الإنسان عسى أن يدرك سمو ثقافة السلام حيث افتحت المطوية بكلام الله ودعوته الى الدفع بالتي هي احسن حتى تتحول العداوة والبغضاء إلى ولاء وصداقة حميمة مطلقة وكذلك كلام النبي عليه الصلاة والسلام في نبذ إثارة الفتن والتلعين على من أيقظها .

إضافة إلى جملة من الشعارات تدعو في مجملها إلى ضرورة إبراز عوامل التكامل والتفاعل الإيجابي بين أفراد المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة وتبيان عوامل التكامل بين الثقافات وإمكانية وضرورة الحوار، وحل الخلافات بالطرق السلمية وإشاعة التسامح الديني والعرقي والجنسي

كما بينت هذه الشعارات مخاطر التمييز في التعامل مع المرأة التي هي نصف المجتمع وذات الدور الأساسي في انسجامه لأن الإنسان كائن من طبيعة واحدة " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها" والتمييز مهما كان نوعه عمل منضاف إلى الأصل وبالتالي فهو بدعة سيئة يجب أن لا يتوانى أي عاقل في نبذه،وكذلك فإن بذر ثقافة المحبة والتكامل في ضمائر الأطفال عن طريق تنشئتهم وتعليمهم كيف يتعاملون مع غيرهم وتفهيمهم أن الاختلاف في الثقافة والجنس او العرق يجب أن يستغل للتعاون وان الله قدر هذا الاختلاف لحكمة وانه من الواجبُ الأخلاقي و الاجتماعي أن لا ينجر عنه أي شكل من أشكال التعالي أو التمييز أو الاحتقار وان الطريق إلى اكتساب هذه القيم يمر بالتربية والعلم والتفاهم .

هذا بصفة عامة ما ترمي إليه شعارات هذه النشرية التي ساهمت بها اللجنة الوطنية الموريتانية للتربية والعلوم والثقافة في تخليد السنة الدولية لثقافة السلام وبالإضافة إلى هذه النشرية نظمت طاولة مستديرة في مدرج المدرسة الوطنية للإدارة يوم 11 دجمبر 2000 شارك في إنعاشها نخبة من الجامعيين ورجال الثقافة وحضرها جمع غفير من الناشطين في مجال الثقافة والمجتمع المدني وقد ناقش المحاضرون جملة من الموضوعات المتعلقة بثقافة السلام ودور التربية في توطيد التآخي والتكامل وكذلك ناقشوا الديمقراطية ودورها في حماية حقوق الإنسان وإشاعة السكينة والسلام الاجتماعي، ودور التعددية الثقافية في تنمية التكامل إضافة إلى دور المؤسسات العلمية في تحسين مستويات التفاهم وقد ابرز المتحاورون دور مؤسسات المجتمع المدني في توطيد التعاون الاجتماعي أن التنوع الثقافي إذا ما أحسن تأطيره وتوجيهه بإرادة صادقة بمجهودات دولية متكاملة سيؤدي حتما إلى المساهمة في السلام وازدهار الحضارة العالمية ،

وقد اشرف على الافتتاح الرسمي لهذا اليوم التحسيسي الأمين العام لوزارة الثقافة والتوجيه الإسلامي بحضور الأمين العام للجنة الوطنية الجهة المنظمة للتظاهرة، إضافة إلى عدد من كبار المسؤولين من قطاعات الثقافة والتربية والإعلام وشؤون المرأة وجامعة انواكشوط وجمع غفير من الساسة والمنتخبين وقيادات المنظمات غير الحكومية .

تأملات ومصطلحات في ثقافة السلام

محمد المحتار ولد المصطفى
رئيس روابط وأندية اليونسكو

اعتقادنا جازم بأن الكون وجد بأمر مطاع، من فاعل أهلا للطاعة، وحروف أمر الوجود هذا في لغة الضاد لا تزيد على اثنين مكبلين بالسكون كي لا تزيد ولا تحيد عنها جميع الكائنات، وقد حددت الرسالات السماوية الصحيحة تفاصيل وشروط تلك الكينونة، وكفت العناصر والأشياء مؤونة البحث فيما هو خارج الهيبة والمنة الكريمة الممنوحة لأمير الكائنات، والتي زودته بأدوات التعامل فهما ووعيا، واستيعاب مضامين التعاليم المحددة للمسلكيات والعلاقات. بعد ان عرضت الإمارة على جبابرة الكون فأدركوا صغارهم وعجزهم عن هذا الحمل فتولاها لجهالته أو شجاعته أو قوته. فهل كان وفيا وامينا وصادقا في استيعاب مهمته في الوجود أم أنه كان عكس ذلك لئيما وغادرا وكذابا؟

وهل إن احدى الصورتين هي الطبيعة الفطرية فيه والشنشنة الجوهرية الدائمة، والأخرى خلة طارئة عارضة شاءتها العلاقة مع باقي عناصر الكون الطبيعية بمفهومها المادي والبشري؟ عموما لا نريد ان نجهد انفسنا في محاولة الاجابة على هذه المعضلات الفكرية وإن كان غيرنا ممن رأوا في انفسهم اهلية الاجابة أجابوا ولكنهم لم يتفقوا ولم يقتنعوا ولو يقنعوا. وربما شكلت تلك المحاولات، مع الصراع من اجل كسب مفقود يدعى البقاء، واتساع مجال تحرك وانتشار هذا الأمير، ومحاولة بسط سيادته على غيره من الكائنات التي تبدو وكأنها تحسده على العرش الذي اعتلاه رغم عتوها، شكلت عوامل الاختلاف وتوفير المقام والمعاش اللائقين والسير بحرية في مناكبها وعلى شواهقها، وباستخدام القوة لم يتمكن الربان في كل الأحيان من توجيه الوجهة الصحيحة فرجع عليه سلاحه في كثير من المناسبات وبذلك نشبت الحروب، وتقاسمت الصراعات الداخلية بين الإنسان والإنسان، الجهود مع الصراع المحموم ضد الطبيعة، ولئن كانت أسلحة هذين الفريقين غير متكافئة، مما بشر ويبشر دائما بإمكانية انتصار الانسان، فإن صراع الإنسان مع الانسان صراع مدمر لتكافؤ الاسلحة. وهو ما شغل الناس في كثير من بقاع الأرض عن تطوير حياتهم إلى الأفضل. واكسب آخرين خبرة في مجال الاحتواء. وأملى على قوم إنتاج طرق حياة "ثقافية" قائمة على العداوة والعدوان. وهكذا ينشأ الصراع بين قوى الخير والشر، ولكن حجم الخراب الذي يمكن ان يلحق الإنسانية، ومشاهدة الحروب المدمرة على مر التاريخ، جعل المؤمنين بضرورة العمل على حقن الدماء وصون الحياة الكريمة للانسان في أي مكان وأيا كان، يعملون على تأسيس المنظمات لجمع أكبر عدد ممكن من البشر على فكرة: وضع حد للعنف وصون السلم على هذا الكوكب. ولعل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة هي أهم هذه التجمعات اليوم، وهي تعمل جاهدة وبانجع السبل لتحقيق هذه الأهداف، إذ ان العلوم والمعارف هي مفاتيح التمكن من الحياة بالحوار وبالتكامل..الخ، وباختيارها سنة 2000 سنة عالمية لنشر ثقافة السلام، ودعوتها لكافة شركائها في هذه الفكرة للاسهام في نشر المعارف والمعلومات المتعلقة

بهذا المجال "مجال ثقافة السلام" أو الثقافة في خدمة السلام. رأيت ان تكون مشاركتي على شكل تأملات ونشر مصطلحات في خدمة السلام. وذلك في المحاور التالية:

*ثقافة السلام في الاسلام
*مفاهيم في خدمة ثقافة السلام.
*التسامح
*التعاطف والديمقراطية
*التربية والتعليم في خدمة السلام

أولا: ثقافة السَلام في الاسلام

إذا انطلقنا من الدلالة اللغوية باعتبار اللغة دالة الفكر ووسيلة التواصل، فإن جذر لفظة الاسلام والسلام جذر مشترك من أسلم أو سلم أو سلّم وهي دلالات للنجاة من الآفات والبرء منها وتجرد النفس عن المحنة في الدارين وبراءتها من العيوب. والسّلام الصلح والسلامة الخلاص والنجاة(1).

ويبلغ هذا التعبير "السلام" اسمى مكانة في الاسلام لكونه اسما من اسماء الله الحسنى"هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام(2) وكذلك فإن اعظم ليلة وافضلها ليلة القدر المخبأة لدفع اداء الاعمال الفاضلة ولجعل المؤمنين بالاسلام يبحثون عنها ويتحرونها في ليالي كل سنة وفي مظانها من العشر الاواخر من افضل الشهور في الاسلام "رمضان". وهي ليلة تتنزل الملائكة بالقرآن الكريم إلى السماء الدنيا. وصفت تشريفا لها بأنها "سلام هي حتى مطلع الفجر"(3) وروي أن الملائكة تبادر فيها المؤمنين بالسلام(4) قال المفسرون فهي ليلة كلها سلام وامان واطمئنان، وعندما أمر الله تعالى النار بأن لا تحرق نبيه ابراهيم امرها بقوله "كوني بردا وسلاما"(5) والثناء على الانبياء والرسل يكون بالصلاة والسّلام. تحية خزنة الجنة لعباد الله الفائزين بنعيم الجنة بقولهم"سلام عليكم"(6) "وتحيتهم فيها سلام"(7). وتحية الاسلام "السلام عليكم" وهي سنة مؤكدة على كل قادم على قوم أو داخل منزل، وواجبة الرد على كل من مسلم عليه "يأيها الذين ءامنوا لا تدخلو بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على اهلها".

وقد أمر النبي محمدا عليه الصلاة والسلام بإفشاء السّلام لكونه وسيلة مثلى للتحابب والتآخي: عن ابي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيئ إن فعلتموه تحاببتم، افشوا السلام بينكم". رواه مسلم(8).

وإذا تجاوزنا المدلولات المباشرة للتعبير، ونظرنا إلى أسس ثقافة السلام والمساواة في الاسلام من القرءان والسنة فإن الأمر يتطلب تسطير مجلدات وليس مجرد فقرات او صفحات ضمن دورية محدودة الحجم. ولكننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض الآيات التي ترشد المهتمين بثقافة السلام إلى ان الدين الاسلامي اعطى لهذا الموضوع ما لو آمن به الجميع وانتفعوا بهديه وسمته لما كانت الصراعات والحروب، إذ" أن معرفة الانسان لحقيقته وقيمته ذاته وخصائص تكوينه وسر وجوده هو السبيل لتكامله وتساميه وتقويمه وترقية وانتفاعه بمنحة الحياة وتلائمه مع سنن الله في الكون"(9). والمتمعن في رفض الاسلام لنزعة الاستعلاء والاقرار الصريح القاطع المشرف بوحدة الناس جميعا، تأصل التكوين. وانهم من حيث التسوية بينهم بسبب هذه الوحدة كاسنان المشط الواحد. وان الانسان قد خلق في احسن تقويم وصوره على احسن هيئة، وجعله خلقا سويا مكرما. وفضله بما أودع فيه من

خصائص وملكات على كثير من المخلوقات، والآيات المؤيدة لهذه الحقائق كثرة نذكر منها قوله تعالى:

"يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم"(10)

"لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم"(11) ، "الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين" (12)، "خلق السماوات والارض بالحق وصوركم فاحسن صوركم وإليه المصير" (13). "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (14)، "يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك" (15).

وروى ابو داود والترمذي بسند صحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله قد أذهب عنكم عبيّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، انتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعنّ رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم او ليكونن أهون عند الله من الجعلان التي ترفع بأنفها النتن."

مما تقدم يتبين مدى اهتمام الاسلام بأهمية القضايا الجوهرية التي تؤثر سلبا على العلاقات الانسانية باجتثاث نظرات الاستعلاء والتمايز الناجمة عن التصورات الخاطئة لبعض النظريات الانسانية القاصرة بطبيعتها او المقصرة أحيانا تحت هيمنة هواها وغرائزها والقائلة بترهات الأفضلية او الانتقاء الطبيعي التي تأسست على ضوئها مذاهب وايديولوجيات، روجت ومارست احيانا العنف وجرت للبشرية من ويلات الدمار والخراب ما جعل الشعوب تستيقظ وتعمل جاهدة للبحث عن انجع السبل لإحلال الفضيلة والسلام والامن والطمأنينة والإخاء محل الرذيلة والعنف والخوف والاضطرابات والتناقض، وقد اكتفينا باستعراض هذه النصوص المحددة لطبيعة الانسان كجوهر واحد واصل واحد اما لو تتبعنا التشريعات الاسلامية في المعاملات والعلاقات العامة وانظمة الاعلام والدعوة لوجدنا من الاهتمام بمعالجة المشكلات الانسانية ما يشفي غليل محبي السّلام والعاملين من اجله. فمن آيات الدفع بالتي هي احسن واتباع السيئة بالحسنة لمحوها واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم المتعلقة بنبذ الفتن والعنف وحل المشكلات بالطرق الشرعية باللجوء إلى الصلح والقضاء والحكم.. إلى غير ذلك من الاساليب المدنية للحيلولة دون الجريمة ومعالجتها بالطرق السلمية إن وقعت إضافة إلى ما تدعوا إليه مكارم الاخلاق الاسلامية من تراحم وتآزر وتضامن ومعاملات حسنة في ظروف الحرب والسّلم ما بين المسلمين من جهة ومعاملتهم لمن يخالفهم في الدين من جهة أخرى.

ثانيا: مفاهيم في خدمة ثقافة السلام:

بعد استعراض القيم والاخلاق الاسلامية التي تؤكد على ان الاسلام دين السلام نرى ان نستعرض هنا مفاهيم اخرى لتزويد القارئ ببعض المعلومات التي تساعده في تشكيل اتجاه ايجابي نحو نبذ العنف والدعوة إلى تجذير حركة التثقيف في خدمة السلام ونقترح هنا ان نحدد معنى:

أ-التسامح tolérance: عند علماء اللاهوت الصفح عن مخالفة المرء لتعاليم الدين. أما في اصطلاحات فلاسفة القرن الثامن عشر خاصة فولتير فهو ما يتصف به الانسان من ظرف،

وانس، وأدب، يمكنه من معايشة الناس رغم اختلاف آرائهم عن آرائه. وللتسامح عدة معان: أولها احتمال المرء بلا اعتراض كل اعتداء على حقوقه الدقيقة بالرغم من قدرته على دفعه أو تغاضي السلطة بموجب العرف والعادة عن مخالفة القوانين التي عهد إليها بتطبيقها وثانيهما: هو ان تترك لكل انسان حرية التعبير عن آرائه وان كانت مخالفة لآرائك، وهو ما جعل (قوبلو يقول) إن التسامح لا يوجب على المرء التخلي عن معتقداته أو الامتناع عن اظهارها او الدفاع عنها او حتى التعصب لها، بل يوجب عليه الامتناع عن نشر آرائه بالقوة والقدح والخداع. وثالثها أن يحترم المرء آراء غيره لاعتقاده أنها محاولة للتعبير عن جانب من جوانب الحقيقة، وهذا يعني أن الحقيقة أغنى من أن تحول إلى عنصر واحد، وأن الوصول إلى معرفة عناصرها المختلفة يوجب الاعتراف لكل انسان في حقه في ابداء رأيه حتى يؤدي اطلاعنا على مختلف الآراء إلى معرفة الحقيقة الكلية، فليس تسامحنا في ترك الناس وما هم عليه من عاداتهم واعتقاداتهم وآرائهم منة نجود بها عليهم وانما واجب أخلاقي ناشئ عن احترام الشخصية الانسانية.

وعكس التسامح التعصب الذي هو الدفاع بحماسة عمياء، وتسخير العقل للهوى ومناظرة الحق، وكلما زاد التعصب نقصت الحرية والعكس بالعكس(16).

ب-التعاطف:

ظاهرة نفسية تقوم على مشاركة الآخرين فيما يشعرون به، والاشتراك في حالات نفسية متماثلة، الخوف، السرور، الغضب، الحزن.. فالتعاطف إذن هو الاشتراك في الميول والعواطف، والالحاد في الافكار والمنازع، وهو لا يقتضي مجرد المشاركة في الحزن او السرور فحسب وإنما يقتضي المؤازرة بالجهد، لأن التعاطف الكامل يجعل المرء شريكا لأخيه بالفعل ليدفع عنه ما ألم به، وهو بذلك يتضمن عنصرين أحدهما انفعالي والآخر فاعل، وعلى الساعين في اشاعة ثقافة السلام مسؤولية تنمية استيعاب هذه المفاهيم(17) عن طريق نشرها وتحسين مستوى الوعي بها لتصبح قيما ذاتية في عقول البشر لتضيف لبنة في محاولات اليونسكو "لاقامة حصون السلام في هذه الأذهان"، وإن زراعة هذه المفاهيم في الذاكرة الجمعية والفردية للأمم والشعوب يتطلب انتهاج الأسلوب الديمقراطي في اتخاذ القرارات الهامة في حياة الناس سواء تعلقت تلك القرارات بتدبير شؤونهم العامة أو تصرفاتهم الفردية، او حتى تقديم الخدمات التربوية والاجتماعية لهؤلاء الافراد، فالديمقراطية غاية ووسيلة:

فهي غاية لتحقيق الذات الفردية ليشعر الانسان وهو يشارك مع غيره في تقرير مصيرهم بوضع القوانين التي تعبر عن قواعد الارادة الجمعية المتواضع عليها والتي تجمع بانتظام الإرادات الفردية وتحدد طرق ممارساتها او تخول من يكلفونهم بتنفيذ هذه القواعد، ويشعرون بالحرية والكرامة والمساواة، وهم يخضعون لسلطتهم الجمعية في هذه النصوص.

وهي غاية لتفجير الطاقات التي نشعر بفاعليتها وإرادة فعلها الحرة. وهي تقود تطورها الاقتصادي والاجتماعي إلى الأفضل وتسير بخطى واثقة إلى أعلى درجات الكمال بالتكامل، وعندما تعالج الامور بالاسلوب الديمقراطي القائم على الاعتراف بالآخر كشريك وكمعين لغوي على مستوى البيت والمدرسة وفي الجمعية الطوعية والمؤسسة الرسمية لحزب ما او دولة ما.. كانت امكانية الانتقال بالاشتراك والمشاركة إلى مستويات اعلى اقليمية ودولية

وعالمية أوفر حظوظا، وهو ما تسعى إليه البشرية وهي مجبرة بحكم تحديات العولمة أو العالمية، إلى البحث عن هذا النوع من أنظمة التكامل والتعاضد والاعتراف والاحترام المتبادل. إن الطريق إلى الاقتراب من هذه القيم يمر حتما بالسياسات والفلسفات التربوية.

ج-التربية والتعليم في خدمة السلام:

إن تربية الأجيال تربية سليمة تسمح للفرد ان يحقق نماء شخصيا لقدراته بحيث يتمكن من التكيف الايجابي مع محيطه المادي والبشري ويؤثر فيه، للانسجام مع متطلبات التطور المتسارع والطموحات المشروعة في التحسين الدائم لمستويات الحياة. إن إشاعة هذا النوع من التربية من شأنه ان يعمل على تضييق الهوة الشاسعة بين دول العالم ويعزز امكانيات التعاضد ويعصم بني البشر من الازمات الناجمة عن الشعور بالغبن والتفاوت وبالتالي الشعور بالظلم وعدم الانصاف. وهذا جعل اللجنة الدولية المعنية بالتربية للقرن الحادي والعشرين تؤكد على ضرورة الاسترشاد بهدف مثالي "وهو توجيه الأمم نحو مزيد من التفاهم، **ومن الاحساس بالمسؤولية والتضامن، مع لختلاف الروحية الثقافية". وتضطلع التربية من خلال العمل على تيسير المعرفة للجميع بهذه المهمة العالمية التي تتمثل على وجه التحديد في مساعدة الفرد على فهم العالم وفهم الآخرين(18).**

وهو ما عبرت عنه احدى توصيات اللجنة المذكورة "بالتعليم للعيش مع الآخرين بنتيجة فهم الآخر وإدراك اوجه التكامل -تحقيق مشروعات - مشتركة والاستعداد لتسوية النزاعات في ظل احترام التعددية والتفاهم والسلام وذلك لتفادي الانفصام ما بين أقلية قادرة على شق طريقها بنجاح في هذا العالم

الجديد الذي هو في طريق التكوين، واغلبية تشعر بترنحها في مهب الاحداث وبعجزها عن التأثير في المصير المشترك للمجتمع في المستقبل، مع ما يقترن بذلك من مخاطر تراجع الديمقراطية وحدوث ثورات متعددة لا يعرف مداها ولا اتجاهها، خاصة في ظل تطورات ادوات الدمار.

الاحالات:

1.الدكتور صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء الاول، دار الكتاب اللبناني 1982 ص664.
2.سورة الحشر الآية 23.
3.سورة القدر الاية 5.
4.عبد الله كنون: تفسير صور المفصل من القرءان الكريم، دار الثقافة للنشر الدار البيضاء الطبعة الاولى ص391.
5.سورة الانبياء الآية 69.
6.سورة الزمر الاية 70.
7.سورة النور الاية 27.
8.شرح النووي على صحيح مسلم الجزء الثاني ص 35.
9.عمر عودة الخطيب. نظرات اسلامية في مشكلة التميز العنصري مؤسسة الرسالة.
10.سورة الحجرات الآية 13.
11.سورة التين الآية 4
12.سورة غافر الآية 64.
13.سورة التغابن الآية 3.
14.[illegible] 70.
15.سورة الانفطار لآيات 6،7،8.
16.عمر عودة الخطيب مرجع سابق ص 15.
17.غوبلو فيلسوف عاش في الفترة 1858-1935م.
18.جميل صليبا مرجع سابق ص:271-272.
19.نفس المرجع ص296-297
20.اللجنة الدولية المعنية بالتربية في القرن الحادي والعشرين، مقتطفات من التقرير "التعليم ذلك الكنز الثمين" منشورات اليونسكو 96.
21.نفس المرجع.

العلامة احمد بن العاقل

العلم - القضاء- السياسة

المصطفى ولد احمد حب الله

تعتبر البيئة التي ولد فيها احمد بن العاقل بيئة خاصة ومتميزة خصوصا من الناحية الثقافية حيث برز جو سياسي مستقر مناسب لنشر العلوم وازدهارها. وقد كانت مجموعة هذا العالم رأس الحربة في الفئة المتعلمة التي هي بدورها تمثل السلطة الدينية إلى جانب سلطة سياسية تتمثل في الامارة، حيث كان يسود جو من الانسجام والتآلف والثقة بين قطبي المجتمع آنذاك. وقد نشأ احمد ولد العاقل في هذا الجو المفعم بالنشاط العلمي، في مجتمع بلغت فيه الثقافة ذروتها وفي أسرة ضرب المثل بها: أسرة أهل العاقل في المثل والاخلاق والشيم الفاضلة. فما هي اهم محطات حياة احمد بن العاقل؟

نشأته ومولده:

ولد احمد بن العاقل سنة 1145هـ/1841م في بيت علم وصلاح وزهد حيث كان ابوه محمد العاقل من أجل فقهاء القرن (12هـ) في منطقة الكبلة. ومن الذين كثر ذكرهم في الوثائق التاريخية إشادة، حيث يعتبر عالما جليلا له عدة فتاوي، أما أمه فهي عيشة بنت عبد الله بن حبين الألفغية " إيداتفاغ" وأبوها كانت تشمش تضع عنده "الكص، أو الظهر" تعبيرا عن اجلاله وزعامته المطلقة لهم، وقد توفي مع بنيه في "شربيه"، وكانت بداية حياة أحمد تذكر أنه أخذ عن والده الذي تربى في أحضانه وسط جو علمي يطبعه البحث، كما أخذ عن أخته العالمة غاديجة بنت محمد العاقل، والتي تعتبر اكبر معلمة في البلاد، ومعروف عنها أنها إذا أرادت ان تعبر عن سهولة أمر تقول: (كالمنطق عندنا)، وقال احمد عنها شعرا.(1) ويقول حفيده محمد بن احمد يوره في كتابه "اخبار الأحبار في أخبار الآبار": "أخذ العلم الظاهر عن أخته خاديجة وكانت "دولته" حينئذ المختار بن بون والأمير الصالح عبد القادر الفوتي، وأخذ علم الباطن وأسرار الحروف عن الشيخ ألفا ابراهيم من أهل فوتا جلو، بعد ما سافر لطلبه ستة اعوام"(2). زد على ذلك ان كل المهتمين بحياته يذكرون تأخره الملحوظ في طلب العلم، إذ لم يهتم به إلا وقد بلغ من العمر الثلاثين، هكذا تنقل بعض المصادر مع بعض الاختلاف، يذكر أن حياته كانت مقسمة إلى "ثلاثة مراحل: الاولى قضاها في فترة الشباب دون تعلم يذكر، والمرحلة الثانية قضاها في التعلم، والثالثة قضاها في القضاء والفتوى مع دوره الاجتماعي والسياسي"(3). إلا أن هذه الرواية قابلة للنقاش، فليس من المعقول أن يهتم محمد العاقل بتدريس (ابنته خاديجة، التي أصبحت أستاذة في المنطق دون ان يقدم أدنى مساعدة لابنه في فترة تتحدد فيها قيمة الفرد في المجتمع الزاوي عموما والشمشومي خصوصا بمدى معارفه).

ومن المعروف أن أحمد نشأ مع أبيه كما ذكرنا والذي كان عالما من كبار العلماء المالكيين في المنطقة والمخلصين في مالكيتهم، مما يخول لأحمد تربية اولية يفترض انها كتلك التي يتمتع بها أي طفل يحظى بنفس الظروف.

هكذا نعتقد ان أحمد لم يهمل الدراسة في الثلاثين سنة الأولى من عمره، لكنه يمكن ان يكون اقتصر على القرآن والعلوم الاولية والكتب الصغيرة. ومما سبق نتبين انه درس

بعض العلوم في الثلاثين الأولى من عمره، ولكن لا ندري كيف ومتى اكمل تعليمه؟ ومسايرة لصاحب فتح الشكور فإنه درس علم الكلام والمنطق واستكملها، وكان بارعا في الاصول والحديث والبيان (4). لكن الاستشكال الذي يظل مطروحا عن متى درس احمد؟ هل في بداية عمره؟ أم في وسطه؟ علما بان الوثائق المتأخرة تثبت انه لم يدرس بعد السادسة والخمسين من عمره(5)، فليس إذن تأخره هذا دالا على اهماله مطلقا للتعليم في صباه، وانما يعني فقط، عدم الانقطاع النهائي له قبل الفترة الثالثة، وقد اشار ابن بنان البرتلي (ت.1319هـ) في كتابه فتح الشكور إلى ذلك بقوله "وما اشتغل بالعلم إلا بعد التزويج وأصلح الله زوجته، وكانت له عونا على التعليم، ومكث نحو عشر سنين يشتغل بالعلم لم يقف فيها على البر لاشتغاله بالعلم واجتهاده فيه، ومرض بعض اقاربه في هذه السنين فلم يعلم بمرضه (6).

وبالجملة فبامكاننا ان نقرر من خلال هذه الشهادات ومن الروايات المتواترة والمتطابقة ان مرحلة العلم والتحصيل من حياة هذا الشيخ قد جاءت متأخرة رغم ما اتسمت به من طول مدة وبالغ جهد وجد واجتهاد.

نسبه وحياته العائلية واقوال العلماء عنه:

"هو احمد بن محمد العاقل بن محمد بن الماح بن المختار بن عثمان بن ابهم بن مهنض امغر الجد الجامع لبني ديمان وأحد الرجال الخمسة الذين أسسوا الحلف المعروف "بتشمش". ويرجع نسب هذا الرجل إلى أبي بكر الصديق"(7).. تزوج العلامة احمد بن العاقل في وقت مبكر نسبيا كما اشار الى ذلك صاحب فتح الشكور بقوله: "كانت زوجته امرأة صالحة وكانت له عونا على طلب العلم فقد تزوج اولا من فاطمة بنت سيد الامين بن اعمر (ايديقب) وانجب منها ابنه الأكبر محمذن ولد احمد العاقل، أما بقية أبنائه فأمهم عائشة بنت المبارك بن سكم بن الماقور بن سيدي الفالي بن ديمان، وهؤلاء الأبناء، هم محمد فال ولد أحمد، وابن عفان، بن أحمدو الأمين، اما بناته فهن أمنيان، وبنت وهب وامنا (8).

أما الناظر في التاريخ الثقافي لهذا البلد فسيلاحظ بجلاء المكانة المرموقة التي احتلها احمد بن العاقل، في المؤسسة العلمية الموريتانية، فهو عالم بارز يمزج بين العلم الواسع بالمنقول، والرواية والأفق الفسيح، في المعقول والدراية، ولذا اصبح كعبة طلاب العلم ومحكمة المتخاصمين ومصلح ذات بين المتخالفين، وتعطى شهادات العلماء وصفا اكثر دقة وشمولا لشخصيته العلمية المتميزة ومنزلته التي حل في قلوب الخاصة والعامة، يقول باب ولد احمد بيب العلوي في أرجوزته في تاريخ وفيات اعيان بلده:

حامي ذمار العلم في "إكيدي"
ومخرج الناس من التقليد

ويقول محنض باب بن اعبيد الديماني(1277هـ) في رثائه:

إذا اختلف الأقوام في حل مشكل
فأحمد عند القوم أحمدهم رأيا

ويتبعهما الشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي الشمشومي(1282هـ) إذ يقول عنه في كتابه: "جمان البادية" ما نصه "علامة المنكب البرزخي احمد بن العاقل"(9). وكذلك يذهب الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة الانتشائي الأبيري (ت.1286هـ) فيقول: "القاضي العدل المجمع في عصره على جلالته وتقدمه في خطة القضاء والفضل"(10). ويقول ابن بنان

البرتلي: "كان عالما بارعا مبرزا في علم الكلام والفقه والمنطق والحساب"(11).

وليست قولة باب بن احمد بيب "مخرج النـاس من التقليدي" بالكلمة البسيطة، بل هي حكم مـن عالم يعي بدقة تبعات كلما يقول، ويدرك خطـر الاجتهاد وشروطه الصعبة وخاصة في البيئـة التي عاش فيها، والتي عرف عنها على مـدى القرون الطويلة التشبث الشديد بالفروع المالكية، والانكار الصريـح والسـافر علـى المدعـي للاجتهاد، وغن بلغوا من العلم الدرجات العليـا، وتعضد بعض الفتاوي التي تتجلى في نزعتـها الشمولية إلى الاجتهاد وإعمـال الـرأي، هـذه القولة السالفة كما تبرز فيها بعض الدواعي إلى التخريج والترجيح التي اقتضت ذلك.

بيد أن أكثر هذه الشهادات صراحة هـي التـي قالها احمد عن نفسه حين ما وقع بينـه وبيـن محنض باب البحث الشهير في استدلالاته حـول ما ذهب إليه بعض العلماء من أن فاقد البصـر لا ينفذ حكمه، مشروط بوجود المثل ومثلـه لا يوجد الآن. ويؤكد مولود بن المختـار خـي الديماني هذا التميز العلمي فيقول: "ومنهم أحمـد بن العاقل الديماني الشهير بالعلم والفضل كـان اعجوبة الزمان، أقام...العلم نحو أربعين سـنة، يملي على الناس من حفظـه ويقضـي"(12). ويذهب احمد بن أسمه الديماني أيضا إلى أكـثر من ذلك فيقول: "إن أحمد بن العاقل دفن معـه أربعون فنا لم يسأل عنها"(13). في كتابـه "ذات ألواح ودسر" (مخطوط).

ويدل تفحص الوثائق التاريخية على أن شـهرته العلمية هذه قد شملت مناطق عديدة مـن البلـد فأضحى غماما مقصودا للاستفساء والتقـاضي، واستوى في ذلك العـالم والجـاهل والمتعلـم والامي.

مدرسته:

تشير المصادر التي وصلتنا فيما يتعلق بمنزلـة احمد بن العاقل العلمية إلى خاصتين أساسـيتين تلاحظان بجلاء شخصية هذا الرجل:

-تتعلق أولاهما بتشدده في طلب العلم وتـأكيده عليه، والحث على دراسته يقـول: "الحمـد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده، وبعـد فقد سمعت من بعض الثقاة.. سيدنا احمـد بـن محمد العاقل أجلنا الله تعالى ببركتهم فأخص أنه كان يوما في جماعة إذ قال لـهم يـا جماعـة المسلمين اكتبوا، اكتبوا: ولم يزل يكـرر هـذه الكلمة بأعلى صوته حتـى انتفخـت أوداجـه واحمرت عيناه وريقـه تطـاير حتـى بـهتوا وفزعوا منه فقال لهم: هل سمعتم ما قلت لكـم قالوا: نعم، فقال لهم وحلف يمينا عن مـن لـم يكتب هذا الدين ويقرأه كمن سد اذنيه باصبعـه وحلف الا يسمع ولا يفعل شيئا مما جـاء بـه رسول الله صلى الله عليه وسلم او كما قال.

-أما الثانية فتتعلق برحابة علمه وكـثرة ورود الطلاب إليه من كل مكان، وتبرز قصة النابغـة القلاوي هذه الشهرة والموسوعية العلمية فتذكـر ان النابغة، وهو من مواليد المنطقة الشـرقية، رحل في طلب شيخ يرضيه ويشبع نهمه فـي العلم، فكان كلما مر بعالم ذكر له انه يريد شيخا يقرأ عليه فسأل العالم ماذا سيقرأ؟ فيكون ذلـك فراقا بينهما الى ان أوصلته عصا الترحال الـى مجلس احمد بن العاقل فذكر له بغيته السـالفة فأجابه أحمد على الفور قائلا: (مش) وهي فعـل امر معناه ابدأ القراءة باللغة الحسانية فلازمـه النابغة وأصبح من ابرز تلامذته ولم يفارقه إلى أن توفي(14).

بعض فتاويه:

فقد سئل محنض باب بن اعبيد عن حكم راجـع الوقف إذا رجع للأقرب مع طـرو اقـرب أو

مساو، وهل يدخل على دخوله، فما فائدة قولهم يوم المرجع؟

فقال ما نصه: "وجوابه والله تعالى الموفق للصواب أني لم أجد نصا صريحا في حكم الطارئ إلا في المتبطية أن من حبس عن ولده وعقبه فانقرضوا وهو حي، إنه يرجع إلى مرجعه إلى أن يولد له فيرجع إلى ولده"(15)

وأجمع عليه الروايات في القبلة وعرف عنه تشدده في القضاء. وبهذا الفرع احتج سيد احمد العلوي في نازلة سأل عنها الفقيه: المختار بن الفغ موسى اليعقوبي وهو حبس رجع في حيلة واقفه إلى أبيه ثم طرأ للواقف ولد فأفتى بأن الوقف للولد ووافقه السائل، ولم يرتض الشيخ أحمد بن العاقل ذلك وقال: إن ذلك الفرع المحتج به غنما اخذ فيه الولد لكونه من المحبس عليهم لا لكونه من أهل المرجع لتبيين ان الحبس لم يرجع لعدم الانقطاع(16).

وقد شغلت احمد ممارسته القضاء والفتيا وحل المشاكل الاجتماعية والسياسية، عما انتصب له انظاره من التدريس والتأليف، ومع ذلك فتلميذه النابغة القلاوي مثال على مكانة هذا الرجل في التدريس، وهو ما يستنتج من منهجيته "بوطليحية" كتابه الذي كان يدرس في جامعة الزيتون، وهو ما يظهر من ان المرحلة كانت مرحلة نقد وتقويم وترو اكثر منها مرحلة جمع.

دوره السياسي:

ما إن رجع أحمد بن محمد العاقل من جولته في "فوته" حيث كان يدرس بعض الفنون النادرة (السر) على الشيخ ألفا ابراهيم حتى ظهرت شخصيته السياسية التي انصبت على رعاية المجتمع، وخصوصا الطبقات الضعيفة المتعرضة لجور الظلمة والمتجبرين وقد ساعدته على هذه الارادة عوامل عدة نذكر منها:

1.مركزه الاجتماعي، حيث كان استمرارا وامتدادا لتعاليم القائد الكبير الامام ناصر الدين.

2.سعة علمه وتنوع معارفه وتفوقه.

3.قوة شخصيته وصراحته.

4.ما منحه الله تعالى من كرامات شهد بها الجميع وشاهدها وخصوصا مع اولئك الذين واجههم(17).

لذا اجمع أهل الأمر في منطقته من فئتي الزوايا وحسان على توليته خطة القضاء، والافتاء وذلك نظرا لما حظي به من تقدير وإجلال عند هاتين المجموعتين، إذ أصبح من ناحية دعامة مهمة للامارة وسندا بارزا في تثبيت سياستها الداخلية، وبناء علاقتها مع جارتها في الخارج، فكان مقربا من الامراء الذين عاصروه بدأ بأعل الكوري (ت.1200هـ) الذي كان يستشيره في كل قراراته، ويستكتبه رسائله العامة إلى الامراء وشيوخ القبائل، وتمثل الرسالة الموجهة من الامير التروزي اعل الكوري نموذجا لذلك، وهي رسالة موجهة إلى الامام عبد القادر المامي يقول في آخرها: "..وبه إليك محبك وناصحك اعل الكوري والكاتب احمد بن محمد العاقل مسلما عليكم وملتمسا منكم الدعاء لحسن الخاتمة". وكانت له علاقة وطيدة مع الامير التروزي الأول من الفرع الثاني اعمر بن المختار(1245هـ).(18)

وحين غزا المجاهد عبد لقادر الفوتي مجموعة اترارزة بسبب ما كان يخبره به عنهم أبناء عمومتهم لبراكنة، وكادت خيله ان تطأهم، حيث وصل "تيمركاي"، اتصل الامير التروزي اعمر بن المختار بأحمد بن العاقل، وطلب منه ان يبذل قصارى جهده لدرء خطر الجيش الفوتي، فقابل احمد زميله في الدراسة الامام عبد القادر وناظره في شأن الكف عنهم، بل سأله عن

داعي غزوه لهذه المجموعة ومستندات ذلك الشرعية، فأجابه الأمير عبد القادر ان بني عمومتهم قد اخبروه بما هم عليه من قلة الاهتمام بأمور الدين فجاء لمحاربتهم لاصلاح المجتمع وإقامة الدين بارساء قواعد الأمن والاستقرار، والواقع ان هذه خطة دبرت من طرف بني عمومتهم الذين كانوا معهم في صراع دائم على النفوذ في جنوب البلاد، فأخبر احمد. الأمير عبد القادر ان حال المجموعتين متشابه، فالرجل كان ذا موقف صريح معضد لشرعية الامارة، مع انه في المقابل كان يحمي جميع المستضعفين من ظلم المتجبرين، وتمثل فتاويه تشريعا يحفظ للفئات الغير مسلحة حقوقها مثل: (المكوس، الاسترقاق اللامشروع، وفرض الغرامات، والاستغلال المفرط للفئات التابعة..) وقد أرسل الكثير من الرسائل إلى امراء وشيوخ القبائل ورجال عظام من المجتمع أمثال الامير احمد بن سيد أعل أمير لبراكنة (ت.1256هـ)، وكذلك راسل عدة مجموعات في شؤون تخص احتياجات المجتمع ساعيا إلى استرداد نهب أو غيره.(19)

تلاميذته:

أما تلاميذته فبالرغم من عدم شكنا في كثرتهم نظرا لما عرف عن الرجل من تكريس وقته للتعلم والتعليم من ناحية، ولطول المدة التي تصدر فيها للعطاء نسبيا، فإن الرواة لم يحفظوا لنا من اسمائهم الكثير.

ومع ذلك فإن أعماله المكتوبة تنم ببعض الأسماء التي ترجع كما يقول الدكتور يحي بن البراء انها من أهم طلبته بل نجزم بذلك جزم اليقين، منها:

ابنه محمذن ولد أحمد وهو الذي تولى منصب القضاء بعده، وكذلك بقية أبنائه فقد تضلعوا من العلم في حياته. ويكفينا شاهدا على ذلك أن ابنه ابن عفان كان يقضي في حياته بأمر منه، وابن عفان هذا قد توفي في حياة والده احمد، ومن تلامذته الوافدين عليه من بعيد: النابغة القلاوي نسبة إلى قبيلة الاقلال المعروفة، أما تلاميذته من قبيلة إدابهم من بني ديمان فهم: محنض بن مينين والامانة بن المختار بن آلا، ومن تندغة: الشيخ محمذ فال ولد متالي، قيل إنه لازمه فترة من الزمن(20) أو مر بمحظرته يطلب بعض المراجع عنده. إن المتأمل للمكانة العلمية والاجتماعية يسهل عليه فهم المكانة الرفيعة لهذه الشخصية الفذة.

مؤلفاته:

*شرح كبرى السنوسي في العقيدة.

*طرة على السلم في المنطق

*تلخيصات في العقيدة. وهي عبارة عن إنتقاءات لمسائل توقف واختلف فيها المحققون من العلماء.

*فتاويه وأحكامه، ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو شرعي، وفي كل المجالات المختلفة الأخرى، وهي بذلك تعتبر تعبيرا عن مرحلة مهمة من تاريخ البلد العلمي، والتي مازال الكثير منها بحاجة إلى البحث والتنقيب وإذا كان أحمد قد عاش حياة مليئة بالعطاء العلمي والاصلاح الاجتماعي، والجهد لإعلاء كلمة الله بالقلم فلا غرو في ذلك.

وفاته:

توفي احمد بن محمد العاقل يوم السبت السادس عشر ربيع الثاني سنة (1244هـ/1877م) ودفن بمقبرة "أمبمبه" في منطقة إكيدي شمال المذرذرة في ولاية اترارزة.

وقد رثاه عدة شعراء علماء منهم محمد بن الطلب اليعقوبي (ت.1272هـ) ومحنض باب بن أعبيد (1277هـ) الذي كانت مرثيته سبب مشاعرة بينه وابن المتوفى محمذن، كما رثاه

النابغة القلاوي بأرجوزة طويلــة التزم فــي اعجازها نص الفية ابن مالك ولـــذا أصبحــت تعرف عند الناس باسم "ازريكه" يقول فيها:

يا أسف الدين وكل عاقل
على وفاة شيخنا بن العاقل
شيخ الشيوخ احمد بن العاقل
قيد أوابد العلوم العاقل
يا اسف المنطق والكلام
كم بهما اصبح من كلام
لموته قد رعت الف روع
على أصول الفقه والفروع
من ذا الذي بعده يقول من
"يصل إلينا يستعن بنا يعن"
من ذا الذي يعرف سر الحرف
"فذاك ذو تصرف في العرف"
لما نعوه وذكرت فضله
"فعلى بكا بكاء ذات عضله".

كما رثاه محمد بن الطلبة اليعقوبي حيث يقول:

يا قوم للبدر المنير الآفل
بدر الدياجين احمد بن العاقل
يا قوم للبدر المنير قد ارتدت
من بعده شمس الضحى بغياطل
يا شد ما ذا قد جناه مصابه
يا داهي امر بالعشائر نازل
فاليوم أحمد أي يوم أيوم
والليل احمد أي ليل لائل.

كما رثاه محنض باب بقوله:

لقد صكت الدنيا بداهية دهيا
تفلق من هاماتها الفتى العليا
بموت سليل العاقل العاقل الذي
إذا بلغ المغيي يكون به الاغيا
إذا اختلف الأقوام في حل مشكل
فاحمد عند القوم احمدهم رأيا

الهوامش:

1- مقابلات مع أحمد ولد المختار، خلال سنة 1999، نواكشوط.
2- إخبار الاحبار بأخبار الآبار، تأليف محمد ولد أحمد يوره حفيد المعني تحقيق، د.جمال ولد الحسن، المملكة المغربي/ جامعة محمد الخـــامس، منشـورات معــهد الدراســات الافريقيـــة بالربـــاط الســـنة 1992 ،ص37،ص63.
3- الطالب الخديم بن محمد عبد الله. شخصيته احمد بن محمد العاقل واثاره وحياته/رسالة متريز - المعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية 1993.
4-الطالب محمد بن ابي بكر الصديق الولاتـــي، فتــح الشكور في معرفة اعيان علمـــاء تكـــرور، نشـر دار الغرب الاسلامي، بيروت:1981م. ص ص61\62
5- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987، ص،505.
6- المختار ولد حامد، حياة موريتانيا (الجزء الثـــاني) الدار العربية للكتاب 1990 الصفحات:30،41،71.
7- محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة) تحقيق محمذن ولد باباه، بيت الحكمة 1990 تونـــس مطبعـــة المكتبة الثقافية المغاربية
8- نفس المصدر_ ص: 99؛ 208
9- الطالب الخديم.. مرجـــع سـابق ص 57الطـــالب الخديم.. مرجع سابق
الطالب الخديم.. مرجع سابق
10- نفس المرجع س: 58
11- البرتلي، مرجع سبق ذكره. ص62
12- سيد أحمد ولد أسمه، ذات ألواح ودسر، مخطـــوط وزارة الثقافة.
13- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص:44
14- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص:46
15- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص:47
16- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص49
17- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص:51
18- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص: 53
19- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص: 57
20- الطالب الخديم.. مرجع سابق ص:60

أعلام الامكنة في الشعر العربي الشنقيطي

(مصادرها-وظائفها)

من خلال مدونة الوسيط في تراجم ادباء شنقيط (الوقفة الثانية)

مولاي عمر ولد محمدي

مع امحمد ابن الطلبة:

كانت وقفتنا الاولى في العدد 24 من مجلة الموكب لثقافي قد تناولنا فيها احصاء شاملا لأعلام مدونة الوسيط، المستخدمة في ثنايا، الشعر ورتبناها حسب الكثرة سجلاته الأساسية، ورتبنا كذلك منها سبعة عشر شاعرا بناء على إكثارهم من توظيف أسماء الأعلام في الشعر، وأخيرا أخذنا نصا شعريا لمحمد بن محمدي كنموذج من منطقة (لعقل)، وحاولنا فيه توضيح بعض جوانب الظاهرة.

وفي هذا العدد كذلك نعالج الظاهرة ذاتها بادئين بامحمد بن الطلبه من أرض تيرس شمال بلاد شنقيط، ومعروف ان ابن الطلبه هذا هو أعشق شعراء المنطقة على ما نعلم لأرض تيرس، حيث أكثر من ذكرها، وذك مواضعها، وإذا كان جميل ابن معمر ارتبط اسمه ببثينة، وقيس بن الملوح ملقب بمجنون ليلى بسبب ارتباط كل منهما بمحبوبته إلى درجة العمى عما سواها حبا أبديا لا يزيده الزمن إلا سورة ونضجا، وسمو المنزلة في عالم الروحانيات، كذلك من يقرأ ابن الطلبة الشاعر سيجده كالاثنين السابقين جديرا بأن يسمى "ابن الطلبه تيرس" أو "تيرس ابن الطلبه" وذلك نظرا لما أنفق من وقته وشعره فيها حيث تجاوز فيه الشعراء القطر، وزاد على المألوف، وكما يقال"من أحب شيئا أكثر من ذكره".

ويذكر ابن الطلبه تيرس في الأبيات التالية:

سرى يخبط الظلماء من بطن تيرس
إلي لدى ابريبير لم يتعرج(2)
تحل بأكناف الزفال فتيرس
إلى زيزفالأروتين فالأعوج
تحملن أن قد شمن من جال تيرس
مخيلا بها ألقى الباع وديما(2)
ناحرات هضبة القلات فدرا
مان ترعى من تيرس بالمطال(3)
وغدا بها نحو الزفال فتيرس
يقضي من التسحاح مالم يفعل(4)

فتيرس إذن بالاضافة إلى كونها أرض الخصب والجمال، هي كذلك ارض الجمال والخيال، و"تيرس أرض مشهورة واسعة جدا، واقعة غرب آدرار، وتشتمل على مواضع كثيرة، وحدودها من جهة القبلة غير معلومة عندي، وتتصل بالبحر المحيط من جهة الغرب، وهي من أجمل ما سمعنا به أرضا(..) وأهلها أشد الناس كلفا ببلادهم ويقولون إنها تنبت الإبل كما ينبت المطر النبات(..) ويحد تيرس من جهة شرقيها الشمالي(تيرين) ومن جهة الجنوب(أكديت لغنم) "وتيرس "هي وطن الشاعر امحمد بن لطلبه وفيها تنتشر قبيلته، وقد جاء ذكر تيرس في أشعار أربعة فقط من شعراء مدونة الوسيط بعد ابن الطلبه ولم يذكرها أيا منهم في شعره بأكثر من بيت واحد وهم:

*محمد ابن محمدي(5):

أسرى فنبهتي وهنا بتيرس من
بارين طيف قطوف المسي مكسال

*لمجيدري بن حب الله(6)

لقد نفى عني الكرى شوقي لأهل تيرس

*الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا(7)

ومغنى حول ذات القرم عاف
وأخر دارس بالتيرسين

*محمد ابن حنمبل(8):

حتى افترى إثر الغيوث بتيرس
ورعى مرامي ربدها ومهاها

أما ابن الطلبة فتكرار أعلام الأمكنة في شعره شيء مألوف وكأنه يتغنى بها حتى لتحسبها لا زمة ضرورية في قريضه لا يحسن الشعر إلا بذكرها فيه أو أن الشعر مخلوق لأجلها ويكفي أن نأخذ مثالين على ذلك، وهما: (المبيدع، ورأس الذريع)، يقول ابن الطلبه(9):

فانا راعينا انف ناضر روضة
محل الخليط الجو جو المبيدع
تخبر مرابيع المبييع شربنا
بكأس التصابي من رحيق مشعشع

وله(10):

قف بالمرابيع من جو المبيديع
سقي المبيديع مرباب المرابيع

وله(11):

إذا سبحت هب الريح يصفقها
صفقا وأوى بها ربع المبيديع
والغار والند والعلياء من إضم
تفدي اليتوع وعلياء المبيديع

وله(12):

حي من ساحة المبيديع دورا
جنبة الربع قد دثرن دثورا

وله(13):

وتذكار أيام المبيدع شاقني
ألا حبذا أيامه وليائله

يقول ابن الطلبه في (رأس المبيديع، والذراع):

على م الاسى إن لم نلم ونجزع
ونبك على اطلال رأس الذريع(4)
أجدك عينان الطموحان ضلة
متى تر يا رأس الذريع تدمع(15)
وتشهد ايام الصبا عند ربها
بأن ليس فيها مثل عصر الذريع
يسقى الذراع فتيجرميت مدوما
من خبت عيش إلى مدافع تنضل(16)
فراس الذريع فالطويلة فالأضا
أضاء الغوير فالذراع المقابلة(17)
قد لاح مستحرا فقلت له
رأس الذريع ايها البرق(18)
جاد الذريع ذو جدى همر
يرويه لارنق والطرق
يا حبذا دوح الذريع ذي
الظل الظليل ورمله اليلق

أما عن كثافة ذكر الامكنة في البيت الواحد، فنأخذ مثالا عليه قول الشاعر ابن الطلبه في البيت التالي(19):

إلى البئر فالحواء فالفج فالصوى
صوى تشل فالأجواد فالسفح من إج

نلاحظ في البيت الأماكن التالية: (البئر، الفج، الصوى، صوى تشل، الأجواد، سفح إج) فالبيت إذن كله أسماء أمكنة، لا يخرج عنها سوى أحرف الربط المتمثلة في حرفي الجر(إلى – من) أو (فاء) العطف التي تكررت في البيت خمس مرات، وهذا البيت قد ضرب الرقم القياسي في كثافة أسماء اعلام الأمكنة فيه حسب علمنا.

وهذا مقطع من جيمية ابن الطلبه التي مطلعها:

تطاول ليل النازع المتهيج
أما لضياء الصبح من متبلج

يقول منها(20):

أعني على الهم اللجوج المهيج
وطيف سرى في غيهبي مدجج
سرى يخبط الظلماء من بطن تيرس
إلي لدى ابريبير لم يتعرج
فلم أر مثل الهم هما ولا أرى
كليلة مسرى الطيف مدلج مدلج
وذكرة اظعان تربعن باللوى
لدى الموج فالخبتين من نعف دوكج
إلى البئر فالحواء فالفج فالصوى
صوى تشل فالاجواد فالسفح من إج
تحل بأكناف الزفال فتيرس
إلى زيزفالأرويتين فالأعوج
إلى أبلقي ونكار فالكرب ترتعي
به حيث شاءت من حزوز وحندج

تربعها حتى إذا ما تنجنجت
جوائزها تعدو إلى كل دولج
(...)

والقصيدة طويلة وهي من روائع شعر ابن الطلبه وقد عبر هو نفسه عن إعجابه بقصيدته هذه والتي بها عارض جيمية الشماخ ابن ضرار الغطفاني، إذ يقول عنه صاحب الوسيط(21)ما يلي:

"وقال يوما (يعني ابن الطلبه) بعدما نظم جيميته الآتية وأبزرها للناس أرجو من الله أن اقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة وننشد بين أيديهم قصيدتينا لنعلم أيهما احسن"، وجيمية ابن ضرار هذا مطلعها:

ألا ناديا أظعان ليلى تعرج
فقد هجن شوقا ليته لم يهيج

ولا يهمنا في هذا السياق سوى الوقوف على بعض اعلام الامكنة التي توجد في ثنايا القصيدة وذلك من أجل تأويل دلالتها ووظائفها في النص، وبما ان تتبع الأعلام في قصيدة طويلة مثل هذه قد يطيل العمل أكثر من اللازم دون ان نتوقع الحصول على نتيجة كبرى من ذلك لأن الاتجاه العام الذي يطبع مسار القصيدة من هذه الزاوية هو انها نسجت لغرض المعارضة، ولهذا السبب سنعتبرها غير طبيعية فنتوقع من الشاعر بذل جهد زائد حتى يتسنى له التفوق على نده، وذلك على جميع اوجه القول الشعري، وليست اعلام الامكنة بمعزل عن لب تلك الاهتمامات إن لم تكن تتصدرها.

ولعل المقطع الذي أخذناه من مطولة ابن الطلبه هذه كفيل بإثارة معظم القضايا المعلقة باستخدام أسماء الامكنة في الشعر العربي الشنقيطي، بشكل بارز. ونعود إلى هذا المقطع الغزلي ونلاحظ في اعلام الامكنة التالية: تيرس، ابيير، لوى، الموج، الخبتين، نعف دولج، البئر، الحواء، الفج، الصوى، صوى تشل، الأجواد، سفح إج، أكناف الزفال، زيز، الاوروتين، الأعوج، أبلقي، ونكار، والكرب.

هذه عشرون علم مكان محلي وردت فقط في خمسة ابيات من هذا المقطع الذي لا يتجاوز ثمانية أبيات. وإن تعمد الشاعر إيراد هذا الكم الكبير من اعلام الامكنة في شعره ليس عبثا ولا هو اعتباطي، والراجح انه نابع من فكرة تقليد المورث الشعري، الجاهلي منه والاسلامي إذ كان الشعراء حين ذاك يكثرون من ذكر اسماء اعلام الامكنة في أشعارهم خصوصا في مواضع النسيب والرحلات(22).

وشاعرنا البدوي متشبث بالقديم، ويعارضه، ولا بد انه قد لاحظ ما لأعلام الأمكنة من وظائف شعرية جذابة في الخطاب الشعري عند القدامى، ومن استملاحهم لترداد بعض هذه الاسماء بين الفينة والأخرى في ثنايا بعض روائعهم المعتبرة على نطاق واسع، إلا أننا والحال هكذا لم نجد في المقطع الذى بين أيدينا أي علم من أعلام التراث، لا جاهلي ولا إسلامي قديم ولا حتى من شعر المحدثين.

فالشاعر مع رغبته الجادة، وسمو همته في الالتحاق بزمرة "الصالحين" من شعراء الجاهلية، حريص في ذات الوقت على الاحتفاظ بهويته الدينية والوطنية فهو لا يريد أن يخرج من بلاد شنقيط وطنه، ووطن شعره.

ومن الامور البارزة في شعر ابن الطلبه، والتي تميزه عن الشعر الجاهلي هي مسألة إكثاره من استخدام أعلام الامكنة الشنقيطية، وعدم كبير عنايته باعلام التراث، ولو لا ذلك لحسبنا شعره شعرا جاهليا صرفا، لما يطبعه من قوة السبك، ورصانة الأسلوب والغلو في استخدام اللغة القاموسية، مع تصوير غير متكلف للبيئة التي عاشها الرجل.

ونلاحظ ان الشاعر يورد هذه الأعلام في شعره دون تغيير يذكر في أسمائها المتواضع عليها بين الناس مثل قوله في المقطع: تيرس، تشل، الأجواد، إبريبيره.. وقد يذكرها عربية فصيحة أو معربة حين يقول :اللوى، الخبتين، الكرب، الزفال..(23).

وتبدو وظائف اعلام أمكنة المقطع الذى بين أيدينا في خدمة الأحلام الغزلية حسب ما يفهم من سياق النص، فالشاعر الذي يبدوا أنه مقيم في بلدة(ابريبره) الموجودة في منطقة (اكيد) جنوب البلاد سرى إليه طيف من بطن تيرس حين كان يعاني هموما ثقالا، فذكره مسرى الطيف بماضي (أظعان، تربعن باللوى، لوى الموج..) في الناحية المالية من بلاد شنقيط حين كان الشاعر يعيش مغتبطا في حل وترحال تلك الظعائن من مسارح (الموج) إلى مسارح (تشل) ومن (تشل) إلى منتجعات (أزفال)الذي هو (الزفال) إلى (تيرس)..إلى ان تصل مرابع (الكرب) الذي هو (لكرب). واستحضار هذه الاماكن في ذهن الشاعر من شأنه ان يخفف عليه وطأة الهموم الثقال التي يزعم أنه يعانيها إذ يقول: "أعني على الهم اللجوج المهيج.." فحين يتذكر الشاعر أيام المسرة التي عاشها بين تلك الأوكار، والأحبة الذين رافقوا حياته العاطفية الاجتماعية، والعلمية الأدبية، تأخذه النشوة على غفلة ويسرح في هواجس الماضي متقلبا فيه تقلب الطقس بين جوين مختلفين: جو متعة ونعيم يحوم حول تلك الأماكن التي شهدت معه أيام الصبا والظعائن، أيام الفرح والمسرات، أيام خصب منطقة الشمال (تيرس) وما جاورها. وجو تسيطر عليه المرارة والأسى، لأن هذا مجرد ذكريات قد دالت عهودها وشط مزار أرضها، والحال ان الشاعر غريب في بلاد اخرى ربما يكون سبب مجيئه إليها هو جدب أرض (تيرس) ومحلها، تلك الأرض التي سرى إليه طيفها، أو طيف الحبيب الساكن فيها من بعيد ليذكره بأن الجدب والمحل لا يمكنهما ان ينسيا المرء حبه او وطنه، وانطلاقا من هذا التصور نستنتج أن أعلام الأمكنة قد أكسبها الشاعر في نصه طاقات دلالية جديدة هي التي حددت وظائفها الإحيائية المختفية وراء الأخبار البسيط المباشر.

والأمكنة إذن في شعر ابن الطلبه مزهوة في الغالب بطابع وجداني خاص حكم على الشاعر بأن يظل في معظم أشعاره الواردة في مدونة الوسيط، فاستخداماته لهذه الأعلام كثيرة جدا حيث لا نكاد نجد قصيدا إلا وقد تضمن أعلام أمكنة قليلة او كثيرة وقد بين لنا الإحصاء السابق(24) أن ابن الطلبه على رأس قائمة المكثرين من استخدام أعلام الأمكنة والأشخاص في مدونة الوسيط، وقد وظفها في الغالب على نحو من الأخبار الإيحائي الغزلي، ويوازيه في الوقت نفسه توظيف اعتباري يستمد قوته من تقلبات الزمان التي تقفر الأماكن بعد ان كانت آهلة بسكانها الذين ألفوها ألفتهم وساد بينها وبينهم انسجام ينتهي برباط الحب القوي، وبعد تقويض ساكني هذه الأماكن منها أمرا يدعو إلى التأمل في واقع الحياة المتغيرة التي لم تبق من نعيمها على تلك الأماكن سوى استرجاع ذكريات الماضي المجيد على تلك الأطلال الصامدة في ذاكرة الشاعر ابن الطلبه، وخير مثال على توضيح تلك الأبعاد قوله في النص التالي(25):

أخيرا سرت بعد الهدو بلا بله
فلا هم إلا دون هم يقابله
لشيم يريق لاح من نحو ذي الغضا
كلوح الضياء المستطير مخائله
وتذكار ايام المبيديع شاقني
ألا حبذا أيامه وليائله
عفا النيش ممن هو بالامس آهله
مخارمه فسفحه فمجادله
فسهب الكديد فالغشيواء فاللوى
لوى الساق بعد الانس قفر منازله
فرأس الذريع فالطويلة فالأضا
أضاء الغوير فالذراع المقابله
فوادي النعام مقفر جهالته
ففرش الخليج سهله فضلاضله
فعهدة فالغلان من ذي محارة
فخيشومة قيعانه فمسائله

منازل لو غيلان مية شاهد
بها إذ صبانا لا تروع غوائله
لما استحلبت عينيه يوما محلة
بحزوى ولا جوا الملا وجلاجله

وقبل ختامنا الحديث عن ابن الطلبه، الذي تناولناه في هذه الوقفة لقصيرة التي بينا فيها جزءا من انشغاله بالأرض والأرض التيرسية خاصة ومناكبها المختلفة، ونقر للقارئ الكريم بعجزنا عن فك رموز شعر ابن الطلبه ولذلك لم نحلل له نصا، ولم نصنفه في طبقات الشعراء ولم نكشف عن خصائصه الشعرية وإنما تحدثنا عن واحدة هي ظاهرة استخدام اعلام الأمكنة، وتوظيفها في شعر الرجل وما قمنا به من معالجات على هامش النص يمكن أن نجعله في باب "ما لا يدرك كله لا يترك كله" كما كان حالنا مع الشاعر ابن محمدي في الوقفة الأولى، "فابن الطلبه تيرس" إذن هو زمن طويل من الشعر والتأمل والبحث، ليس هذا مقام استقصاء الحديث عنه.

وفي نهاية حديثنا عنه في هذه الوقفة نطرح السؤال التالي:

اين يكون ابن الطلبه في حقيقة الامر من معنى قول الشاعر:

وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

دون أن يعزب عن ذهنك أيها القارئ الكريم قول ابن الطلبه،

وتشهد أيام الصبا عند ربها
بأن ليس فيها مثل عصر الذريع

الهوامش:

1. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: ط2، القاهرة 1958م ص97.
2. المرجع نفسه، ص 120.
3. المرجع نفسه، ص 151.
4. نفس المرجع، ص180.
5. المرجع نفسه، ص66.
6. نفس المرجع، ص216.
7. المرجع نفسه، 254.
8. المرجع نفسه، ص331.
9. نفس المرجع، 17.
10. المرجع نفسه. ص175.
11. نفس المرجع، 177.
12. المرجع نفسه ص180.
13. المرجع نفسه، ص 182.
14. نفس المرجع، ص170.
15. المرجع نفسه، ص171.
16. المرجع نفسه، ص180.
17. المرجع نفسه، ص 182
18. المرجع نفسه، ص184
19. 20. المرجع نفسه،ص 97
21. المرجع نفسه، ص95
22. مجلة الموكب الثقافي العدد (24)
23. انظر المقطع بكامله، وتابع النظر في شعره في الوسيط. او أنظر بحث مولاي عمر بن محمدي (1988/87) جامعة انواكشوط.
24. مجلة الموكب الثقافي العدد 24.
25. الوسيط المرجع السابق، ص182.

النبويات الشنقيطية
(ملاحظات في البنية والأسلوب)

محمدن ولد احمد ولد محبوب
المفتشية العامة للتعليم الثانوي والفني

تمهيد:

إن الموضوع الذي نسعى إلى محاورته في هذه السطور هو: "النبويات الشنقيطية" (ملاحظات في البنية والأسلوب). وهذا العنوان يتألف من أربع وحدات معجمية أساسية نرى لزاما علينا إبراز دلالتها ف"النبويات" جمع نبوية نسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود بها هنا القصائد الشعرية المادحة للنبي صلى الله عليه وسلم. اما "الشنقيطية" فإنها نسبة إلى مدينة "شنقيط" في ولاية ادرار بالربوع الموريتانية، وكانت هذه المدينة قلعة ثقافية ومركزا تجاريا، وهي مع ذلك منطلق ركب الحجيج. لذلك نالت شهرة وسيرورة بين العالمين فصارت بذلك علما على المجال الجغرافي المعروف اليوم ب"موريتانيا".

أما "البنية" فمقصودنا منها هنا إيضاح الهيئة التي يؤسس عليها الشعراء نصوصهم، إذ يبنونها غالبا وفق جملة من الخصائص والمتميزات. أما "الأسلوب" فهو لغة الطريق. ومرادنا منه هنا إبراز طرائق الشعراء في التعبير عن تعلقهم الشديد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلكل شاعر طريقته الخاصة في التعبير وأسلوبه الفني المتميز. وإذا كانت هذه القصائد الشعرية المادحة للرسول صلى الله عليه وسلم هي أساس الخطاب المديحي ومادته الاولى، فما المقصود بالمديح النبوي عموما؟ ومتى رأى هذا اللون الادبي النور بالربوع الشنقيطية؟ وكيف كانت بوادره ومنطلقاته؟ وما المراحل التي مر عبرها؟ وما البنية الاساسية للقصيدة النبوية؟ وكيف كان أسلوبها؟ وهل أبدع أصحابها وجاؤوا من الأمر جديدا أم إنهم رددوا وأعادوا؟

ذلك ما تروم هذه الوريقات الإجابة عنه مميزة أولا بين مصطلحي "المدح" و "المديح"، فالأول في نظرنا يمكن أن يقصر على تعداد مآثر الفضلاء والمحسنين من بني البشر الذين لم يبلغوا مرتبة النبوة.

اما المديح فيبدو أنه انتقل من العام إلى الخاص من الدلالة على التمجيد عموما ليصبح حكرا على النموذج الشعري الذي يتخذ شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعا له ذلك ان مرور الايام وتضخم الرصيد الشعري المنجز ثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم جعل هذا النتاج يتميز متخذا لنفسه منزلة خاصة ضمن خارطة الاغراض الشعرية طارقا مواضيع ذات صلة بالرسول صلى الله عليه وسلم حيث يعرض لكريم شمائله وعظيم معجزاته، منوها بصحابته الهداة، مستطردا إلى إرهاصات المولد وآيات الرضاع وبشائر الدعوة. وقد مال بعض الدارسين المعاصرين إلى هذا الرأي مؤكدا أن: "مديح سيد المرسلين فن استحدثه المصريون في القرن السابع الهجري فأصبح غرضا قائما بذاته لا يشاركه القصيدة سواه"(1).

ولعل في تخصيص مصطلح "المديح" للثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم دون مصطلح "المدح" نوعا من تكريم هذا الرسول وإعظام شأنه وتقديس جنابه تقديسا تجسد على مستوى اللغة والاصوات فجاء حرف "الياء" عليه دليلا. فالعرب إذا زادت مبنى زادت معنى. اما بوادر هذا الخطاب الشعري في بلاد شنقيط فلا يمكن ان نجزم في شأنها برأي قاطع لندرة المراجع ولأن التاريخ الثقافي للبلد لم يكتمل تدوينه بعد، ومع ذلك يمكن القول إن مناطق البلاد الشرقية قد عرفت الأشعار التوسلية والابتهالات الدينية منذ القرن العاشر الهجري(2). غير أن النصوص المديحية لم تظهر بشكل واضح إلا مع جيل سيد عبد الله بن محم المعروف بابن رازكه(ت.1144هـ)، ومحمد اليدالي(1096هـ – 1144هـ) فقد كانا من أوائل الشناقطة الذين خلفوا نصوصا في هذا الجانب. وسنعمل جهدنا على تتبع هذا اللون الأدبي في المنتوج الشنقيطي منبهين إلى مسيرته وتطوره من الامس إلى اليوم مقسمينه إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة النشأة

والانطلاق، مرحلة النضج والاكتمال، ومرحلة التعمق والاتساع، وسنرتبها تباعا في ما يلي:

أ-مرحلة النشأة والانطلاق:

ونقصد بها أول فترة شعرية في البلاد بلغتنا نصوصها، وتمتد من القرن العاشر الهجري حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وقد امتاز منتوج هذه الفترة بالابتعاد عن المقدمات الغزلية والركون إلى المحبة والشوق، مع التركيز على الأوصاف الخلقية والخلقية والمعجزات مع الميل إلى الإكثار من التوسل، فكانت هذه المواضيع محاور ثابتة في بنية القصيدة النبوية، وتتدرج ضمن هذه الفترة اصوات شعرية عديدة لعل أبرزها لبن رازكه الذي سطر نبوية مطولة في مدح نعله صلى الله عليه وسلم افتتحها بتمزق غرامي شديد يجعل صاحبه يذوب من سكر المحبة ليعرض عن اللوام ولا يقيم لهم وزنا، يقول: (3) الطويل

غرام سقى قلبي مدامته صرفا
ولما يقم للعذل عدلا ولا صرفا

ويمتد النص في نغم شعري متدفق يجمع بين العشق النبوي وبين التميز الاسلوبي مازجا ذلك بكريم الخصال وحميد الثناء، يقول: (4) الطويل

أيا من سقت ألفا ظماء بنانه
كما وهبت ألفا كما هزمت ألفا
يد سميت من فادح الفقر راحة
كما سميت في كفها للعدا كفا
نبي وقانا صرفي الدهر يمنه
فها نحن لا أزلا نخاف ولا عنفا

ويأتي محمد اليدالي ليجعل للمديح نصيبا مفروضا في كل إنتاج شعري مؤكدا أن امتداح النبي صلى الله عليه وسلم مطهرة الشعر وزكاة القريض يقول: (5) الطويل

زكاة القريض الذب كل مسلم
ومدح النبي المختار والآل والصحب

وأكثر من ذلك يجسد هذا الرأي مخلفا في ديوانه أربع نبويات نكتفي باثنتين منها فالأولى مطولة تقع في إحدى وعشرين وثلاثمائة من الأبيات (321بيتا) وقد افتتحها بالثناء على الله والاخلاص له في العبادة والعمل دون ان ينسى الصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول: (6) المجتث

باسم الإله ابتدائي ومختمي وانتهائي
والحمد الله في كـ ـشدة ورخاء
من خصنا بنبينا وعمنا بالحباء
يارب صل وسلم على النبي بالولاء

أما الثانية فقصيدة "صلاة ربي" وهي نبوية ذائعة الصيت صاغها الرجل على أوزان الشعر الحساني، وقدم في مطلعها على الجر النحوي بنوعيه "الإضافي" و"الحرفي" عاملا على استدراج القارئ وجره عبر أدوات اللغة نحو موضوعه مكملا ذلك بجملة من الواصفات التي ألحت على نبل الممدوح وفضله "بادى الشفوف" دون أن تنسى كريم خلاله المستمدة من هدي القرآن "داني القطوف" معرجة بعد ذلك على بره وعطفه "بر عطوف"، منتهية إلى قوة بأسه وسلطانه "ليث همام"، يقول(7):

صلاة ربي مع السلامي
على حبيبي خير الانام
بادي الشفوف داني القطوف
بر عطوف ليث همام

ونعرج يسيرا على الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحسني (القرن 12هـ) الذي ضم ديوانه عدة نبويات نكتفي بواحدة منها اعتمد في فاتحتها الجناس التام معبرا عن شدة تعلقه بالجناب النبوي مقدما نفسه فداء وخده فراشا لنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (8) الطويل:

أعيني وجدا تهرقان معدما
نجيعا حكى لونا على الخد عندما
فحاولت من هم الغرام تخلصا
وأعرضت عن إلزام ما ليس ملزما
وقبل فكري إثر نعل محمد
ولو جئت مغناه لقلبه فما
فيا ليت خدي كان موطئ نعله
وصدري ضريحا جامعا منه أعظما
عظاما ولحما حرم الله اكلها
على الأرض إنعاما لها وتكرما

وننتهي إلى المصطفى بن بو أحمد المجلسي المعروف ب"بوفمين" (ت.1200هـ) الذي صعد

نداء شعريا أنزل خلاله الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة عالية لا يدركها البشر مستشفعا به يوم لا ينفع مال ولا بنون، يقول: (9) البسيط

يا من أراد به الرحمن منزلة
فوق الأكارم عند الله تدخر
يا بالغا من علو القدر منزلة
ما فوقها غير ما لا يدرك البشر
كن لي شفيعا إذا ما الناس أجهدها
خوف الملائك والنيران تستعر
وكن رفيقي وكن أنسي وملتجئي
لا يفزعني ذاك الهول والغرر
عليك من صلوات الله أشرفها
ما دامت الارض يحيي وجهها المطر

ب-مرحلة النضج والاكتمال:

وتغطي هذه المرحلة سنوات القرن الثالث عشر الهجري، فمع حلول هذا القرن عرفت البلاد زهوة الحياة الثقافية، وطفق غيث المدائح النبوية ينهمر بعد أن بدأ قطرا فتعددت منه النصوص والأساليب، بل لم يخل ديوان شاعر من بعض نماذجه، وأخذت المقدمات الغزلية تطفو على أديم النصوص بعد أن كانت محتشمة لا تظهر إلا على استحياء. وقد امتاز الخطاب المديحي في هذه الفترة بالكثرة والتنوع والنضج والاكتمال وطول النفس، مع الميل إلى محاورة القديم. أضف إلى ذلك الإلحاح على التصريح بعجز اليراعة والقوافي عن استيفاء هذا الموضوع حقه من الابانة والبيان. وقد ظهرت في مختلف مناطق البلاد وجوه شعرية همها النواصب ينحصر في الحنين إلى الحرم والشوق إلى رياض محمد صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وامتداح هديه. ونظرا لكثرة شعراء الفترة وضيق هامش الموضوع فإننا سنقتصر على نماذج يسيرة بادئين بالشاعر مولود بن احمد الجواد اليعقوبي (ت.1244هـ) الذي وصفه صاحب الوسيط قائلا: "وكان مداحا للرسول صلى الله عليه وسلم"(10) وسنقف قليلا مع مرجانيته وجيميته منبهين إلى تميز مطالعه الشعرية حيث التزم خلالها بالصلاة والسلام على رسول الله ليعرج بعدها على الغزل يسيرا متخلصا إلى المديح، ففي قصيدة المرجانية مثلا بدأ بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمر على الغزل منتهيا إلى ممدوحه الذي اكد فضله وخيريته مشيرا إلى أنه أقام الحجة واتصف بالصدق والأمانة وجاهد في الله حق الجهاد يقول: (11)البسيط:

أزكى صلاة وتسليم على قمر
بدر به قد أنار الله أكوانه
يارب صل عليه دائما أبدا
ما حل أعراض هذا الكون أعيانه
محمد خير مبعوث أقام على
ما يدعيه من أمر الله برهانه
وخير من قد نفت عنه أمانته
وصدق الكذب الكتمان والخانه
وخير من شام لله السيوف ومن
نمى القنود على وجناء عيرانه

ويأتي المطلع في قصيدته الجيمية ليقرأ السلام على من أخرج الناس من الظلمات إلى النور يقول:(12)البسيط

صلاة ربي وتسليم على قمر
بدر جلا ظلمات الفتنة الدعجا

ليبلغ الشاعر بعد ذلك صميم الموضوع مؤكدا اندفاع قلبه إلى التعلق بالممدوح معرضا عن كل مظهر فتان مشيرا إلى انطلاق لسانه بالمديح من غير وعي حيث ترجمت اللغة بأمانة هواجس القلب معبرة عما أصابه من سكر المحبة ونشوة الشوق إذ امتزج الغرام بجسمه وروحه وجرى الحب من نفسه مجرى الدم والنفس، يقول: (13) البسيط:

أبى فؤادي إلا حب ملجئنا
ملجى البرية منجى من إليه لجا
أبا فلا شنبا يهوى ولا بلجا
يهوى ولا برجا يهوى ولا دعجا
لي لهجة بامتداح المصطفى لهجت
ولي فؤاد بحب المصطفى لهجا
ألا طربت ألا إني طربت إلى
من حبه مع بلحمي والدم امتزجا

ونصل إلى محمدو بن محمدي العلوي (ت.1272هـ) الذي بلغ الخطاب المديحي على يديه ذروته فرسخ المقدمات الغزلية وحسن التخلص، وكانت له في هذا الجانب سابقات جياد

نقف يسيرا مع واحدة منها افتتحها بمقدمة غزلية تكشف عن شدة تأثير التفرق وفاعليته مؤكدة انه مثير الشوق ووقود الغرام ملتمسة العذر في العجز عن الصمود أمام سلطان الحب الذي يصرع المكابد ولا يقوى على مجابهته أحد، يقول: (14) الكامل:

هاج التفرق فاعذليني او دعي
شوقا أصم عن العواذل مسمعي
لا تنكري مني الشحوب فهكذا
فعل الفراق بكل صب مولع

ثم يتخلص إلى المديح مشبعا نصه ببديع الاستعارة ورفيع البيان جاعلا مفزعه إلى خير البرية منتهيا إلى التنويه بالمولد الذى حسنت به الأوقات وتعطر منه الزمان. يقول: (1)

اني فزعت وفكرتي جعلت إلى
خير البرية مشتكاي ومفزعي
انسان عين الكون غرة وجهه
حاوى التفرد بالمقام الارفع
يا مولد الهادى لنشرك نفحة
أرج الزمان لنشرها المتضوع
أكرم بمولد ذى الختام بيومه
وبعامه وبشهره والموضع

ويتبع الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي (ت.1286هـ) هذا السبيل مخلفا في ديوانه عدة مختمات مديحية بالاضافة إلى واويته المشهورة التي يبدو أن الشوق صرفه عن الاكتراث بمقدمتها الغزلية فانطلق لسانه بالترحيب معددا شمائل الممدوح صلى الله عليه وسلم، مؤكدا طيب عنصره وشرف أرومته، متلبثا مع الأبعاد المولودية غير يسير. تلك الأبعاد التي بفعلها تجدد الوجود وأخوج الناس من الظلمات إلى النور وعمت البركة واليمن فيكفي المولد انه مبتدأ أمر السنة ومنطلق النبوة والمعجزات ومن ثم فهو في ثقافتنا العربية الإسلامية مجدد قطع غيار الإيمان ومحرك الفكر ومثير التأليف يقول: (16) البسيط:

أهلا بصاحب هذا المولد النبوي
مقابل الطرف الأمي والأبوي
أهلا بميلاد من لم يحك مولده
من الظروف مكاني ولا ملوي
أكرم بها ليلة غراء مسفرة
عن غرة في محيا الضنضئ القصوي
يا ليلة المولد الميمون طلعته
طوى زمانك من فيه الزمان طوي
طوى الذي طوي السبع الطباق له
طيا وزيا له بسط البساط زوي
لولاك ما أنزل الذكر الحكيم ولا الد ـ
ـ ين القويم ولا ما في الصحاح روي
ولا وعاه ابن مسعود ولا انس
ولا رواه أبو داوود والنووي

ونبلغ الشيخ محمد المامي (ت.1292 هـ) الذي سطر ديوانه عدة نبويات أبرزها همزيته التي عارض بها هزيمة البوصيري، وقد أبان خلالها استحالة الإجادة في وصف شمائل الرسول بعد أن اثنى عليه القرآن بما لا مزيد عليه، فكأنه بذلك يقدم استقالة البلغاء المبدئية من الإبداع في المديح لشعورهم بالعجز والقصور عن مستوى البيان الذي دشنه القران بأسلوبه منتهيا إلى مهابة الممدوح وحسن طلعته وتأثير بركته إذ بريقه يعذب الملح الاجاج وبلمسه يشفى المريض المحتاج، يقول: (17) الخفيف

كيف يسطيع مدحك البلغاء
ومن الله قد اتاك الثناء
قاصر عنه ما يدبج سحبا
ن وقس وهذب الشعراء
ونظام المعلقات اللواتي
قسمتها الأستار والجيداء
لم يلد مشربا كاحمد ذاتا
وحلى ادم ولا حواء
أبطحي بريقه يعذب المل
ـح وتشفى بلمسه الأدواء

ويتخذ عبد اله بن امبوي الولاتي (القرن13 هـ) اسلوبا متميزا عماده التنويه بالخطاب الشعري وذلك لما له بالقلوب وحظوة عند الأمراء فالشعراء مهزة اهل الفضل ومجبلة السرور وهنا ينزل الرجل الأشعار منزلة عالية، ويأخذ في المفاضلة بين أغراضها متخلصا إلى تفوق المديح النبوي وتقدمه، وذلك عبر اسمي التفضيل "أجله"، "أنفعه" منتهيا إلى حصر الشاعرية في منتجي هذا الخطاب يقول: (18) الكامل

الشعر يغرف فضله الشعراء
ويطيل قامة شخصه الأمراء
الشعر يجتلب السرور كأنه
غيث تجود به عليك سماء
واجله دنيا وانفعه غدا
ما كان فيه على النبي ثناء
مدح النبي لمادحيه سكينة
وتجارة فيها اثيح نماء
إن الذين يجددون مديحه
فيغردون به هم الشعراء

ونجتاز إلى الشيخ محمد بن حنبل (ت.1302هـ) الذي استودع ديوانه عدة نبويات نكتفي بواحدة منها استهلها بالغزل متخلصا إلى يمن الممدوح وبركته إذ بمولده انجاب الغشاء عن الأفئدة وتنفس الزمان وانزاحت الكرب فعم الخير وأخصبت الأرض يقول: (19) الكامل:

رد البلابل والغرام الساري
طيف سرى أهلا به من سار

إلى أن يقول:

لله منفوس به قد نفست
كرب الزمان وسدفة الأغيار
سعدت قوابله وحضنه به
كسعادة الإخوان والأظئار
وبه أوان رضاعه وفطامه
طلعت نجوم السعد في الأقطار
وغدت حليمة ترتعى في روضة
غناء عام المحل والإقتار

وننتهي إلى احمد بن محمد سالم المجلسي (ت.1307هـ) الذي انتهج منهاجا خاصا انطلق فيه من البكاء على مغاني النبوة والوحي ومعاهد الغزو والجهاد معبرا عن تعلقه الشديد برسول هذه الأمة، حيث يجد اللذة في وصف شمائله، بل وفي الاستماع إليها، ذاكرا في نصه أمثلة تشير إلى أن ممدوحه للمعروف باذل، وبالمؤمنين رحيم، وعلى تربية القلوب عامل، منتهيا إلى التصريح بعجز البشر عن إعطاء المديح حقه من العناية إذ تتذبذب روعة اليراعة والقوافي أمام بيان القرآن، يقول: (20) الوافر:

أتذرى عينه فضض الجمان
غراما من تذكره المغاني
مغان بالعقيق إلى المنقى
إلى أحد تذكرها شجاني
بعيشك صف شمائله فإني
أحن إلى شمائله الحسان
يلاقي المعتفين بهم رحيما
لدى اللزبات منهمر البنان
يجود من العلوم بمكفهر
يسح على القلوب مدى الزمان
وهل تثنى العبيد عليك يا من
على أخلاقه تثنى المثاني..

ج-مرحلة التعمق والتوسع:

وتمتد على طول سنوات القرن الرابع عشر الهجري، وأثناءها تنوعت أساليب المديح فشملت معارضة القديم ونقد الواقع والتأثر ببديعيات عصر الضعف، وقد ازداد حجم هذا الغرض في الخطاب الشعري الموريتاني فأصبحنا نصادف عند البعض دواوين خاصة بهذا الموضوع. أضف إلى ذلك ترسيخ تقاليد إحياء المولد النبوي حيث أصبح مناسبة لإنشاء الشعر وإنشاده فظهرت المولديات التي تتخذ من هذا الموسم وسيلة إلى استحضار النموذج النبوي عاملة على استنهاض الهمم وإثارة الحماس، داعية إلى استخلاص الدروس والعبر من تلك الذكريات المليئة بالدلالات والمعاني، ويبدو أن عدد الشعراء تضاعف كثيرا في هذه الفترة ولكن المقام يلزمنا بالإيجار لذلك سنقتصر على خمسة أوجه شعرية متخذينها امثلة على هذا الخطاب وسنبدأ بمحمد بن محمذن الملقب (ببها) (ت.1334هـ) الذي جرد يراعه للمديح مستجيرا بالله، ومستعيذا بأسمائه من الكاره مستشفعا برسول الحق الذي أكد المادح تميزه عن البشر عبر اسمي التفضيل "أبهى" و"خير" مشيرا إلى حسن طلعته وروعة جماله، منتهيا إلى أنه جاهد الكفار وأدى المناسك حقها يقول: (21) البسيط:

أدخلت نفسي ومن خاللت من أحد
في الميم والصاد من لفظ اسمك الصمد
وفي الدوائر من لفظ الجلالة الـ
ـميمين ميمي سماك المومن الأحد

والميم والطاء من لفظ المحيط كما
أدخلتهم جيب طه مظهر المدد
أدخلتهم جيب ابهى من به سبحت
شياظم العيس من بطحان للبلد
وخير من طاف بالبيت العتيق ومن
وافى المناسك فوق جسرة أجد

ونعرج على البشير بن امباركي (ت.1354هـ) الذي اتبع نموذجا من المديح النبوي جديدا يعتمد معارضة القديم محتفظا بالبنيات والقوالب، مجددا في الدلالات والمعاني فهو بذلك يبقى على الاسلوب الجاهلي ولكنه يشحنه بمضمون إسلامي رفيع، فنراه مثلا يحاور قصيدة النابغة الذبياني "يا دارمية" مضمنا بعض أشطارها محولا غرضها من الأسلوب الغزلي إلى المديح النبوي، معربا عن حنينه إلى ربوع مكة وأكناف طيبة، آمرا قومه بشد الرحال إلى الحرم، ناصحا بإخلاص العبادة لله، ناظما مضمون سورة الاخلاص، داعيا إلى العض بالنواجذ على السنة، مؤكدا على ترسم خطوات الرسول متوجا نصه بأفضلية الممدوح إذ هو سيد ولد آدام ولباب صفوة الأنام يقول: (22)

اشتاق مكة بين الغيل والسعد
(لا دار مية بالعلياء فالسند)
وجدي حنيني إلى دور بطيبة قد
(أقوت وطال عليها سالف الأمد)
يا صاح فاغد إلى تلك الربوع ورح
(وانم القتود على عيرانة أجد)
وانهض بعزمك في نهج الرسول وسر
(نحو الجليل على مستأنس وحد)
وأخلص لمولاك لا تشرك به أحدا
فإن مولاك لم يولد ولم يلد
ولتتصل بهدى الهادى فإن له
(فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد)
هو الرسول الذى ما مثله احد
(ولا أحاشي من الأقوام من أحد)

ونصل إلى زين العابدين بن احمد البدالي (ت.1358هـ) الذى تركز اهتمامه على ربط المديح النبوي بفن البديعيات ناظما قصيدة تجمع بين المديح وبين مصطلحات علم البديع عاملا على شرحها، وقد افتتحها ببراعة استهلال تشير إلى ان الرسول صلى الله عليه وسلم باذلا وسعي فيه، فلم يتفق لي منه شيء إلى أن فتح الله علي بنظم قصيدة بديعية تنيف على مائة بيت ويزيد ما فيها من البديع على أبياتها(..) ووضعت عليها شرحا لطيفا سميته "شوارق الأنوار في مدح النبي المختار" ومطلع القصيدة هو:

براعة المدح في عرب بذي سلم
كمطلع البدري جلى حالك الظلم(23)

ونمر يسيرا على الشاعر أبي مدين(ت.1362هـ) الذي ركز في نبوياته على المحبة ذاكرا تأثيرها على نفسه حيث تملكه الشوق إلى درجة النشوة والسكر منبها على عذوبة الحب النبوي، ذلك الحب الذى يصرف عن اللهو ويصد عن سبيل هيف الخصور. ومن بعد يؤكد أن ممدوحه نور الظلمة ودرة نحر الزمان، واصفا كل ارض لا تحتضنه بسوء المناخ وضبابية الاجواء، يقول: (24)

الخفيف
حل في القلب حب طه فتاها
إنما الفخر كله حب طه
إن من ذاق حبه لم تصده
ذات حسن بحليها وحلاها
كيف أسلوا عن ذكر طه وطه
منشأ الكائنات قطب رحاها
هو بدر لليلها و إذا ما
وضح الصبح فهو شمس ضحاها
إن أرضا لم تحو طه لأرض
سئم القلب بردها ونداها

ونختم بالشاعر المعاصر احمد الحسن بن الشيخ محمد حامد الذي نراه يحيي ذكرى المولد النبوي باثا فيها من الروح الإسلامية، منتقدا الواقع، مذكرا بعهود العزة، جاعلا من المولد النبوي بطارية إيمان تدفع الحيرة وتطرد الشك داعيا إلى تدبر معاني هذه الليلة المباركة مشيرا إلى ابتعاد المسلم اليوم من منهج الله حيث يلهث وراء سراب الآخر مستبدلا حياة غير حياته وتقاليد غير تقاليده، لينتهي إلى تصعيد نداء صارخ بعيد الاعتبار إلى المولد الذي معه تجدد الوجود، وطفق التاريخ يتلمس الطريق بعد ان ضل السبيل قرونا يقول: (25)

البسيط:

ذكرى تزيد ذوي الايمان ايمانا
وتطرد الشك عمن بات حيرانا
تزورنا والمآسي السود تمضغنا
والأرض تملؤها أشلاء قتلانا
ذكرى لو أنا تدبرنا معانيها
ما ضل وسط ضباب الشك مسعانا
ولا ركضنا وراء الآل في صخب
شكرا لأيلول او شكرا لنيسانا
يا ليلة بدأ التاريخ رحلته
فيها على الدرب بعد التيه أزمانا
نسوك لكنهم لما نسوك نسوا
وهاهم اليوم يزدادون نسيانا

خاتمة:

في اعقاب هذه السطور نخلص إلى التأكيد على الحضور المكثف للنبويات في الشعر الشنقيطي، وذلك ما اشار إليه العالم الاديب المختار بن حامد قائلا: "إن المديح يسجل الرقم الاعلى في شعر الشناقطة". وبعد معايشتنا لهذه المدونات المديحية توصلنا إلى ان الشعر النبوي يقوم على بنية ثابتة تنطلق من المقدمات الغزلية غالبا وربما ركنت إلى فواتح تعتمد الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم متخلصة في كلا الحالين إلى صميم الموضوع، مستعرضة الشمائل، معرجة على المعجزات، مستطردة إلى حوادث السيرة وارهاصات المولد وايات النبوة، متحدثة احيانا عن تاريخ الختام القائم على الصلاة والسلام على رسول الله. اما أسلوب هذه النبويات فقد تراوح بين الخبر والإنشاء فطغى الاسلوب الخبري على الجانب المتعلق بتعداد صفات الممدوح وحوادث السيرة وأنواع المعجزات ليحضر الاسلوب الإنشائي في محور التوسل والابتهال، وذلك تثبيتا للهدى النبوي في الاذهان وتعبيرا عن الصدق في التضرع والدعاء.

وصفوة القول إن هذه النصوص النبوية ديوان جامع لأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وشمائله، بل هي مذكرات عطرة تقص علينا من حياته وسلوكه، فالنبويات الشنقيطية دروس في التهذيب الأخلاقي شاملة، بل حصص مراجعة لهدي الرعيل الأول وفقه في السيرة لذلك نراها تنزع نزعة ماضوية داعية إلى الانتقال من الواقع الاليم إلى الترامي في أحضان الغابر الكريم المقدس.

الإحالات:

1.عالي صافي حسين: الأدب الصوفي في القرن السابع الهجري، دار المعارف، مصر 1980، ص56.
2.من اقدم ما حفظ التاريخ الشنقيطي من المديح النبوي توسلية لمحمد قلي(القرن 7هـ) ومطلعها:
الحمد لله مادام الوجود له حمدا يدوم دوما ليس ينحصر.
وفي فتح الشكور للبرتلي بعض المقطعات النبوية مثل قصيدة عبد الله الملقب اند عبد الله وكان حيا سنة 937هـ
3.احمد بن الامين الشنقيطي: الوسيط في تراجم ادباء شنقيط، الخانجي، مصر 1989، ط4، ص4.
4.المرجع السابق: ص5.
5.الأمين بن أكاه: تحقيق ديوان محمد اليدالي، المدرسة العليا للاساتذة، 1980، ص71.
6.المرجع السابق ص46.
7.ابن الامين: الوسيط، مرجع سابق، ص223.
8.د.محمد المختار بن اباه: الشعر والشعراء في موريتانيا، الشركة التونسية، ط1 1987 ، ص143.
9.مقابلة مع العالم محمد يحي بن سيد احمد العامل بقسم المخطوطات بدار الثقافة. يوم 1999/05/20.
10.ابن الامين: مرجع سابق ص21.
11.المرجع السابق، ص197
12. المرجع السابق، ص208
13. المرجع السابق، ص209
14. المرجع السابق، ص55
15. المرجع السابق، ص56
16.ابن اباه الشعر والشعراء مرجع سابق ص189.
17. المرجع السابق، ص192-193
18. المرجع السابق، ص 199
19. المرجع السابق، ص183
20. المرجع السابق، ص205
21.ديوان الرجل مخطوط بقسم المخطوطات.
22.محمد فاضل بن احمدو : تحقيق ديوان البشير بن انباركي، جامعة انواكشوط، 90/89 ص35
23.مخطوط بحوزتنا.
24.ابن اباه: الشعر والشعراء مرجع سابق ص214،215.
25.مخطوط بحوزتنا.

إكتشاف مخطوط مفقود لابن رشد
«الضروري في صناعة النحو»

الأستاذ/ سيدي ولد مناه
جامعة انواكشوط

قصة اكتشاف المخطوط ، ترجع إلى ليلة من ليالي شهر ديسمبر من عام 1999، بعد جلسة من جلسات ندوة دولية عقدت في انواكشوط، حول التراث الموريتاني. وبعد تبادل الحديث ذكر الاستاذ باب ولد هارون: أن لديه مخطوطا مهما في النحو لابن رشد، فقال له: أحمد بن محمد يحي رئيس قسم المخطوطات في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، أنه يعرف ذلك المخطوط. فقلت له: لابن رشد الحفيد أم ابن رشد الجد، فقال باب: اعتقد أنه لابن رشد الجد فقلت له: وما هو عنوانه فقال: «الضروري في صناعة النحو» فقلت له: إذا كان بهذا العنوان فهو لابن رشد الحفيد ومن مخطوطاته المفقودة في المكتبات العالمية.

وبعد هذا الحديث أعطاني موعدا لفحص النسخة التي لديه، وبعض فحصها اكتشفت ان النص لابن رشد الحفيد، وأنه من جنس المختصرات، وهو نص مفقود في العالم.

أما المكتبة التي توجد بها النسخة اليتيمة للمخطوط، فهي مكتبة أهل الشيخ سيديا بمدينة أبي تلميت، وهي مكتبة غنية بالمخطوطات العربية والموريتانية النادرة والنفيسة، ويرجع تاسيسها إلى العلامة الشيخ سيديا الكبير أحد أعلام البلاد الشنقيطية، عاش في القرن التاسع عشر، وجمعها خلال رحلته إلى الديار المغربية، وقد أضاف لها أبناءه من بعده عشرات المخطوطات. وقد أظهر حفيده وأمين المكتبة الأستاذ باب ولد هارون، اهتماما خاصا بالمخطوط المذكور، الأمر الذي دفعه إلى العمل على إخراجه ليستفيد منه المهتمون بابن رشد، وبذل في ذلك الكثير من وقته وجهده وماله، وهذا الاهتمام لديه لا يعكسه سوى الرغبة في إخراج كنوز مكتبته للجمهور، وإنقاذها من براثن النسيان والضياع الذي تتعرض له مكتبات موريتانية اليوم.

وقد تلقى المهتمون بالدراسات الرشدية، خبر اكتشاف المخطوط بالسرور البالغ، إلى درجة أن أحد الرشديين المغاربة سماه: «بالخبر الفريد لهذه السنة». وهذا إن كان يعني شيئا فإنما يعني أن مكتباتنا ما زالت تضم كنوزا تراثية نادرة ومفقودة في العالم، يجب المحافظة عليها ورعايتها.

والمخطوط يحمل عنوان «الضروري في صناعة النحو ، للقاضي أبي الوليد بن رشد رحمه الله».

ويبدأ المخطوط بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الغرض في هذا القول أن نذكر من علم النحو ماهو كالضروري ، لمن أراد أن يتكلم على عادة العرب في كلامهم، ويتحرى في ذلك ما هو أقرب إلى الأمر الصناعي، وأسهل تعليما وأشد تحصيلا للمعاني. وينبغي أن نستفتح القول في ذلك بالأشياء التي جرت العادة أن نستفتح بها كل صناعة، يرام تعلمها على المجرى الصناعي، فإن الاستفتاح بها نافع في التعلم. وهو أن يخبر أولا: ما غرض هذه الصناعة وثانيا: ما منفعتها وثالثا: ما أقسامها ورابعا النحو المستعمل في تحصيلها، والطرق المسلوكة في إثبات ما وضع فيها، أعني أنحاء الدلائل المستعملة فيها، فإن لكل صناعة تدريبا يخصها في تعلمها، وأنحاء من الدلائل خاصة بتلك الصناعة. وخامسا مرتبتها من العلوم في التعلم، وسادسا نسبتها من سائر العلوم أعني أي جنس من أجناس العلوم تعد، وسابعا: ما يدل عليه اسمها وثامنا : معرفة من وضعها».

وفي خاتمة المخطوط نقرأ:

«وهذه الأشياء هي جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب، فإن وافق الغرض فهو لا بد مرسوم باسمه وكلمة مشتقة من علمه ، وإن سقط هذا الغرض دون ما أشار إليه وأرشد نحوه، فالعذر واضح والسبب في ذلك لائح، وهو تقصير القرائح عن بلوغ أغراضه وعجز الأذهان عن استيفاء مقاصده، والله تعالى يرشد العبيد لما فيه رضاه ويعينهم إلى

مافيه طاعته ويبلغهم غاية الأمل في الدنيا والآخرة إنه منعم كريم».

وفي آخر الصفحة:

«تم الكتاب المسمى الضروري في كليات صناعة النحو بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده وعلى آله وأصحابه الأكرمين من بعده وسلم كثيرا».

والمخطوط يقع في مائة وعشرين صفحة من الحجم المتوسط، وعدد اسطره سبعة عشر سطرا ويسقط من المخطوط اسم الناسخ وتاريخ نسخه، وهو بخط أندلسي مغربي جميل مقروء وبحالة جيدة على العموم.

وذكرته الفهارس القديمة والحديثة لمؤلفات ابن رشد، فذكره برنامج ابن رشد الموجود في مكتبة الاسكوريال بإسبانيا باسم «الضروري في النحو»، ويعد اوفى وأكمل الفهارس القديمة لمؤلفات ابن رشد ويوجد تحت رقم 884 في فهرس **Derenbourg**. وذكرته القائمة التي ذيل بها ابن عبد الملك المراكشي، ترجمته لابن رشد في كتابه "الذيل والتكملة"[1] ولعلها تاتي في الدرجة الثانية من الأهمية، بعد البرنامج بنفس الإسم «الضروري في النحو»، كما أشار إليه كتاب "التكملة لكتاب الصلة" لابن الأبار[2] وقال «وكتابه بالعربية الذي وسمه بالضروري». أما الذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام"[3] فلم يذكر له إسم وقال «وكتاب في العربية»، وصاحب "الديباج"[4] قال «وكتابه في العربية الذي وسمه بالضروري»، ولعله ينقل من كتاب "التكملة لكتاب الصلة".

أما الفهارس الحديثة فأقدمها على الإطلاق، كتاب «ارنست رينان» "ابن رشد والرشدية" [5] وقال له كتاب «الضروري في النحو»، أما أستاذنا المرحوم جمال الدين العلوي في كتابه «المتن الرشدي»، فأشار أن اسمه «الضروري في النحو» وقال «ونحن لا نعلم شيئا عن هذا الكتاب، ونخشى أن يكون هناك خلط بينه وبين الضروري في المنطق وعلى كل حال فإنه من النصوص المفقودة في أصلها العربي[6]. أما الجابري في كتابه «ابن رشد سيرة وفكرة» فذكر أن اسمه «الضروري في النحو» وقال: «ولم يعثر لحد الآن على أية مخطوطة منه -حسب علمنا- وليس ثمة ما يدعو إلى الشك، في تأليف ابن رشد في النحو هذا المختصر... فلاغرابة إذن أن يؤلف في النحو، بل لا يستبعد ان يكون من أول ما ألف»[7]. وأخيرا ذكره محمد ابراهيم البنا، صاحب تحقيق كتاب «نتائج الفكر في النحو»[8] لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي (ت581)، فقال «فإن أبا الوليد بن رشد قد شغله أمر النحو والنحاة وما راه من استغراقهم في مسائله وبحوثه، وصرفهم الجهود إلى درسه، حتى صار لكل شيخ مذهب ينافح عنه، وقد رأينا له كتابا يدعى "الضروري في النحو" وهو عنوان دال على مضمونه، ولعله دعا فيه إلى القصد والاعتدال، صنيع ابن حزم الذي عرفناه في عهد الطوائف».

وأشار في هامش الصفحة أنه راه في مكتبة الأسكوريال!!! لكن هذه الإشارة غامضة، فلم يشر إلى رقم الكتاب في المكتبة، وكذلك قوله «ولعله دعا فيه إلى القصد والاعتدال» توحي أنه لم يفحص النسخة. وجميع المفهرسين العرب والأجانب للمكتبة -حسب علمنا- ولمؤلفات ابن رشد، لم يشيروا لاحتمال وجود الكتاب في الأسكوريال، ولعل محمد ابراهيم البنا وقع لديه التباس بين وجود اسم الكتاب في قائمة برنامج ابن رشد الموجود بالمكتبة، وبين كون المخطوط موجودا فعلا في الأسكوريال.

ولعل ما قدمناه يثبت، أن هذا العنوان «الضروري في النحو» مطابق لعنوان مخطوطنا «الضروري في صناعة النحو»، وإن سقطت منه كلمة "الصناعة" الموجودة في عنوان مخطوطنا. إلا أن هناك عنوان آخر لمخطوطنا، وهو «الضروري في كليات صناعة النحو» وهو عنوان لم نجد له ذكرا في الفهارس التي بين أيدينا، وإن كان أكثر التصاقا بمضمون الكتاب من عنوانه الرئيسي.

و علاقة ابن رشد بالنحو علاقة قوية، خاصة إذا عرفنا أنه أخذ العربية عن أبي بكر بن سحنون وذكر ذلك صاحب الذيل والتكملة، وأنه «كان ذا حظ وافر من علوم اللسان العربي كثير الإنشاد لشواهد شعري حبيب والمتنبي»[9] ويذكر عنه ابن الأبار أنه كان «يفزع إلى فتواه في الطب كما كان يفزع إلى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من

الإعراب والآداب حكى عنه ابو القاسم بن الطيلسان، أنه كان يحفظ شعر حبيب والمتنبي[10] ويكثر منهما في مجلسه ويورد ذلك أحسن إيراد»[11].

ودليل اخر يثبت نسبة النص لابن رشد، وهو تطابق ديباجة كتابه «الضروري في النحو» لديباجة مختصراته الأخرى في المنطق والأصول وغيرها[12]. يقول في ديباجة «الضروري في النحو» «الغرض في هذا القول، أن نذكر من علم النحو ماهو كالضروري لمن أراد أن يتكلم على عادة العرب في كلامهم، ويتحرى في ذلك ما هو أقرب إلى الأمر الصناعي وأسهل تعليما واشد تحصيلا للمعاني، وينبغي أن نستفتح القول في ذلك بالأشياء التي جرت العادة أن نستفتح بها كل صناعة يرام تعلمها على المجرى الصناعي، فإن الاستفتاح بها نافع في التعلم»[13].

الديباجة تبين أن غاية ابن رشد من كتابته في علم النحو ،غاية ذكر الضروري من هذا العلم الذي يسهل تعليمه ويكون أقرب إلى الأمر الصناعي، وهي نفس الغاية والغرض الذي نقرأه في ديباجة المختصرات الأخرى، فعندما يقول ابن رشد في مختصره للمستصفى: «فإن غرضي في هذا العلم، أن أثبت لنفسي على جهة التذكرة، من كتاب ابن حامد رحمه الله في أصول الفقه الملقب بالمستصفى، جملة كافية بحسب الأمر الضروري في هذه الصناعة ونتحرى في ذلك أوجز القول وأخصره ،وما نظن به أنه أكثر ذلك صناعي"[14]، فهي نفس العبارات التي تعكس بحث ابن رشد الدؤوب، عن الضروري في العلوم التي اختصرها كالمنطق وأصول الفقه والنحو والطب وغيرها. وابن رشد يستفتح كتابه في النحو بما يستفتح به عادة كتاباته العامة والخاصة، مما يؤكد نسبة النص إليه من مثل الكلام عن غرض الصناعة ومنفعتها وأقسامها ومرتبتها من العلوم، إلى غير ذلك مما يسميه بالنافع في تعلم الصنائع. لكن توجد عبارة في ديباجة «الضروري في النحو»، تجعلنا نتحفظ من القول أن نص الضروري في النحو هو أول نص كتبه ابن رشد وهو قوله «وينبغي أن نستفتح القول في ذلك، بالأشياء التي جرت العادة أن نستفتح بها كل صناعة" فقوله: «التي جرت العادة»، معناه أن هناك نصوص سابقة لنص الضروري في النحو وهي على الأغلب مختصر المستصفى ومختصر المنطق، وذلك على أساس من قناعتنا أن المختصر سابق للجوامع وللتلخيص وللشرح الكبير[15]. الأمر الذي جعلنا نخمن أن كتابته لهذا المختصر لا تبتعد كثيرا عن تاريخ كتابته لكتابه «الكليات في الطب»، الذي يحتمل أن يكون ألفه سنة 557- 1162 فديباجة الكتابين متطابقة، وهي البحث عن الضروري من المعرفة في العلمين[16] أضف إلى ذلك وجود عنوان، لكتاب «الضروري في النحو» وضعه ابن رشد في خاتمة الكتاب مطابق لعنوان كتاب الكليات في الطب، وهو قوله «تم الكتاب المسمى الضروري في كليات صناعة النحو بحمد الله». وذلك لأن كتاب «الضروري في النحو» كتاب في كليات وقوانين النحو، وليس كتابا في جزئياته. فلعل ابن رشد ألف الكتابين في فترة واحدة همه منهما اختصار الضروري من العلمين، بطريقة صناعية تراعي المهم على الأهم وتثبت القوانين والكليات المجردة وتحذف الجزئيات والتفريعات غير الضرورية.

أما مضمون الكتاب فهو ذو طابع تعليمي تقريري، لبعد مقررات النحو الدراسية في عصر المؤلف عن الأمور الصناعية، واختلافهم حول الموضوعات النحوية، لهذا كله وضع ابن رشد هذا المختصر، كتذكرة لرؤوس المسائل الأساسية في علم النحو ينتفع المنتهي باستحضارها، والمبتدئ باستظهارها وحفظها يقول ابن رشد: «فهذه القوانين هي بالجملة حاصلة الألفاظ المعربة، والوقوف عليها أولا من أنفع الأشياء، لمن أراد أن يستوفي أجراء هذه الصناعة أو المستعمل منها في الأكثر، وخاصة الأولاد فإنهم يأخذون بحفظ هذه القوانين أولا ، ثم إذا صاروا إلى الفهم، اخذوا بفهم أسباب هذه القوانين، ووجوه انقسام الكلام إليها وانحصاره فيها، ثم بتفصيل ما في قانون منها، حتى يستوفوا معرفة جميع الجزئيات المنحصرة في هذه القوانين، فتتم الصناعة بسهولة وتحصيل تام، في زمان يسير»[17] ويمكن لغيرهم أن يستفيدوا منها «وإن اقتصر عليها ذو فهم وارتياض، في مرتبتها في كلام العرب كفاه

كثيرا، من تشغيب وتفنن القوانين، التي رام النحاة أن يحصروا من قبلها هذا الجزء من الصناعة، وبخاصة إذا اعتبر ما يتكلفون في ذلك، من المألوفات التي يسمونها إعرابا ويأخذ الأولاد بحفظها ، ومن وقف على هذه القوانين، وفهم انحصار الكلام فيها وكان من أهل صناعة النحو ، أمكنه أن يأتي بتفاصيلها، من كتب النحاة وأن يحصرها ما افترق في كتبهم»[18]، فابن رشد يروم غاية تعليمية واضحة جلية، وهي تقريب علم النحو من الناشئة وهي غاية حاضرة في ذهن ابن رشد، لايفتؤ يكررها وينبه عليها لأنها غاية أدخل في الأمر الصناعي، وأضبط للمعاني مما يضعه النحاة، عادة لتدريس علم النحو يقول: «ومن وقف على ما كتبناه في ذلك، وكان من أهل الإنصاف، ظهر له أن المسلك الذي سلكناه في تفهيم هذا الجزء وحصر معانيه، هو أدخل في الأمر الصناعي وأضبط في باب المعاني مما جرت به عادة النحاة في ذلك»[19]، فالقصد من الكتاب احصاء أنواع الإعراب وجهته ونوعه وإعطاء الأسباب الفاعلة له، وهو أمر لم يصنعه النحاة -حسب ابن رشد- من قبل كما يذكر أنه بقي عليهم، معرفة المعربات وخاصة جهة الترتيب وحسن النظام واستعمال التقسيم الصحيح، الأمر الذي جعله لا يتردد في انتقادهم، وخاصة القدماء منهم لأنهم "لم يسلكوا في تحصيل قوانين الإعراب والمعربات، طريقا من الطرق الصناعية ولا سيما قدماؤهم، وأما المتأخرون فقد نجدهم سلكوا في ذلك بعض السلوك، ذلك أنهم استعملوا في المعربات طريق التقسيم، واستيفاء هذه الطريقة، يقتضي فيما يقتضي أن تستعمل طريق التقسيم والحصر أولا، في الكلام المركب الذي فيه الإعراب، لأنه كالقاعدة له"[20] وهو في رأيه يتم بالحدود والرسوم والتمثيل، واستعمال المقاييس التي تعطي أسباب الأمور الكلية الموضوعة فيها، والتي صح وجودها بالنقل عن العرب، أو باستقراء لكلامهم لأن جل ما أثبت وجوده في هذه الصناعة، إنما اثبت -حسب ابن رشد- بطريق السماع والاستقراء، ولذلك يرفض قياس المجهول على المعلوم، ويعتبره قياسا ضعيفا يقول: «وقد يستعمل أهل هذه الصناعة، القياس بما جهل سماعه، فإنهم يقيسون المجهول على المعلوم وهو ضعيف، وربما أفرطوا حتى يردون السماع»[21]، وهذا دليل أن ابن رشد كان يذهب مذهب الرافضين للقياس في علم النحو، كما ذهب إلى ذلك ابن مضاء القرطبي (ت592) صاحب كتاب "الرد على النحاة"، الذي هو معاصر لابن رشد، وكان قاضي القضاة في الدولة -كما يقول صاحب المعجب وروض القرطاس-، في عهد يوسف بن عبد المؤمن وعرف بتحمسه لدعوة الموحدين، وتأييده لهم في التمسك بالظاهر، ورفض العامل والقياس في النحو، وهذا يجعل صاحب «الرد على النحاة»، على علاقة بقاضي قرطبة ابن رشد، وإن كنا نميل إلى القول أن الأول تأثر بالثاني، خاصة من خلال مختصره الضروري في النحو وذلك لسببين اثنين: الأول: أن كتاب "الرد على النحاة"، كتاب كتب متأخرا على فترة كتابة «الضروروي في النحو »، وهو في رأي محققه بعد (580هـ)[22]، السبب الثاني عبارات وردت في كتاب "الرد على النحاة"، تشابه إلى حد ما عبارات الضروري في النحو لابن رشد، فقول ابن مضاء في بداية كتابه «قصدي في هذا الكتاب، أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه»[23]، وهي نفس العبارة التي افتتح بها ابن رشد من قبله كتابه،كدعوته لإحصاء قوانين الإعراب الضرورية، وحذف كل ما هو غير صناعي من علم النحو . فأبو الوليد يرى في تفهيم الإعراب، أن تحصر أصنافه من قبل أصناف الكلام، ويحصر في صنف من قبل، أصناف العوامل الداخلة عليه، كأن يقسم الكلام المركب أولا، إلى مفيد وغير مفيد، ثم يذكر الإعراب في كل صنف على حدة وتحصر أنواعه من قبل أسبابه الخاصة به، في ذلك الصنف من الكلام، وهي التي تسمى عوامل الأسباب الخاصة للإعراب عند ابن رشد، وهذا الأمر يجعلنا نستبعد القول أن ابن رشد، كان يذهب مذهب ابن مضاء القرطبي، في رفضه لنظرية العامل في النحو وأوضح مثال على ذلك، جعله النحو علما أرسطيا، ينحو منحا فلسفيا على الطريقة الأرسطوطاليسية، التي تتكون فيها الأشياء من المادة والصورة، والسبب الفاعل لهما يقول: «فإن الجمل هي التي تتنزل من أنواع الإعراب

بمنزلة المواد . والإعراب لـها بمنزلة الصور والعوامل بمنزلة الأسباب المفضية لوجود تلك الصور في المواد، لأنها تفهم المعنى الواقع في الجملة»[24]، ولذلك يقول ابن رشد أن معرفة أنواع الإعراب، مرتبطة بمعرفة مواده وصوره لأن كل موجود مركب «من مادة وصورة، فالمعرفة التامة به إنما تكون بمعرفة صورته ومادته والسبب الموجود لكون الصورة في المادة، فواجب على من أزمع الإعراب، معرفة تامة، أن يعرفه من قبل الجمل الواقعة فيه، لا من قبل الألفاظ المفردة، وتفرق الجمل من جهة أشكالها ومن جهة موادها»[25].

لكن هناك ما هو أبعد في المشروع الرشدي، لإعادة كتابة النحو، ألا وهو ربط العلم العربي "النحو"، بالعلم اليوناني "المنطق"، وهو ربط جرت محاولات في الماضي له، لكنه سيكون هذه المرة أكثر وضوحا وتميزا، فمن خلال الانتقادات الحادة التي يوجهها أبو الوليد للرافضين لمحاولة الربط بين العلمين، نكتشف أهمية المحاولة عنده، فعلم النحو في تعريف صاحب الضروري هو من «أجناس العلوم التي تراد لغيرها لا لنفسها، وذلك أن العلوم صنفان: علوم مقصودة لنفسها، وعلوم مسددة للإنسان في تعلم العلوم المقصودة في نفسها، (يعني النحو) إما أن تسدد من الألفاظ التي ينطق بها، وإما أن تسدد من المعاني التي ينظر فيها (المنطق)، حتى لا يعرض في الجنسين غلط، أعني الألفاظ والمعاني، وهذه الصناعة هي مسددة للذهن في الألفاظ أولا وفي المعاني ثانيا»[26].

فإن ابن رشد يجعل علم النحو بحكم الآلة، التي تعصم النطق عن الخطإ في الألفاظ، كما هو الحال في علم المنطق، الذي هو الة تعصم الذهن، عن الخطأ في الفكر، ولذلك يقول بتماثل وظيفة العلمين عندما يلمح إلى المنطق بقوله: «وهاهنا صناعة مسددة للذهن في المعاني أولا وفي الألفاظ ثانيا»[27]. فمنزلة النحو كمنزلة المنطق، علمان مسددان، إلا أن الأول يسدد اللسان والثاني يسدد العقل والفكر، حتى لا يقع غلط فيهما، وإن كان ابن رشد يرى في النحو مرتبة تسبق المنطق في التعلم.

وابن رشد لا يفتؤ ينبه بخطورة وجسارة محاولته، وأنها ستلقى المعارضة والرفض من قبل المتعصبين لعلم النحو العربي، الرافضين لدمجه بالعلم اليوناني، والمتمسكين بالتقليد النحوي يقول: «لكن ربما عابه قوم، لمفارقته المعتادة، وأنكروه لما في طبيعة الأقاويل المشهورة من الاستعباد، وربما قالوا خلط صناعة المنطق بصناعة النحو، وهذا كله جهل بالطريق الصناعي»[28]. وفي موضع آخر يقول: «ولعل جاهلا يقول إنك خرجت في هذا الكتاب، عن طريق النحاة، وخلطت هذا العلم بعلم ليس منه، فإن القائل بهذا القول إما أن يكون حمله الجهل وإفراط الحسد، على أن لم يفهم أن كل صناعة، تروم أن تعرف الأشياء التي فيها، بأتم ما يمكن أن تعرفه بها، أو لم يقع له التصديق بما قلناه، من أنه إنما يعرف الإعراب من عرف أصناف الكلام المعرب، أعني المفيد وغير المفيد، أو أن يكون ممن لا يقدر أن ينتقل عن ما نشأ عليه من التقليد، وكان المشهور مغلبا عنده على المعقول، وهذه هي رتبة العوام، فيلحق هذا العلم بجنسه، ولا يتعرض لإدخال نفسه بالخواص، فإن عزله منهم واجب، وإلحاقه بصنفه، هو القول فيه، والله يوفق كل صنف بما جعل في طباعه»[29]. فابن رشد في هذه النصوص، يخاطب أصحاب التقليد النحوي بالأندلس، الذين اشتهر تعصبهم للمدرسة النحوية العراقية، في بغداد والكوفة والبصرة، الأمر الذي جعل الخروج على التقليد، ينظر اليه في أغلب الأحيان، بعين الريبة والإزدراء وعدم الالكتراث، ونلمس بعضا من ذلك عند ابن مضاء في مقدمته لكتابه[30]. وفي خاتمة كتاب "الضروري في النحو" حين يقول: «فإن وافق الغرض، الذي نحوناه في هذا الكتاب، من إرشاد الغاية التي من أجلها استقام هذا النظر، وجرى في هذا المسلك، فهو أحق من نسب إليه، وهو المأجور فيه والمشكور عليه، إذ كل من عرف الغاية وأرشد إلى النهاية، فهو المعروف لما قبلها من الواصلات إليها، والفاعلات الدالة عليها، وهذه الأشياء هي جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب، فإن وافق الغرض فهو ولابد مرسوم باسمه، وكلمة مشتقة من علمه، وإن سقط هذا الغرض، دون ما أشار إليه

وأرشد نحوه، فالعذر واضح والسبب في ذلك لائح وهو تقصير القرائح عن بلوغ أغراضه وعجز ذهنه عن استيفاء مقاصده»[31].

فابن رشد في كتابته عن النحو، لا يهتم إلا بالإعراب، لأنه في رأيه رأس هذا العلم وغايته، كما لا يهتم في الإعراب إلا بإعراب الجمل، أما إعراب الألفاظ فهو من باب المقدمات والممهدات لعلم النحو، وليس أمرا داخلا في جوهره، والسبب في ذلك أن النظر الصناعي، أدى بأصحاب النحو، أن يقدموا بين أيديهم النظر، في الألفاظ المفردة التي هي كمقدمات وممهدات للإعراب، قبل أن ينظروا في المركب الذي يدخل فيه الإعراب، يقول ابن رشد: «أما الترتيب الذي سلكناه في هذا الكتاب، فإنا رأينا أن نقدم أولا من أمر الألفاظ المفردة، ما الاهتمام بمعرفته مساو للاهتمام بمعرفة الإعراب، بل لعلة أكثر وهي الأمور الضرورية في كل مخاطبة، ومشتركة لجميع الألسنة، وهذا هو شكل التثنية، وشكل الجمع، وشكل المذكر والمؤنث، وشكل الأخبار عن أنواع الضمائر الثلاثة، وهو شكل إخبار المتكلم عن نفسه، وشكل الإخبار عن الحاضر، وشكل الإخبار عن الغائب»[32]. فأبو الوليد يلخص النحو في الأشكال الأربعة التي رأيناها، وهي الأشكال الموجودة في جميع اللغات والألسنة، لأنه يبحث في النحو عما هو مشترك وعام بين البشر، وليس عن ما هو خاص بالعرب، ولذلك كانت هذه الأشكال، هي جوهر النحو وفائدته، لأنها الأشكال المسؤولة عن الإعرب في جميع اللغات، أما ما عداها من علم النحو، فهو فضل وغير ضروري، لعدم تعلق الإعراب به، ولذلك كان الإعراب يتعلق بعلم الأطراف الأخيرة من الألفاظ، وهي الأطراف الزائدة في بنية اللفظ. لذلك يقول ابن رشد يجب أن يقسم الكتاب إلى أربعة أقسام: المقدمات، والأشكال الثلاثية، وفي الإعراب، وفيما بقي من معرفة أشكال الألفاظ المفردة ومن معرفة أشكال العلم التي لا تسمى إعرابا»[33]، فالنظر في مقدمات علم النحو، يقتصر على قسمين: الأول معرفة أجناس الألفاظ الأول المفردة، التي يأتلف الكلام منها، والثاني معرفة الكلام المركب من هذه المفردات وأجناسها الأول،

وفي هذا القسم بابان:

الباب الأول: في تعريف الألفاظ المفردة، بحدودها وخواصها، والثاني معرفة أنواعها الضرورية في هذه الصناعة، ويبدؤها ابن رشد بالكلام، عن الألفاظ المفردة، وهي ثلاثة الإسم والفعل والحرف. الإسم عنده هو "لفظ يدل على معنى غير مقترن بزمان تحصل، أعني بالمحصل الماضي أو المستقبل أو الحاضر، مثل زيد يدل على معنى غير مقترن بزمان تحصل"[34].

الفعل هو: "لفظ يدل على معنى، ويصح باقتران زمان يحصل، كقولنا قام يقوم، فهو لفظ يدل على معنى مقترن بزمان تحصل"[35].

أما الحرف فقد تأرجح رأي ابن رشد في تعريفه، بين القول باسميته والقول بعدمها يقول: فهو «اللفظ الذي يدل على النسب، التي تكون بين الأسماء أنفسها، وبين الأسماء والأفعال، ولذلك قيل في حده أنه لفظ يدل على معنى في غيره، وكل ما كان من هذه رابطا للخبر بالمخبر عنه، سموه حرفا اعني نحاة العرب، وذلك أنهم لما وجدوا هذه بخلاف الأسماء على جهة الاقتصار، اعتقدوا فيها أنها أسماء(...)، وإذا أريد أن يجعل حد الحروف لا يشمل هذا الجنس من الألفاظ، -يعني حروف الاستفهام والحروف الموصولة- فينبغي أن يقال في حده أنه لفظ يدل على معنى في غيره، من غير أن يخلف الإسم أو يقع موقعه»[36].

وابو الوليد يدرس هذه الألفاظ الثلاثة، من جهة خاصيتها المعنوية واللفظية، فخاصية الاسم المعنوية أن يكون خبرا أومخبرا عنه، واللفظية أن يدخل عليه التنوين والألف واللام التي للتعريف، والفعل خاصيته المعنوية أن يكون خبرا لا مخبرا عنه، واللفظية أن لا يلحقه تنوين ولا تعريف ولا خفض ولا نصب ولا رفع، بالمعنى الذي يلحق الأسماء، لأنه لا يكون مبتدأ ولا يكون فاعلا ولا مفعولا ولا مشبها بهما.

ومفهوم الإسم يتعدد بتعدد دلالاته، وقسمة الأسماء النافعة في الإعراب، هي معرفة أن الأسماء منها، أسماء ظاهرة ومضمرة وموصولة، والأسماء المظهرة هي الأسماء الأول الحقيقية التي ينطبق عليها حد الإسم المتقدم، أما الاسماء الباقية فإنما

اسماها النحاة، اسماء لأنها تحل محل الأسماء، وهي أشد مطابقة لحد الحرف منها لحد الاسم، ولذلك كان القدماء يعدونها من الحروف، لأن طبيعتها متوسطة بين الطبيعتين. والأسماء الأول تنقسم إلى قسمين: اسم يدل على شخص مشار إليه قائم بنفسه، مثل زيد أو عمرو ، أو صفة موجودة في الشخص مثل البياض أو السواد المشار إليه، في زيد أو عمرو. والثاني ما كان من الأسماء يدل على معنى موجود في كثير، مثل قولنا إنسان وحيوان وبياض وسواد، وهي قسمة يماثل فيها صاحبنا بين قسمة الألفاظ في النحو، وقسمتها في المنطق، فالقسم الأول يطابقه في المنطق الجوهر والعرض، والثاني يقابله النوع والجنس، وألمح ابن رشد إلى ذلك بقوله: «وكل علمين أحدهما أخص من الآخر، والآخر أعم منه، فإن الأعم يسمى جنسا، والأخص يسمى نوعا، عند بعض أهل النظر، ومعرفة ذلك نافع في هذه الصناعة»[37]، أما القسمة الثانية للأسماء في كتاب «الضروري في النحو»، فهي أن الأسماء منها أسماء صفات وأحوال إضافية، ومنها أسماء أفعال أو مصادر الأفعال، ويأتي فيها ابن رشد برأي النحاة الكوفيين والبصريين في أصل المصدر والفعل، أيهما أصل للآخر، ويميل لترجيح رأي نحاة البصرة في أن الفعل أصل للمصدر، أما اسماء المعرفة والنكرة فيحاول أن يبحث لها عن أساس منطقي، فأسماء المعرفة هي الأسماء العرفية، ومعرفتها ضرورية لهذه الصناعة، لأنها توضع لتعرف بالشيء المعين المحدد، سواء كان اسماء أشخاص أو اسماء أجناس أو أنواع، وذلك بدخول الألف واللام عليها، لتدل على الإسم بطريق العرف والاستعمال. أما أسماء النكرة فهي عكس المعرفة لأنها تدل على شيء غير معين، إما شخص أو جنس أو نوع، فهي إن كانت مركبة من دلالة مساوية لدلالة الاسم فهي جنس، وإن كانت مركبة من صفات زائدة على الاسم الذي هي له اسم، فتسمى نوعا. ويختم ابن رشد كلامه عن الاسماء بالكلام عن الأسماء المضمرة والمبهمة والموصولة.

أما الفعل فهو ثلاثة أنواع : الماضي والحاضر والمستقبل.

فالماضي: ليس في أوله تاء ولا ياء ولا ألف ولا نون، وهي الحروف التي تعرف بحروف الزوائد، وهو فعل غير معرب مبني على الفتح، أما فعل المستقبل فأوله أحد الحروف الأربعة، والحاضر والمستقبل في لسان العرب لهما شكل واحد، فإن أرادوا تخليصه للإستقبال، أدخلوا عليه السين أو سوف، وإن أرادوه للحاضر قالوا يفعل الآن، وهو اسم مبني على الضم، وابن رشد يرى أن الحاضر الآن، هو فصل بين الحاضر والمستقبل، لأنه لا يوجد حاضر إلا بالوضع الآن، فمفهوم الزمن الطبيعي، أنه ينقسم، والآن ليس بزمان، لأنه غير منقسم، الأمر الذي جعل النحاة، يعتقدون أن الحاضر زمان، هو اعتقادهم أن الحاضر زمان يحيط به زمانان، زمان مستقبل وزمان ماض، قريبان من الحاضر، فلذلك سموا الحاضر باسم زمان، لتنزله في الحس منزلة الآن في العقل. أما فعل الأمر ويسميه بفعل النهي، فيأتي ابن رشد فيه برأي شاذ غير مشهور، وذلك عندما يقول، إن فعل الأمر والنهي ليس بالفعل مطلقا، لأنه إما استدعاء فعل أو استدعاء ترك فعل، وفي الحالتين ليس فعلا إلا بالمجاز، وإن كان النحويون اعتبروه فعل مستقبل مبني على السكون، لما اشتقوا لفظته من لفظة الفعل. أما أنواع الحروف فيلحق الكلام عنها، بالكلام عن الإعراب، لأنه لا يوجد حرف إلا وهو عامل.

وفي الجزء الثاني من الكتاب، يخصصه أبو الوليد للكلام عن الألفاظ المركبة من الثلاثة، الإسم والفعل والحرف، فيعرف القول وأنواعه، ويقسمه إلى قول تام كاف بنفسه، وهو الذي يسميه النحاة كلاما، وإلى قول غير تام بمنزلة الإسم المفرد، ويسميه تركيب تقييد، والجمل التامة عنده نوعان: منها ما تركيبه تركيب يحتمل الصدق والكذب، تسمى جملة خبرية، ومنها ما تركيبه تركيب لا يتصف بالصدق ولا بالكذب، وهو كالنداء وطلب الترك. أما الجمل الكلامية، فمنها جمل أول وجمل ثواني، والجمل الأول هي التي لا تحتوي إلا على قول واحد من الأقاويل التامة الأول، والجمل الثواني هي التي تحتوي على قولين تامين، والجمل المركبة منها جمل بسيطة وجمل مركبة، فالبسيطة هي التي لا

يوجد فيها إلا نوع الأول المفيد، مثل الخبر والأمر والنهي فقط، أما المركبة فهي التي لا يوجد فيها إلا نوع التركيب المفيد بذاته الذي نسميه تركيب تقييد، وهو الذي يوجد فيه جميع أنواع الإعراب من رفع ونصب وخفض.

والذي يمكن تسجيله من قراءة كتاب "الضروري في صناعة النحو"، لابن رشد هو أن الكتاب يحمل مفهوما جديدا لعلم النحو، مخالف لما تواضع الناس عليه، عن هذا العلم وأبرز سمات هذا المفهوم الجديد، لعلم النحو عند ابن رشد، هو محاولته الجمع بينه وبين المنطق، وتقريب ألفاظ العلم اليوناني من العلم العربي، بدعوى البحث عن المشترك والعام بين الشعوب والأمم، وإهمال الخاص والجزئي، وذلك باستخراج قوانين النحو الكلية ودساتيره العامة، وحذف جزئياته ووقائعه اللامتناهية، من أجل الإمساك بأصول النحو ومقدماته المقررة الثابتة، وبالرغم من ذلك يلاحظ أن صاحبنا لم يسلم من نقاش جزئيات النحو وعلم الخلافيات فيه، كما يلاحظ عليه خوفه من عين "الرقيب" التقليدية لعلماء عصره، الحرصين على نقاء العلم العربي، من أية محاولة لمزجه أو خلطه بعلم اخر، خاصة المنطق، لذلك نجد ابن رشد في بعض المواضع، لا يفصح عن مشروعه، بل يتستر عليه في أحيان كثيرة، من ذلك عدم نسبته بعض الألفاظ المنطقية لأصحابها، ليقول عنها تسمى "عند البعض بكذا"، وهي عند قوم "كذا"، إلى غير ذلك، مما يجعلنا نتصور صعوبة وعوائق المحاولة الرشدية لكتابة النحو في عصره، إلا أنها محاولة جادة مع ذلك، لتقريب علم النحو من علم المنطق، تضاف للمحاولات السابقة التي قام بها أبو بشر متى وأبو نصر الفارابي وغيرهما في التقريب بين العلمين.

الهوامش

[1]- المراكشي، الذيل والتكملة ، لكتاب السادس، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، 1973، ص21-31

[2]- ابن الأبار :كتاب التكملة لكتاب الصلة ، ملحق بكتاب ابن رشد والرشدية ، ارنست رينان، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الحلبي، القاهرة1957، ص435-437.

[3]- الذهبي، تاريخ الإسلام، من مخ باريس، المكتبة الأهلية رقم 1583اق 80ظ ملحق بالكتاب، ن.م، ص456-460.

[4]- ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة 1351هـ ، ص284-285.

[5]- ارنست رينان ، ابن رشد والرشدية ، ص90

[6]- العلوي،ج، المتن الرشدي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص25.

[7]- الجابري ،م، ابن رشد سيرة وفكر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص76

[8]- مقدمة تحقيق محمد ابراهيم البنا، لكتاب نتائج الفكر في النحو ، للسهيلي، نشرة جامعة قاريونس، ليبيا، 1978، ص12.

[9]- المركشي، الذيل والتكملة، ص21-31.

[10]- الأنصاري ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، عن مخطوط دار الكتب الأهلية ، بباريس، رقم 2156، ق7، ملحق بكتاب رينان ص437-447.

[11]- أنظر ، ن، م، ص، 437-447.

[12]- أنظر ديباجة مختصر المنطق، تحقيق تشارلس بوتوروث، وديباجة كتاب الكليات في الطب - سلسة التراث الفلسفي العربي مؤلفات ابن رشد، اشراف محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 1999.

[13]- كتاب الضروري في صناعة النحو ، تحقيق باب ولدهارون ، ص14

[14]- الضروري في أصول الفقه، ابن رشد، تحقيق جمال الدين العلوي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص34.

[15]- أنظر مقالتنا بعنوان: قراءة ابن رشد، لأبي حامد الغزالي من خلال مختصر المستصفى ، مجلة الضياء ، العدد8، 1998، ص86.

[16]- تقول ديباجة الكليات في الطب «فإن الغرض في هذا القول أن نثبت هاهنا من صناعة الطب جملة كافية على جهة الإيجاز والاختصار تتضمن أصول الصناعة وتكون كالمدخل لمن احب أن يقتصي أجراء الصناعة وكالتذكرة لمن نظر في الصناعة ونتحرى في ذلك الأقاويل المطابقة للحق وإن خالف ذلك اراء اهل الصناعة»، ص127.

[17]- نص كتاب الضروري في صناعة النحو ، لابن رشد، ص138.

[18]- ن ، م، ص138

[19]- ن ، م، ص138.

[20]- ن ، م، ص138.

[21]- ن ، م، ص138.

[22]- ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1947، أنظر مقدمة المحقق.

[23]- ن، م ، ص76.

[24]- كتاب الضروري في صناعة النحو ، لابن رشد، ص138.

[25]- ن، م، ص16.

[26]- ن، م، ص16.

[27]- ن ، م ص139.

[28]- ن ، م ص137.

[29]- ن ، م ص137.

[30]- انظر الرد على النحاة ، ص74.

[31]- ن ، م ص14.

[32]- ن ، م ص20.

[33]- ن ، م ص21.

[34]- ن ، م ص22.

[35]- ن ، م ص22.

[36]- ن ، م ص22.

[37]- ن ، م ص24.

من أجل فهم عقلاني للتراث

د.حمود بن حمادي
جامعة انواكشوط

ما هو التراث؟ سؤال كبير تناوله كثير من الباحثين(1) وتعددت حوله الاجابات. ولعلي أصدم الكثير من القراء عندما أجيب بأنه لا يوجد تراث في ذاته ! لست أقصد من هذا أنني أنفى أو ألغى الحقيقة الذاتية للتراث، أو أتجاهلها أو أتغافل عن تحققه الموضوعي بالنسبة إلينا. التراث – بغير شك – موجود، قائم في نص، في فكر، في آداب شعبية، في خبرة إلى غير ذلك. والتراث موجود قائم يتحقق كذلك بالفعل زمانيا، في لحظة تاريخية- اجتماعية معينة. وتتراكم هذه اللحظات الزمنية وتتصل لتشكل تاريخنا القومي الثقافي-التراثي العام.

على أن هذا الوجود التراثي المتحقق ماديا وزمانيا وتاريخيا ينتسب إلى الماضي، ولهذا فهو تراث، أي انه أثر حتى وإن بقيت معالمه ماثلة قائمة أمامنا على نحو مادي او معنوي، على أنه ليس فعلا ما أقوم به، بممارسته، بتحقيقه ابتداء، وإنما هو تحقق سابق على وجودي ولهذا فحقيقته في ذاتها مشروطة بمدى معرفتي بها وطبيعة موقفي منها وتوظيفي لها. قد أتجاهل التراث او أكرره حرفيا، او أفسره أو أستلهمه، أو أهول من شأنه أو أهون منه، وقد أراه على هذا النحو او ذاك، وفي أي موقف من هذه المواقف يفقد التراث ماضيه – حتى لو كررته حرفيا- أي يفقد حقيقته الذاتية المرتبطة بغير شك بسياقه الزمني التاريخي والاجتماعي الخاص، ويصبح جزءا من زمني من سياق حاضري الخاص.

ولهذا فإن الموقف من التراث، ليس موقفا من الماضي، وإنما هو موقف من الحاضر، فبحسب موقفي من الحاضر يكون موقفي من الماضي وليس العكس كما يقال أو كما يظن. إن الماضي هو سندي وسلاحي لمشروعية حاضري، وبحسب معرفتي بحاضري، وموقفي من حاضري، تكون معرفتي وموقفي من الماضي ولست أقصد الحاضر الذي تعيشه أنت الآن واعيشه أنا، وإنما أقصد كل حاضر، فكل لحظة من لحظات التاريخ الانساني عامة والعربي خاصة، هي ماضي كان حاضرا وهي حاضر أصبح ماضيا(2).

وطوال هذا "الماضي-الحاضر" و"الحاضر-الماضي"، كانت هناك دائما اضافات وممارسات ومنجزات مادية وفكرية وثقافية وروحية تصبح تراثا مع كل انتقال لها من حاضر إلى ماض، أي مع كل حاضر جديد بالنسبة إليها، وكانت هناك دائما كذلك مواقف جديدة ومتجددة من هذه الاضافات التراثية المتراكمة زمنيا، مع كل حاضر جديد في المستقبل، وهكذا تتضاعف وتتراكم الاضافات التراثية، وتتضاعف وتتراكم معها المواقف من هذه الاضافات، وهذه المواقف تصبح بدورها مع الزمن إضافات تراثية. وعندما نتحدث عن التراكم والاضافة في الزمن، لا نتحدث عن

أنات زمانية مفرغة، تتحرك داخلها التراكمات والاضافات التراثية حركة خطية وإنما نتحدث عن تاريخ، أي نتحدث عن كثافة إنسانية اجتماعية، نتحدث عن أنظمة حكم، وأنسقة علاقات اجتماعية وأنسقة قيم وأفكار ومشاعر، نتحدث عن صراعات ومصادمات مصالح في مستوى الواقع الاجتماعي العملي، وفي مستوى الثقافات النظرية والروحية والابداعية على السواء، نتحدث عن عوامل داخلية وتأثيرات خارجية، عن دوافع ذاتية وشروط موضوعية، عن قوى فردية واخرى اجتماعية، نتحدث عن أفعال وردود افعال وتفاعلات عن استمرار واتصال وتقطع وانفصال، مرة أخرى..نتحدث عن التاريخ، وبهذا المعنى الحي الصراعي المتحرك للتاريخ، وفي اطاره ومن عناصره العينية ومعطياته المشخصة تتشكل الاضافات التراثية وتتحدد المواقف من هذه الاضافات التي تصبح بدورها إضافات جديدة ومن هذه الاضافات المتجددة يتشكل ويتحدد كذلك التاريخ نفسه(3).

نستخلص من هذا كله:

أولا: أن الاضافات التراثية المتجددة، تختلف دلالاتها باختلاف المراحل واللحظات التاريخية والاجتماعية، وكذلك الامر بالنسبة للمواقف من هذه الإضافات، فإنها تختلف كذلك باختلاف هذه المراحل واللحظات. ولهذا فإن كل اضافة تراثية هي نفسها موقف من اضافة تراثية سابقة عليها. وهي موضوعات لموقف تراثي لاحق عليها سيصبح بدوره موضوعا لموقف أي إضافة تراثية..إلى غير حد.

ونستخلص من هذا ثانيا: أنه لا يوجد شيء واحد أو منجز واحد من منجزات الماضي التاريخي يمكن أن نقصر عليه كلمة تراث، بل هناك إضافات تراثية متعددة، ومختلفة، ومتنوعة، فليس التراث هو التراث الديني وحده -كما يقلصه البعض- وليس هو الثقافة الرسمية السائدة وحدها، كما يقول البعض كذلك، بل هو في تقديري، منجزات لماضي كله، بكل عناصره ومحاورها الدينية والروحية والعلمية والأدبية والفنية والسلطوية والنظرية العلمية والإدارية والتنظيمية والعمرانية إلى غير ذلك.

ونستخلص من هذا ثالثا: أن العلاقة بين هذه المنجزات، أو الاضافات التراثية لا تتسم بالاستواء والتوازن أو التوازي في المستوى الأفقي بمرحلة تاريخية معينة أو لعصر أو مجتمع او جيل محدد. ولا تتسم بالاضافة التراكمية التراثية المحايدة في المستوى العمودي بين مراحل تاريخية متتابعة وإنما هي -سواء على المستوى الأفقي أو العمودي- علاقة اختلاف ومغايرة وصراع. على ان الصراع على المستوى العمودي هو بعد اساسي من ابعاد الصراع على المستوى الافقي، بمعنى أنه صراع لامتلاك الحاضر وليس صراعا لامتلاك الماضي، أي لتوظيف الماضي لصالح امتلاك الحاضر، بمنحه مشروعية عميقة تراثية تاريخية، إنها المعركة المتكررة أبدا وإن تغيرت واختلفت مضامينها دائما، المعركة بين التقليد والتجديد، بين المحافظة والتغيير. وهي في جوهرها معركة تتعلق بالحاضر، بكل حاضر، تتعلق بأبنيته وهياكله السائدة المهيمنة في المجالات الدينية والعلمية والفكرية والأدبية

والفنية والتشريعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية عامة.. وهي معركة بين الفئات الاجتماعية الراغبة مصلحيا في تكريس هذه الابنية والهياكل السائدة وإعادة إنتاجها، وبين الفئات الاجتماعية الراغبة مصلحيا كذلك في تغيير هذه الابنية والهياكل تغييرا جذريا. وإن كان الأمر لا يتم عمليا بهذا التبسيط والوضوح، فما أكثر الذين يتصورون أنهم يدافعون عن التراث لذات التراث، أو عن لحظة من لحظاته او عن موقف من مواقفه مدفوعين إلى ذلك بروح (عقدي) او قومي ويكرسون بهذا أوضاعا متعارضة مع مصالحهم وهم لا يعلمون، وما أكثر الذين يتخذون من التراث وسيلة لتغييب الحقائق، وصرف الانظار وتزييف الافكار.

ومن هذه الاستخلاصات الثلاثة تبرز الطبيعة الايديولوجية للتراث او بوجه أدق الموقف من التراث وتبرز هذه الطبيعة في رؤيتين محوريتين:

الاولى هي الرؤية التاريخية، والثانية هي الرؤية الاجتماعية، وإن تداخلت الرؤيتان في النهاية. وتتمثل الرؤية التاريخية للتراث في تحديد معنى تاريخيته، فهناك من يحدد هذه التاريخية باتخاذ منجز من منجزات الماضي في لحظة معينة من لحظات هذا الماضي، باعتباره محور اشارة ثابتة أو نقطة بدء معيارية مطلقة، يتم الحكم بمقتضاها على كل فكر وسلوك وقيمة، والتاريخ بعد هذا المحور وهذه النقطة هو انحدار متصل ولهذا تتحد مصداقية ومشروعية وسلامة أي شيء بمدى اقترابه من او ابتعاده عن هذا المحور الثابت ونقطة البدء المطلقة.

ولكن هناك من يرفض هذه الرؤية الاشارية الثابتة والمبدئية المطلقة للتراث، بل يرى التراث تاريخا متحركا متصارعا متصلا منفصلا في آن، لا يراه في منجز واحد، بل في كل منجز ماديا كان او معنويا، كما يراه في النسيج الاجتماعي الشامل، ثمرة له وقوة فاعلة فيه، وهناك من يرى التراث تاريخا متحركا متصارعا ولكن يرى فيه بنية فكرية واحدة تهيمن عليه كله.

هذا من حيث الرؤية التاريخية، أما من حيث الرؤية الاجتماعية للتراث فهي مرتبطة بتلك الرؤية التاريخية. فهناك من يرى ضرورة اتخاذ محور الاشارة ونقطة البدء نموذجا يحتذي عمليا -أي اجتماعيا- بمعنى محاولة التماثل والتطابق مع محور الاشارة، وتكرار نقطة البدء واستنافها في مختلف المظاهر الفكرية والسلوكية والتشريعية والقيمية عامة. وقد تتحرك الرؤية الاجتماعية باتخاذ المحور الثابت ونقطة البدء قاعدة، مع امكانية تأويلها تأويلا لا يخرجها عن جوهرها ولا يتعارض معها، وذلك مراعاة لتغير الظروف والأحوال وتجدد الوقائع، وبهذا تتحرك الرؤية الاجتماعية لمحاولة التوفيق والتوازن والتوازي بين محور الاشارة ونقطة البدء، وبين احتياجات الأحوال المتغيرة والوقائع المتجددة، وقد تتحرك الرؤية الاجتماعية تحركا يخرج بها من هذه التوفيقية والتوازنية. بأن تكتفي من التراث ببعض جوانبه فتختارها دون سواها مستفيدة بها فيما ينفعها في واقعها عامة؟ مكتفية بوقائع عصرها

بل مفضلة تراث الآخرين على تراثها. وقد تتحرك امتدادا لموقفها العقلاني النقدي من واقعها عامة، مستلهمة هذا الاستيعاب العقلي النقدي للتراث في استيعابها وامتلاكها وتطويرها لخصوصية واقعها نفسه.

إن هذا الاختلاف الذي نراه بين الرؤية التاريخية والرؤية الاجتماعية للتراث يؤكد الطبيعة الايديولوجية للموقف من التراث. إن الموقف من التراث، وهو بالضرورة موقف من التاريخ، وموقف من المجتمع، هو لهذا موقف سياسي عملي او على الأقل يفضي إلى مواقف سياسية عملية ذات دلالة اجتماعية محددة، وهذا هو معنى الطبيعة الايديولوجية للموقف من التراث.

هل معنى هذا ان لا سبيل إلى إدراك التراث في ذاته؟ أو بتعبير آخر لا سبيل إلى دراسة التراث دراسة علمية خالصة بعيدة عن المواقف الإيديولوجية؟

لقد ذكرت في البداية ان التراث لا يوجد في ذاته، وإنما هو قراءتنا له، وموقفنا منه، وتوظيفنا له، على أنني استدركت بعد ذلك وقلت بأنني لا أنفي حقيقته الذاتية ووجوده الموضوعي، وإن كانت هذه الحقيقة الذاتية وهذا الوجود الموضوعي مشروطين بمعرفتنا وموقفنا وتوظيفنا.. وبالتالي قصرت التراث على معرفته وتوظيفه الإيديولوجيين.

مرة أخرى هل من سبيل إلى معرفة التراث معرفة غير إيديولوجية، أي معرفة علمية؟ نعم بغير شك. إن الجهود التي تبذل في تحقيق نص تراثي، وفي نشره نشرا صحيحا دقيقا، والدراسات التي تقوم لاكتشاف أثر معماري قديم، أو لتحديد معالمه تحديدا وصفيا دقيقا بعد اكتشافه، هي جهود علمية بغير شك، وما أكثر الجهود التي بذلها المستشرقون الاجانب والدارسون العرب في هذا السبيل، تحقيقا لنصوص واكتشافا لآثار، وتحديدا لمعالم، إن العلم بالنسبة للتراث يقف عند الحدود الوصفية التقريرية الخالصة للتراث في مختلف تجلياته. ولكن عندما نبدأ في الانتقال من عملية التحقيق والوصف إلى عملية التقييم والتوظيف فإننا ننتقل مباشرة إلى أفق الإيديولوجية. اننا جميعا نحيي جهود المستشرقين في اكتشاف واستجلاء ملامح جوانب كثيرة من تراثنا الديني والأدبي والاجتماعي والتاريخي اكتشافا واستجلاء وصفيا وتقريريا، ولكن ما أكثر ما نرفضه ونعيبه بل ندينه في جهود كثير من المستشرقين في كثير من تقييماتهم وأحكامهم التي نتبين فيها الايديولوجيا الاجتماعية التي ينتسبون إليها ولا أقول الأوطان، ولا يقتصر الامر على المستشرقين وإنما يمتد بالضرورة إلى الباحثين العرب أنفسه.م ولكن لا يقتصر الأمر على الباحثين وحدهم، فقد أصبح تراثنا القديم عجينة ميسرة طيعة يصوغ منها كثير من كتابنا ومفكرينا وصحفيينا بل ومن القائمين بالسياسية، يصوغون منها ملامحهم الفكرية هم، وتطلعاتهم وممارساتهم السياسية والاجتماعية هم(4)، ويخوضون بها معارك الحاضر طلبا للمشروعية والمصداقية. وهكذا اصبح التعامل مع التراث تعاملا إيديولوجيا، وإن تراوحت واختلفت مستويات هذا التعامل الإيديولوجي بين الموضوعية والجدية والمسؤولية وبين الاستخفاف والاسفاف(5). وعن هذا التعامل

الأخير لن اتحدث. وإنما سأتحدث عن المستوى الذي يتسم بالموضوعية والجدية والمسؤولية، ففي هذا المستوى نفسه يختلف ويتراوح مستوى الاقتراب والابتعاد من الموضوعية والعلمية والدقة في التعامل مع التراث. وينبع هذا من طبيعة المرتكزات لهذه الإيديولوجية أو تلك. فرغم أن الإيديولوجية كمفهوم تتعارض مع مفهوم العلم، فهناك من الإيديولوجيات ما تقوم على مرتكزات منهجية عقلانية علمية نقدية تاريخية..وهناك من الإيديولوجيات ما تتعارض مرتكزاتها تعارضا تاما مع العقلانية والتاريخية. وهناك من الإيديولوجيات ما تتذبذب منهجيا بين هذه وتلك متخذة موقفا توفيقا او انتقائيا.

على أن هذه المواقف الإيديولوجية جميعا على اختلافها تتسلح بالتراث في معاركها الفكرية والاجتماعية والسياسية التي لا تتعلق بالماضي --كما أشرنا- وإنما بالحاضر تكريسا له أو ثورة عليه. وتحتدم هذه المعارك اليوم على أرض التراث ولكن لماذا تحتدم المعارك بوجه خاص اليوم؟ حقا إنها امتداد لحوار لم ينقطع منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى اليوم..ولكن لماذا هذا الاحتدام اليوم.. الآن؟ هذا ما ننوي الاجابة عليه في مقال مقبل إنشاء الله.

الاحالات:

1.أنظر:

*محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي (بيروت – دار الطليعة) 1980.

*محمد عمارة: نظرة جديدة إلى التراث(بيروت- المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1979م.)

*حسن حنفي: التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم(القاهرة المركز العربي للبحث والنشر 1980.)

2.محمد مصطفي الحسناوي: تراثنا وجهود المستعربين، مجلة الوحدة العدد 131، السنة الثانية عشر نوفمبر.ص63-64.

3.محمد مصطفى الحسناوي: نفس المرجع، ص67.

4.عبد الله عبد الدائم: في سبيل ثقافة عربية ذاتية -بيروت دار الآداب 1973، ص 84.

5.نفس المرجع:ص:122.

الصيغة السردية في رواية أحمد الوادى

ملامح التشكل والتعالق مع سرد الصحراء

د.محمد الامين بن مولاي ابراهيم

يطرح نص قصة أحمد الوادى(1) للشيخ مـــاء العينين شـــبيه(2)، علـــى الـــدارس للروايـــة الموريتانية قضايا فنية ومضمونة تتصل ببنيـــة الخطاب الروائي الموريتاني ودلالاتـــه، ومـــا تثيره بنية هذا الخطاب من أسئلة، تتعلق بصيغة تشكل النص الروائي الموريتاني وبالمضـــامين الروائية التي يعبر عنها. ومن القضايا الفنيـــة، التي تطرحها رواية "قصة أحمد الوادى" صيغـة تشكل الخطاب الروائي فيها، التـــي ارتأينـــا أن تكون المرتكز لوصف بنيـــة الخطـــاب فيـــها، باعتبار أن الصيغة السردية لهذه الروايـــة قـــد اتخذت في النص تشكلا محليا خاصا، نريـــد أن نتوقف عنده.

أ. الصيغة السردية في رواية "قصة أحمـــد الوادي"، وبنية الخطاب

1 .قصة أحمـــد الـــوادى وموضـــوع الحكـــي: ازدواجية الحكي

قبل أن نتعرض للصيغة السردية لرواية "قصـــة احمد الوادي" يتعين علينـــا أن نتوقـــف عنـــد موضوع الحكي في الرواية باعتبار ان القصـــة (المادة الحكائية) في هذا النص تثـــير تســـاؤلا سرديا تطرحه ازدواجية الحكي في القصة عنـــد سردها. هو ما موضوع الحكي في هذا النـــص؟ أهو قصة أحمد الوادي أو "قصة القاسم" أو همـــا معا؟ إن الانشغال بهذا السؤال من شأنه –فـــي نظرنا – أن يرفع لبسا فنيا يشعر بـــه القـــارئ لهذه الرواية، مصدره عدم تحديـــده لموضـــوع الحكي، وتمييزه لبؤرة الســـرد فـــي النـــص. فالرواية تضع قارئها في أثناء القراءة وبعدهـــا، في حالة من التوتر الفني(3) الناشئ عن عـــدم تحديد موضوع الحكي، أهو حكاية أحمد الوادي كما اختيرت عنوانا للنـــص، أو هـــو حكايـــة القاسم، كما اختيرت صيغة للتعبير عـــن هـــذه الحكاية، حيث اختار الروائي، أن يحكـــي لنـــا حكاية احمد من خلال بحث القاسم عـــن ســـر حكاية احمد الوادي كما ترويها له الشـــخصيات الثانوية في النص ومن ثم سردت في تواز مـــع حكاية أحمد الوادي حكاية القاسم: الباحث عـــن سر احمد وألغاز حكايته، ومـــن هنـــا جـــاءت القصة في رواية "قصة احمد الوادى" مركبة من حكايتين: حكاية أحمد وحكاية القاسم، لقـــد أدت ازدواجية الحكي في النص إلى خلق نوع مـــن التوتر الفني الناشئ عن ارتباك القارئ وعـــدم تحديده لموضوع الحكي في الروايـــة، وبـــؤرة السرد فيها بفعل هذا التداخل الفنـــي مـــا بيـــن مكوني القصة وبتأثير من الطريقة الفنية، التـــي سرد بها الروائي الحكايتين في النص.

تمثل إذن ازدواجية موضوع الحكي في روايـــة "قصة احمد الوادي" إحدى الملامح الفنية التـــي يتسم بها الخطاب الروائي في هذا النص، وهـــي الازدواجية التي اتخذ التي اتخذ منـــها الكـــاتب حيلة فنية لخلق نوع من التوتـــر الفنـــي لـــدى القارئ، ناشئ عن طريقة ســـرد القصـــة فـــي النص، وطريقة تشكل الصيغة السردية له.

–القصة في رواية "قصة أحمد الوادي"

تحكي القصة في هذه الرواية حكايـة شـابين أحمد و القاسم نشأ في وادي قريب مـن مدينـة أطار وتعلما في المـدارس النظاميـة وأتمـا دراستهما الجامعية و العليا في الخـارج، درس الأول (احمد) القانون و الشريعة بالمغرب وأكمل دراسته العليا بمصر وطاف بالعديد من الـدول العربية و الغربية و عمل بالاذاعـة البريطانيـة، قبل أن يعود إلى بلده. ودرس الثاني (القاسـم) الاقتصاد باسبانيا وحصل على دكتـوراه فـي الاقتصاد من جامعة برشلون.

وبعودتهما إلى الوطن اختار أحمد حياة الريـف و العيش بالوادي و اختار القاسم حيـاة التمـدن و العيش في المدينة و إن ظل يحن إلـى حيـاة الوادي، كلما سمع اخبار نجاح احمد في تنظيـم حياة اهل الـوادي و اعتمـادهم علـى سياسـة الاكتفاء الذاتي ورفضهم لحياة المدينة.

يبدأ زمن القصة بانغماس كل من الاثنين فـي حياته، التي اختارها، لينتهيا في نهايـة النـص إلى طريق مسدود، فأحمد ــ بعد ان ينجح فـي تنظيم حياة أهل الوادي وتأطيرهم فـي خلايـا تعمل على تحسين أحوالهم و الاستغناء عن نمـط حياة التمدن، وتحصينهم من المدينة وأضرارهـا ــ تنقلب عليه سيارة كانت متعطلة على جـانب الوادي فترديه قتيلا، وبوفاته يتفكك النظام الـذي أقامه ويهجره اهله إلى المدينـة. امـا القاسـم فينغمس في حياة المدينة وترف اهلـها ويتقلـد مناصب مهمة في الدولة قبل ان يختـار حيـاة الأعمال الخاصة و التجـارة الحـرة ويكـدس اموالا، لا ينفق منها على أمه وأخته ويبذرهـا في رغباته و اهواء زوجته، ولكنه فـي إحـدى زياراته للوادي، لتفقد واحات نخيلـه، ينبـهر بالتغير الذي طرأ على الوادي و اهله بعد مجيء أحمد. فتسكنه رغبة اكتشاف سر احمد، ويبـدأ في البحث عنه، وفي أثناء ذلك يقبـض عليـه القضاء الاسباني وهو في زيارة "لجزر الكناريا" بتهمة الاحتيال علـى امـوال بطريقـة غـير شرعية، فتصادر أمواله ويحكم عليه بالسـجن عشر سنوات في المنفى، يفقـد فيـها زوجتـه وأهله، وفي السجن يكتشف حقيقة زوجته، التـي تخلت عنه وتزوجت من من كان يظنـه اعـز أصدقائه، ويراجع ذاته، فيندم على مواقفه مـن أهله وحياة اللهو و الاسـتهتار التـي عاشـها، ويصلح حاله ويعزم على ان يغير مـن حالـه بالعودة إلى الـوادي و إكمـال مسـيرة احمـد الوادي، الذي كان يتابع اخبـاره مـن خـلال مراسلة صديقه "مختار".

وبخروجه من السجن يستقل القاسم اول طـائرة عائدا إلى نواكشوط ويهرع إلى الوادي وقد خلا من اهله، إلا من العجوز "دوامـة" وعشـيقته القديمة، التقية، اللتين قررتا البقـاء بـالوادي، وبوصوله إلى أطار يلتحق بالاثنتين ليبدأ معهما حياة جديدة، وتنتهي الرواية بمخاطبته للعجـوزة قائلا: "انا لاحق بك انت و التقية لأعيش معكمـا وحدتكما وآوي إلـى مكـان يعصمنـي مـن المدينة"(4).

تمثل حكاية أحمد الوادي وحكاية القاسم المـادة الحكائية لرواية "قصة احمـد الـوادي"، فـهي تتألف من حكـايتين: "حكايـة احمـد الـودي" و"حكاية القاسم" و المتتبع للكيفية التي سرد بـها الراوي هذه القصة، يلاحظ أنـها تـروي مـن منظورين متباينين، فهي تبـأر مـن موقعيـن مختلفين: موقع أول التبئير فيـه يضطلـع بـه الراوي، يحكي منه حكاية بحث القاسم عن سـو أحمد، وموقع ثان تقوم بالتبئير فيه شـخصيات

من النص. تحكي للقاسم حكاية احمد. لذلك جاءت القصة في هذا النص مروية من موقعين متباينين ولمرويين لهما مختلفين: الاول منهما غير محدد (القارئ) والثاني محدد ومعروف (القاسم)، لان القاسم لا يتعرف على قصة أحمد الوادي إلا من خلال ما ترويه له شخصيات في النص أثناء جلوسه إليها، عند زيارته للوادي، او عبر المراسلة بعد دخوله السجن.

على هذه الكيفية تسرد القصة في النص، ويتم تقديمهما، وهي الكيفية التي شكلت خطابه الروائي على نحو معين، جعلت صيغته السردية تتشكل على هيئة خاصة نريد هنا أن نصفها، ونربطها بالنصوص الخلفية المشكلة لها.

2-الصيغة السردية طريقة في تنظيم الخبر السردي:

تعني الصيغة السردية عند السرديين "طريقة تمثيل الأحداث او تقديمها بواسطة اللغة"(5) في النص، ومن ثم كان الكشف عن هذه الطريقة عند هؤلاء يعني وصف الكيفية التي نظم بها السارد الخبر السردي في الرواية، سواء اكان هذا السارد راويا ام شخصية روائية في النص، وقد اعتبر السرديون ان الصيغة السردية تتحقق في النص من خلال المزاوجة ما بين صيغتي العرض Représentation والسرد narration بمختلف تنويعاتها الصيغية؛ ففي العرض تحكي حكاية الاحداث (6) وفي السرد تحكي حكاية الأقوال(7)، في الأولى يتخلى السارد عن وظيفته، التي هي اختيار الحكاية وتوجيهها، يخضع لسيطرة الواقع، ولسيطرة حضور ما هو موجود، وما يقتضي ان يعرض.(8) وفي الثانية (السرد) يحضر السارد وبدرجات من الحضور متفاوتة، لأن خطاب الشخصية في حكاية الأقوال يسرده الراوي ويعيد إنتاجه "فهو يعتبره حدثا من بين احداث أخرى، ويضطلع به هو نفسه بصفته كذلك"(9). على هذا النحو تتنوع طرائق القص في النص السردي وتتعدد طرائق تنظيم الخبر السردي فيه بحسب علاقة السارد بمسروده، لحضوره فيه او غيابه منه. فالعرض طريقة في القص تقوم على "إنساء أن السارد هو من يقص الأمر الذي يتأتى عنه"(10) مبدآن رئيسان للعرض هما هيمنة المشهد وشفافية السرد (الكاذبة بتعبير جنيت) والسرد طريقة في القص تقوم على درجات من حضور السارد متفاوتة، وهو التفاوت الذي يؤدي إلى تنوع سرد حكاية الأقوال في النص السردي وتعدد صيغه.

وقد ادى تمييز السرديين في الصيغة السردية، بين "حكاية الأحداث" وحكاية الأقوال "إلى إقامة تصنيف سردي آخر للخطاب الروائي يقوم على التفريق ما بين " نص الشخصيات" (خطاب الشخصيات) و"نص الراوي" على اعتبار ان الأول ينشأ عن صيغة السرد وطريقة حكي الأقوال، وان الثاني ينشأ عن صيغة العرض وطريقة حكي الأحداث. ومن هنا تنوعت الدراسات السردية في تعاملها مع الخطاب الروائي ومكوناته الصيغية، ولغاية منهجية تتعلق "بمبدأ الملاءمة بين المنهج والنص المقارب، والذي نحرص على التمسك به كلما تعددت الخيارات"(11)، نتبنى هنا الخيار السردي الذي لا يميز في الخطاب الروائي بين حكي الأقوال وحكي الأحداث، كما يفعل اغلب السرديين على اعتبار الاول خاصا بالشخصيات

والثاني بالراوي(12) لحضور الصيغتين في أي خطاب وبمختلف الاشكال الممكن تصورها. لذلك نتبنى مع سعيد يقطين تحديده للصيغة السردية المنطلق "من معاينة كيفية اشتغال هاتين الصيغتين داخل الخطاب الروائي، ومن خلالهما كيف تقدم القصة، بدون تمييز بين الراوي والشخصيات"(13). لما سيتيحه هذا الاقتراح (دمج نص الشخصيات أو حكي الأقوال ونص الراوي او حكي الاحداث في نص واحد) من إمكانية "التميز بين الخطابات المستعملة في الخطاب الروائي من خلال الخطاب ككل وليس من خلال حكي الأقوال فقط"(4)، ومن هنا نعتبر الصيغة السردية "أنماطا خطابية يتم بواسطتها تقديم القصة"(15)، ومن ثم فدراستها تتم بالتركيز على علاقات هذه الخطابات أيا كان مرسلها (الراوي او الشخصية الروائية) وتحديد نوعيتها في النص.

وقد ميز السرديون في تحديدهم للانماط الخطابية، التي تقدم بها القصة في النص بين ثلاثة أنماط اعتبروها المشكل العمدة للصيغة السردية هي:

أ-الخطاب المسرود: وهو خطاب يرسله المتكلم، وهو على مساحة مما يقوله، يتحدث فيه إلى "مروي له سواء كان هذا الملتقى مباشرا (شخصية) أو إلى المروي له في الخطاب الروائي بكامله"(16).

ب-الخطاب المعروض: وهو الخطاب الذي نجد فيه "المتكلم يتكلم مباشرة إلى متلق مباشر، ويتبادلان الكلام بينهما دون تدخل الراوي"(17).

ج-الخطاب المنقول: وهو نمط من الخطاب وسط بين المسرود والمعروض "لأن المتكلم لا يقوم فقط بإخبار متلقيه بشيء عن طريق السرد او العرض، ولكنه أيضا ينقل كلام غيره سردا او عرضا". ومن خلال هذا النمط نصبح أمام متكلم ثان ينقل عن متكلم أول"(17).

هذه الخطابات الثلاثة لها تنوعاتها الفرعية المشكلة للصيغة السردية لم نذكرها هنا، تتحدد ببعد المسافة او قربها، التي يتم من خلالها الحكي.

- يتواصل-

الهوامش:

1.صدرت عن دار الفجر، أبوظبي، 1986.

2.كاتب موريتاني عمل في السلك الدبلوماسي الموريتاني وعين سفيرا في دولة الامارات، التي أصدر فيها روايته الوحيدة "قصة احمد الوادي".

3.أشار محمد الحسن ولد محمد المصطفى إلى مظاهر هذا التوتر عند دراسته للزمن في هذه الرواية، أنظر: الرواية العربية الموريتانية: مقاربة للبنية والدلالة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص/96.

4.ازدواجية الحكي في "قصة احمد الوادي" شبيهة بوضع الحكي في "موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، حيث نجد حكاية "مصطفى سعيد" من جهة وحكاية الراوي.

5.احمد الوادي "مصدر مذكور سابقا، ص/88.

6.G.Genette, introduction à larchitexte, seul, 1986, p/147

7.جرار جنيت خطاب الحكاية: بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وآخرين، الدار البيضاء، 1996، ص/180.

8.جنيت: المرجع السابق، ص/183.

9.جنيت المرجع السابق ص/180.

10.جنيت: المرجع السابق ص/185.

11.جنيت: المرجع السابق ص/181.

12.محمد الأمين مولاي ابراهيم: "بنية الخطاب ودلالتها في رواية القبر المجهول او الاصول" المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1999، ص/125.

13.سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989، ص/194.

14.سعيد يقطين: المرجع السابق ص/195

15.سعيد يقطين: نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

16.نفس المرجع ص/196.

17.سعيد يقطين: الخطاب الروائي، مرجع سابق ص/197.

18.نفس المرجع ونفس الصفحة

الاصلاحية والاستعمار في موريتانيا

حماه الله ولد السالم
قسم التاريخ - جامعة انواكشوط

مقدمة:

في مطلع القرن العشرين بدا وكان السجال بين الفقهاء المحليين بشأن الاستعمار، قد كاد يحسم لصالح الذين قبلوا بالعيش في ظل الاجنبي.

والظاهر ان هذا التوجه لم يكن وليد اللحظة الاستعمارية، بل كان صياغة دينامية "للنظر النوازلي" الذي سبق وأن قبل بحكم المتغلب الحسني بالرغم من استغراق ذمته، وذلك ضمانا للتوازن داخل المجتمع الاهلي، وتطويعا للمشاغل المتولدة من إكراهات التعامل التجاري مع النصارى على السواحل غربا، والوثنيين في التخوم السودانية شرقا. إلا أنه ينبغي التساؤل عما إذا كان الخطاب الاصلاحي المحلي قد طور رأيته إلى المستوى الفكري التجديدي النهضوي الذي بشر به كبار المصلحين في المشرق العربي. ام أنه لم يكن يتحرك ضمن آفاق مستقبلية نهضوية بالمعنى الحديث للكلمة، بل ظل يتحرك في دائرة القديم وضمن إشكالياته الدينية والسياسية، كحال الروى السلفية التقليدية(1).

I .السلفية الجديدة:

كان الشعور بتفوق الاسلام قائما في النصف الأول من القرن 19، ورافقه الاعجاب بقوة الغرب علميا وتقنيا وكان هذا اتجاه دعاة الاصلاح الأولين.

فقد ظهر في الخط الاسلامي من أراد بث الوعي الاسلامي في الامة الاسلامية، وتحقيق التعاون بين الحكام المسلمين، لمواجهة الغزو الغربي، ولمكافحة آثاره الاجتماعية من مادية وتحلل، وكان من ابرز اصحاب هذا الخط، الشيخ جمال الدين الافغاني، وتلاه ظهور اتجاه يدعو إلى الاصلاح بالتأكيد على الأصول وعلى ملاءمة الاسلام لتطور الحديث، وفتح باب الاجتهاد والتوسع فيه وإعطاء بعض المفاهيم الاسلامية معاني حديثة وبيان اهمية العلم الحديث وضرورة الاخذ منه، ويرافق ذلك التأكيد على العربية وتراثها الحي . ويمثل هذا الاتجاه محمد عبده وجماعته(2).

-الأفغاني(1839/1897م): اعتبر ان المشكلة السياسية تتلخص في تصحيح البنية الفكرية التي انحرفت عن مسارها الإخلاقي والسياسي، وخضعت لتأثيرات غريبة على الفكر الإسلامي. مثل الانكار والميل إلى الجبر، والايمان بالقضاء والقدر على غير الوجهة الصحيحة، وغير ذلك مما أبعد الإسلام عن أصوله وجذوره(3).

-محمد عبده(1849/1905م) لم يخرج عن الاطار العام لفكر جمال الدين الأفغاني إلا أغناه ووسعه وقدمه في صورة متكاملة مع تركيز على الاصلاح الديني أكثر من العمل السياسي. ويقوم إصلاح الدين عنده على تخليصه مما لحق به من أفكار غريبة عنه وتحريره من قيود الخرافات وأغلال الجمود. وبذلك يتسع لمتطلبات الحياة العصرية التي انتشرت وتوسع انتشارها حتى بات لا يمكن تجاهلها، وكان على وعي بأنه إذا لم تحدث إصلاحات في

الفكر الديني فإن هذا الفكر لن يستطيع الصمود أمام القوى الخارجية(4).

وقد أضحت آراء هذين المصلحين رائجة منذ بعض الوقت في أمصار الإسلام، ولا سيما من خلال صحيفتهم الشهيرة"العروة الوثقى"، الأمر الذي ساهم في تعميق الاتجاه السلفي الجديد في النخبة المحلية.

ويكشف وجود أعداد من مجلة العروة الوثقى في مكتبة آل الشيخ سيديا بأبي تلميت، عن اتصال وثيق مع أفكار هؤلاء المصلحين ولو من طريق غير مباشر. وبالرغم من أنه لم يصدر من هذه المجلة سوى ثمانية عشر مجلدا، فإنها لقيت رواجا شديدا. وقد كانت معظم صفحاتها مخصصة لتحليل سياسة الدولة الكبرى في العالم الإسلامي، وبنوع خاص سياسة انكلترا في مصر والسودان كما عالجت موضوع ضعف الإسلام الداخلي وحثت المسلمين على التنبه له ومداواته(5).

ومع اطلاع الشيخ سيديا بابه على أفكار كبار المصلحين، إلى أنه لم يستنسخها حرفيا بل رأى خصوصية واقع مجتمعه البدوي، والتزم نوعا من التدرج في نقد الطروحات الفكرية التي يصدر عنها فقهاء البلاد.

ولم يخرج فكر الشيخ سيديا على مبادئ الفكر الاصلاحي الإسلامي الرائج آنذاك، بل إنه التزم تجديد الدين حيث قام باحياء السنن التي أميتت في محيطه الجغرافي مثل: سنة القبض والرفع، ولزوم فاتحة الكتاب للمأموم، والعمل بالصلاة على الجناب النبوي من خلال تأصيلها في أمهات كتب الحديث.

بالاضافة إلى مناداته برفض الشعوذة والدجل وأفكار التواكل والخمول، وهو في كل ذلك يمتح من مشرب فكري يصب في مهيع الاصلاح الديني كما نادى به الأفغاني وعبده(6).

ويكشف رأيه في الجهاد والمقاومة عن التزامه الخط الاصلاحي الذي يعطي الاولوية لتحقيق السلم والتطور الاجتماعيين، ضمانا لمصالح جماهير المؤمنين أمام تيار التحديث الغربي الكاسح منذ القرن التاسع عشر.

فهو يقول بهذا الخصوص: "إن الجهاد وسيلة مقصدها إعلاء كلمة الله تعالى وأن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها لم تشرع فإذا تحقق أو ظن عدم..سائر أسباب القوة فقد تحقق أو ظن أن الثمرة إنما هي خلاف مقصد الجهاد وبذلك تصير دماء المسلمين واموالهم وحريمهم ضائعة..هذا إلى ما يترتب عليه من جعل اهل الفساد له ذريعة إلى استئصال شأفة المسلمين.."(7).

ولعل الشيخ سيديا باب في هذا الباب كان أقرب إلى أفكار محمد عبده منه إلى طروحات جمال الدين الأفغاني التي اتسمت بنفس ثوري واضح، أما محمد عبده فقد قام منذ أن أصبح مفتيا لمصر سنة 1899م، بكثير من الإصلاحات في المحاكم والأوقاف، كما ساعدت فتاويه في الشؤون العامة على تفسير الشريعة تفسيرا يتفق مع الصالح العام مع مراعاة الضوابط الشرعية في هذا الباب.

ويكشف الشيخ سيديا باب في كتابه الشهير: إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين، عن توجه متدرج إلى الاجتهاد وبناء النظر الفقهي على أساس مكين من الأصول كتابا وسنة.

فهو يقرر أن الاولى(للمقلد لأحد الأئمة الأربعة إذا وجد خلاف إمامه عند أحد الأئمة الثلاثة في

مسألة وتبين له رجحانه على مذهب إمامه في تلك المسألة بموافقته للقرآن أو السنة الصحيحة المخرجة في الصحيحين او في أحدهما أو نص الترمذي مثلا على صحتها، ولم يجد مثل ذلك لإمامه..أن يعمل بما تبين له رجحانه إن كان متحريا للحق)(8) وهي دعوة صريحة إلى التخلي عن الجمود النصاني، تساق في ثوب صفيق من تأصيل المالكية، تمهيدا لنقد الانغلاق المذهبي سيرا نحو إعلان التجديد الشامل.

وتظهر نزعات الرجل الاجتهادية في تأكيده على ضرورة مراعاة الواقع وشروطه، مثال ذلك قوله في رسالة مؤرخة ب 1327هـ، مخاطبا الفقيه ابن حبت الغلاوي وكان نادى بالجهاد والهجرة: (لا يخفى علي أنك لم ترد بهذا الأمر أكل مال ولا اكتساب منزلة ولكن أرى أنك لم تمعن النظر في أحوال الزمان..)

كما يكشف خطابه بشأن ضرورة الاستفادة من علمانية الدولة الفرنسية، عن وعي حصيف بخصائص العلاقة بين السلطة والمجتمع عموما وشروطهما التاريخية في الحضارة الغربية ولا سيما مسألة الفصل بين الدولة والدين التي كانت حجر الزاوية في تحديث المجال السياسي الأوربي في القرون الماضية.

فهو يقول في نفس الرسالة:"إنه قد تقرر في قوانينهم[الفرنسيون] المتفق عليها منذ حين عدم التعرض لأحد من أهل الأديان كائنا من كان وأن من تعرض لصاحب دين من المسلمين أو غيرهم يعاقب عقوبة شديدة، وشاهدنا مصداق ذلك. وقد رأينا من أسلم من الفرنسيس وغيرهم في اندر واندكار لا يعرضون له بقليل ولا كثير بل يكادون تكون النصرانية وسائل الملل عند جمهورهم الآن سواء بل عونهم على إظهار شعائر الاسلام ببناء المساجد وإقامة الأئمة فيها والمؤذنين والقضاة والمدرسين وإجراء أرزاقهم من بيت مالهم كل حين"(9).

ومن الممكن ان يكون الشيخ باب قد اطلع على مثل هذه الوضعية في مستعمرة السنغال المسلمة، لكن الأبعاد النظرية لخطابه هنا تكاد تكون وليدة قراءة متمعنة في فكر إصلاحي منسجم، وذلك بحكم أحادية اللغة لدى الرجل، وبحكم اتصاله بأفكار المصلحين عبر الجرائد والمطبوعات التي تصله من خلال الحجاج او من خلال الاتصال المباشر بكبار المصلحين المغاربة من أمثال أبي شعيب الدكالي(1837-1878م) والذي اتصلت بينه والشيخ باب بعض المراسلات الاخوانية منها رسالة نادرة مؤرخة في 4 جمادى عام 1345هـ، ونصها(10):

"من عبد ربه أسير ذنبه أبي شعيب بن عبد الرحمن الدكالي إلى الشيخ البركة الملحوظ في السكون والحركة سيدي بن محمد سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركته أما بعد فقد وصل كتابكم وبه ذكرتم ان حضرة حاكم افريقية أخبركم أني قائم بأمور المسلمين وأنكم فرحتم بذلك جزاكم الله خيرا لما قد علمتم أن النبي عليه السلام قال المسلمون كجسد واحد..إلخ. وأما وأنتم فجعلنا الله من المستظلين بظل الله يوم لا ظل إلا ظله متحابين فيه وختم لي ولكم بما ختم به لأوليائه المتقين..". وهي بخط الشيخ الدكالي.

ولعل هذه الصلة قد تعززت بحكم تشابه أفكار الرجلين ومواقفهما بشأن الاستعمار والاصلاح حيث كان الدكالي صاحب موقف مسالم نسبيا، لسلطات الحماية الفرنسية، إذ كان يرى فيما يبدوا أن النهضة والاصلاح يجب ان يبدأ

بإصلاح حال الدين ونشر الخلقية الاسلامية السلفية في جسم المجتمع المسلم حتى يتهيأ، بعد وقت للنهوض ضد المستعمر(11).

ولا يبعد ان يكون الدكالي قد تعرف على الاصلاحية الموريتانية وأقطابها، من خلال اتصاله بالموريتانيين المقيمين بالمشرق، حيث سبق لأبي شعيب ان أمضى أكثر من عشرين سنة يدرس بالأزهر على شيوخ منهم البشري ومحمد عبده والشيخ الشنقيطي محمد محمود بن التلاميد(ت.1905) (12).

2.الاصلاحية والاحياء الثقافي:

لم يلبث رواد التيار المعارض للاستعمار ان اكتشفوا في المهاجر المشرقية سيطرة التيار الاصلاحي الاسلامي، كما لاحظوا الوضعية المقبولة، نسبيا، التي يعيشها سكان البلاد المحتلة، رغم وطأة الاجنبي. الأمر الذي عزز قناعتهم بصوابية الأفكار المهادنة التي رفضوها وهم لا زالوا في مواطنهم الأصلية، بل إن بعضهم قد أعلن تخليه عن معارضة الاستعمار واندمج في المشاغل النهضوية المشرقية وصار يراسل دوريا نظراءه في موريتانيا، بما يستجد من أحوال الفكر والسياسة في المشرق والمغرب، وفي مقدمتها دعوات الاصلاح والنهضة. ويكشف عمق اطلاع الشيخ باب على أحوال البلاد الإسلامية ووضعية سكانها وعلاقتهم بالاجنبي، مدى انفتاحه على مختلف القنوات الاتصالية الممكنة لمن هم في مثل موقعه ومشاغله، يتضح ذلك من حديث يقول: "وقد علمنا حال المغرب الأوسط المعروف بأرض الجزائر وقد ملكه الفرنسيس منذ نحو سبعين عاما وحال تونس وقد ملكوها منذ نحو ثلاثين سنة وحال اتوات وسائر التكرور، وقد علمنا حال مصر والهند وجاوه وهوص بعد ملك الانكليز لها فلم يزل الدين قائما في هذه الأصقاع واهله في عافية.."(13).

وهو وعي اصلاحي عززته المراسلات التي كانت ترد إلى الرجل من قبل تلامذته وزملائه المقيمين خارج البلاد.

ففي رسالة من الشيخ محمد حبيب الله بن ميابى الجكني جاء ما معناه انه اكتشف صوابية فكر الشيخ سيدي باب واستشعر بعد نظره فيما ذهب إليه من توطيد السلم والسعي في مصالح الناس.

كما كانت ترد إليه رسائل من الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي الذي كان مقيما بالقاهرة، وكان صديقا لمحمد عبده، بل يذكر انه كان يصحح له تصانيفه وخطبه ويجادله في أفكاره الإصلاحية والعلمية. كما كان الشنقيطي أحد رواد الاتجاه الفكري الذي ساد في المشرق ملتقى القرنين الماضيين ومهد للنهضة العربية، بما نشره وحققه من الامهات وبما بثه من أفكار تجديدية اعادت إلى الحياة الثقافية في المشرق ما بعدت عنه من روح النقد والمراجعة(14).

وكان ابن التلاميد يراسل الشيخ باب دوريا بما استجد من مباحث الفكر والادب ويحفه بالجديد من التصانيف والنشورات.

وبذلك كان الشيخ سيديا باب على صلة متجددة بحركة الإحياء الثقافي التي سادت في المشرق العربي وبثت روح تطوير النثر والكتابة وتجديد الشعر العربي القديم وكذا تجديد مباحث اللغة وعلوم العربية الأمر الذي ساهم في دفع الشيخ سيديا باب إلى زعزعة الاطمئنان المنهجي لدى نخبة البلاد الموريتانية في ميادين التراث العربي ولا سيما في قضايا التجويد ومباحث النطق الصحيح وأسسها اللغوية

والفقهية، كما سمحت له تلك الروح النهضوية بالانفتاح على كبار المستشرقين من أمثال هوداس الذي سبق أن حقق كتاب تاريخ السودان للسعدي وغيره من أصول التاريخ المحلي.

ولم يكن الشيخ سيد باب بدعا من علماء البلاد في الاطلاع على أحوال النهضة والاجتماع والسياسة بالمشرق. بل ضاهاه في ذلك فقهاء كبار من أمثال القاضي الشهير السالك بن باب العلوي، والذي كانت تصله دوريا من أحمد بن الأمين رسائل حافلة لمختلف الأحوال السياسية والعلمية ومن ذلك الرسالة المؤرخة بعشر جمادى لسنة 1321هـ وفيها يتحدث ابن الأمين عن أمر الحج وتيسره قائلا(15):"إن الحج لا ينضبط أمره والأغلب فيه منذ خمس سنين عدم الأمن.." ويشرح ذلك لكون قبائل العرب كانت تنتفض على ولاة الأتراك إذا تأخرت الإعطيات الممنوحة من أمير مصر وأمير تونس والسلطان العثماني، او تحايل عليها الممثلون المحليون للباب العالي، إضافة إلى الضغوط المكثفة من الشريف عون أمير مكة على الأعراب (ذلك أنه يحجر عليهم ألا يكتروا جمالهم بالحجاج من مكة إلى جدة إلا بأجرة عظيمة وينزع منه ثلاثة أرباعها ومن مكة إلى المدينة كذلك).

ثم يفيد بتوجسه من تعذر الحج في العام الموالي نتيجة لصراع الاشراف، ويشير إلى أن تردي الاوضاع دفع اهل مكة إلى درجة أنهم (يضرعون الله) بأن يملك عليهم النصارى لما نالهم من ظلم الريف، وأن صراع الأتراك في المدينة يكاد يؤدي إلى نفس النتيجة.

ثم يشرح صراع المسلمين والنصارى في بلاد الشام ويمتدح شجاعة المسلمين في بيروت إبان صدهم لهجمات المارونيين. ثم يجمل في الحديث عن أحوال العراق وعن حروب نجد بين ابن الرشيد وابن سعود، ثم يشير إلى اليمن وصراع اهل البادية فيها مع العثمانيين ويشير إلى التدخل الانكليزي لدعم أولائك وتحريضم على الثورة ضد بني عثمان.

ثم يعرج على مصر ويقول"انها تحت حكم الانكليز واهلها في غاية الراحة والأمن إلا أن الشريعة فيها قد تركت سدى.." في اشارة إلى تجذر العلمنة التي قاومها الأزهريون.

ثم يعرج على وفاة بلديه محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي ويكشف عن الظروف التي اختفت فيها بعض أجزاء مكتبته الحافلة ويلقي بالائمة في ذلك على محمد عبده، ويشير إلى أنه كانت بينهما جفوة بفعل صراع لم يوضح أسبابه، ويختم بالقول إنه استطاع إنقاذ ست مائة كتاب من مكتبة الشنقيطي صفت في دار الكتب التي كانت تسمى آنذاك الكتبخانة الخديوي.

ويختم الرسالة بالحديث عن حال النشر والطباعة في مصر، متحدثا عن تعذر طباعة مدونة الامام مالك التي يبدوا أنها كانت مطلوبة من مراسله في موريتانيا. ويشير إلى مصنف الحطاب وانه تعذر طبعه كالمدونة لغياب العائد المادي الذي يصد الناشرين عن طبعه.

ثم ينبه إلى ما سمعه من قرب صدور المدونة عن المطبعة المصرية، بعد ان تدخل هو شخصيا لدى الجهات العليا.

وفي رسالة أخرى(16) من ابن الأمين إلى القاضي السالك، يحيطه علما بأحوال المغرب، ويتحدث عن وضعية ساكني المدن وأهل الجبال

في نوع من التدقيق اللافت للانتباه، ثم يشير إلى وضعية طنجة في ظل وجود القناصل الدوليين، وصراع السلطان عبد العزيز مع الثوار في مناطق الأطراف.

ثم يقدم ملاحظات طريفة لا تخلوا من دقة حول حفر قناة السويس ثم يعرج على أحوال الصراع التركي في المدينة مشيرا إلى التطورات التي جدت بشأنها بعد الكتاب السابق الذي ارسله إلى ابن بابه العلوي ثم يسرد بدقة أحوال الحج ومسالكه وصراع العساكر مع قبائل الاعراب ومع ابن سعود، ثم يختم بما بلغه من اخبار صراع السلطان عبد الحميد مع البلغاريين ويتحدث عن رأيه الشخصي في مستقبل ملكه.

وبمثل هذه الاتصالات وشبهها كانت النخبة الموريتانية على اطلاع مقبول على احوال البلاد الاسلامية وعلاقتها بالأجنبي وببقايا الحكم التركي، وكذا الأمر بالنسبة لتيار الاصلاحية المشرقية ومشاغل النهضة العربية، الامر الذي عمق من فهمهم للظاهرة الاستعمارية وتوابعها مما سيمكن الجيل الموالي من بناء مقاومة ثقافية صلبة ستؤكد على انه بالرغم من التقهقر امام مدافع الاستعمار فإن هزيمة العقول والقلوب لم تحدث وبذلك تحولت الهزيمة إلى نصر مؤزر.

الهوامش:

1.لم تسمح لنا الظروف بالاستفادة من الأعمال الهامة التالية:

-على او مليل، الاصلاحية والدولة الوطنية.

-خالد زيادة، كاتب السلطان، حرفة الفقهاء والمثقفين(لندن-قبرص، 1991)

-جران(بيتر)، الجذور الاسلامية للرأسمالية، للقاهرة، 1991.

2.عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية،1990 ص142.

3.معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، الكويت، عالم المعرفة،ص227.

4.م.س، ص229-230.

5.البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1898-1939 . دار النهار1977، ص:138-139.

6.حوراني، الفكر العربي، الفصل الخاص بمحمد عبده.

7.رسالة إلى ابن حبت الغلاوي في أدرار، مخطوط ملحق بمذكرة تخرج للسيد موسى بن اروبي، عن الشيخ سيديا بابه وأدواره، كلية الآداب،1995.

8.ط.المنار، تونس،(1308هـ/1961م)، ص:3.(من المقدمة)

9.رسالته إلى ابن حبت، م.س

10.صورة عن أصل الرسالة المحفوظ في مكتبة آل الشيخ سيديا.

11.راجع محمد عابد الجابري، المغرب المعاصر..،المركز الثقافي، الدار البيضاء، 1988، ص:23.

12.عبد الملك مرتاض، الثقافة الجزائرية بين التأثير والتأثر.

13.رسالته إلى ابن حبت،م.س.

14.راجع، حماه الله ولد السالم، الشناقطة في المشرق العربي، مجلة آفاق الثقافة، مركز جمعة الماجد،1999.

15.رجعنا إلى نسخة السيد/أحمد يحي، رئيس قسم المخطوطات، دار الثقافة، انواكشوط

16.رجعنا إلى مصورة السيد/بابه بن هارون القيم على مكتبة آل الشيخ سيديا بأبي تلميت-موريتانيا.

حول نظرية النسبية لدى آلبير آنشتاين

يعقوب ولد القاسم
كلية الآداب-جامعة انواكشوط

مقدمة:

لا نرمي من خلال هذا المقال اعطاء تعريف معجمي لمفهوم الابستمولوجيا أو تقديم تصور عام لهذا المصطلح الذي يعد حديث الاستعمال نسبيا،اذ يرجع إلى القرن العشرين والفلسفة الفرنسية التي احلته محل التصور السابق لفلسفة العلوم كما استعمله كما استعمله كومت وكورنو. إنما نريد فقط ان نقوم بحصر بعض المنعطفات الكبرى التي شهدها العلم لنبحث عن سمات الجدة التي حملتها باعتبارها محاولات للشك ولزعزعة المعتقدات التي ارتكزت عليها المعرفة العلمية والتي كانت فيما مضى مطلقات لا يرقى إليها الشك. فإذا كانت الابستمولوجيا تعني "علم العلم" فلن نسعى هنا إلى أن نقدم مقالا حول هذا العلم، وإنما سنحاول عرض المهمة التي أرجعت إلى التفكير الابستمولوجي وهي البحث في القيم الابستمولوجية التي تنطوي عليها هذه الثورة العلمية او تلك. وبما ان كل هذه الثورات في تاريخ العلم قامت إثر محاولة إعادة النظر في المرتكزات الميتافيزيقية، التي كانت تتحصن وراءها النظريات العلمية والتي بدت في البداية وكأنها مألوفة وبديهية ومطلقة، وسرعان ما كشفت الثورات العلمية عكس ذلك؛ فإن هدفنا سيتجاوز ما حققه ديكارت وكانط وباشلار ونيوتن واكلود برنار، وسينصب اهتمامنا على ثورة آنشتاين لأنها هي التي تأكد من خلالها ان مهمة مطاردة الأوهام الميتافيزيقية ظلت رغم الثورات العلمية السابقة راسخة في المعرفة العلمية، وأن جانب الجدة في هذه الثورات والاكتشافات العلمية هو الذي يغذي التفكير الابستمولوجي. ومن ثمة يكون بمثابة إعلان جديد لميلاد الفلسفة من حيث علاقتها بالعلم المعاصر لها.

النظرية النسبية لدى آنشتاين:

لقد شهد مطلع هذا القرن ثورة فيزيائية خطيرة، دشنتها اغرب نظريات العلم المعاصرة واكثرها عداء للبداهات، ورفضا للأفكار المعهودة والمألوفة والمتداولة. وربما أدى هذا إلى ان نظرية النسبية التي وضعها (Albert Einstein 1879-1959) اتهمت في اول الامر بكونها نظرية "تافهة" ولا تستحق الاهتمام، فاستهجنت بل ورفضت، لا لشيء إلا لأنها ترفض المتداول والمألوف والمعهود وتشك في نتائج الادراك Perception والملاحظة observation أو تنزع عنها صفة اليقين وتقرنها بالقياس. إنها لا تعتبر وجود معيار واحد ثابت ومطلق، نستطيع بفضله تحديد شيء ما من الأشياء مثل السرعة والمسافة والتزامن، فهذه كلها يجب ان تتحدد بالقياس إلى شيء ما أي تبعا لمنظومة اسناد ما. لذلك فإن آينشتاين يرى ان قبول التعريف الشائع الذي مفاده: "أن نسعى إلى وصف كيفية تغيير الاجسام لموقعها في المكان خلال الزمن من دون تفكير جدي ونقدي يسبب اثقال الضمير بخطايا عظيمة ضد روح الوضوح المقدسة"(1). هكذا إذن بين آينشتاين بأن إزالة

الغطاء عن تلك الخطايا يتمثل في اشهار مبدأ عدم إزالة وضوح ما نقصده بكلمات مثل: "الموقع و المكان و السرعة، و التي يستحيل علينا ان نكون عنها ابسط الافكار ما لم نتمكن من تحديد منظومة الاسناد التي نلاحظها منها"(2). الظاهر إذن أن الميكانيكا لم تعد تقدم اساسا كافيا لوصف كل الظواهر الطبيعية(3). هذا هو الشعور الذي تحول إلى قناعة لدى آينشتاين و الذي اوحى بامكانية المراجعة النقدية لمبادئ الميكانيكا الكلاسيكية. وكان هذا الطعن في "الصلاحية للميكانيكا المطلقة" قد بدأ يظهر كما اكد، مع نهاية القرن التاسع عشر حينما شك العلماء في سلامة مبادئها عندما لم يتمكنوا من إيجاد مخرج من المشاكل التي اعترضتهم وذلك بعد أن اتهموا تجاربهم و اعتبروها فاشلة لأنها لم تنسجم مع مبادئ الميكانيكا السائدة و المألوفة. و أهم هذه المشاكل التي وقع فيها تناقض بين الرأي السائد للعلماء وبين نتائج التجربة هي مسألة قياس سرعة الضوء ومدى تأثرها بالأثير. وهي التجربة التي قام بها سنة 1881 عالم أمريكي يدعى (ميكالسون 1931-1852 Michelson) وقد أعادها فيما بعد سنة 1887 بمساعدة صديقه مورلي Morly . وكما تعلمون فإن الاعتقاد الذي خلفته الميكانيكا الكلاسيكية لانيوتن هو أن الأثير يؤثر على سرعة انتقال ضوء الشمس على الارض وذلك حسب الخرافة التالية: فإذا كانت الارض تسير في اتجاه يقربها من الشمس فإن الاثير يزيد من سرعة انتقال الضوء نحو هذه الاخيرة، وإذا كانت الارض تسير في اتجاه يبعدها عن الشمس فإنه يقوم بتعطيل سرعة الضوء .ولقد حسمت هذه المسألة بعد هذه التجربة، وبالتالي تأكد أن سرعة الضوء واحدة وثابتة. ولقد كانت النتيجة كما هو معلوم أن صنفت هذه التجربة في خانة "التجارب السلبية" لأنها تخرج عن المألوف و المتعارف عليه ضمن ضوابط ومعايير العلم النيوتوني.

وتكمن شجاعة اينشتاين وجرأته، وهما اللتان شكلتا البُعد الثوري للنسبية، في انه تمكن من ان يعلن للجميع بان مصدر هذا "الفشل" و "السلبية" ليس التجربة ،بل تمسك العلماء وقناعتهم بالمفاهيم الاساسية للميكانيكا الكلاسيكية. وعليه فلقد سعى إلى التساؤل عما إذا كانت تجربة سرعة قياس الضوء يمكن أن تأتي بجديد ينبغي استغلاله و استثماره في سبيل المراجعة النقدية للبناء النظري لفيزياء انيوتن الكلاسيكية كلها. وبالتالي يكون هذا الفشل وهذه السلبية لتجربة ميكلسون ومورلي، إعلانا عن ضيق صلاحية الميكانيكا الكلاسيكية، ودليلا على حدود المبادئ النيوتونية يمثل إيذانا بتجاوزها، أو على الأقل مراجعة النظر فيها انطلاقا من اعتبارات جديدة. ومما لا جدال فيه ان عملية المراجعة هذه نتجت عن بعض مظاهر التعارض مع المألوف والشائع سواء بالنسبة للموقف الطبيعي للانسان العامي أو العلمي القائم على الفيزياء الكلاسيكية. ويعتبر اينشتاين ان منطلق النسبية هو الطعن في الخلاصات التي توصل إليها "المهتمون بالحركة منذ القديم. وقد لجا هؤلاء لوصف حركة جسم ما، إلى اتخاذ حركة جسم آخر سندا او مرجعا: فربطوا بين حركة السيارة على الأرض التي تسير فوقها مع حركة كوكب آخر بالنسبة لمجموع النجوم المرئية. وهكذا تأسس ما يطلق عليه منظومات الاحداثيات او مجموعة

الاحداثيات"(4). وما ذكرنا آنفا ينطبق على مجموعة الاحداثيات الجاليلية-النيوتونية. وهي التي كانت الميكانيكا الكلاسيكية تلجأ إليها لتفسير قوانينها وناخذ مثالا على هذا: فقد تم الربط في الفيزياء الكلاسيكية بين قانون "القصور الذاتي Inertie" وبين التصور الذي كونته هذه الفيزياء عن مجموعات الاحداثيات.

يقول اينشتاين:"تعطي الميكانيكا الكلاسيكية لقانون القصور صيغة التعريف التالية: يبقى الجسم المعزول بدرجة كافية عن بقية الأجسام في حالة سكون او يتحرك بانتظام في خط مستقيم"(5) ولا يستكمل هذا القانون بالحديث عن حركة الاجسام فقط وإنما يحدد أيضا اجسام الاسناد او المراجع(أي منظومات الاحداثيات) التي يمكن ان تعتمد عليها في الوصف الميكانيكي وينطبق قانون القصور الذاتي انطباقا كليا على هذه الاجسام المعزولة المذكورة في القانون وهي النجوم الثوابت. أما الطريقة التي يكشف بها اينشتاين عن زيف وسلبية هذا القانون فهي بسيطة:

ففي رأيه بإمكاننا أن نلاحظ خلال يوم فلكي واحد إذا ما استخدمنا مجموعة احداثيات مرتبطة ارتباطا قويا بالارض ان كل نجم ثابت يتحرك بالنسبة لهذه المجموعة،ويرسم حركة دائرية هائلة القطر، وهذا ما يتناقض مع قانون القصور الذاتي. وبالتالي فلم يعد هذا القانون ينطبق إلا على مجموعة الاحداثيات الجاليلية. والخلاصة هي ان قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لدى انيوتن وجاليلي، صحيحة فقط بالنسبة لمجموعة الاحداثيات الجاليلية(6).

الجديد الذي يأتي به اينشتاين هو انه لا يمكن أن نفصل بين ملاحظات يستنتجها ملاحظون يتحرك كل منهم بالنسبة للآخرين. ولو كان الامر يتعلق بتجارب واختبارات في الضوء، فإن الجميع بالنسبة لأحد الملاحظين على حق. والظاهر أن هذا الاعتبار يترتب عليه تعقيد في الصيغ الرياضية التي كانت ترتكز عليها الميكانيكا التقليدية. وقد اقتضى هذا التعقيد الاستعانة بمناهج رياضية جديدة.

لقد ذكرنا أن تجربة ميكلسون وضعت العلماء أمام اختيارين: إما ان يتمسكوا بها ويتخلوا عن النظرية الكوبرنيكية والتي مفادها ان الارض تدور حول الشمس وحول ذاتها، وإما أن يتخلوا عن نظرية الأثير التي كانوا يفسرون بواسطتها مجموعة من الظواهر، كانتشار الضوء والكهرباء والمغناطيس. وإذا كان الخيار الثاني صعبا على البعض، فلم يكن كذلك بالنسبة للعلماء وإن لم يتصورا قبل امكانية التخلي عن الأثير وامكانية وجود موجات ضوئية وكهربائية ومغناطيسية دون وسط يحملها(الأثير)، لأن ذلك يعد عقوقا لأحد أهم مبادئ اسحاق انيوتن. ونفهم من هنا كما أكدنا منذ البداية ان ما يرمي إليه اينشتاين بالذات، هو شق الطريق امام الفيزياء المعاصرة عن طريق رفض نظرية الاثير ونظرية المكان كإطار ثابت ومطلق ونظرية الزمان المطلق، وذلك كله يعد خروجا على النيوتينية.

ولقد اكدت تجربة ميكلسون التي اعتبرت "فاشلة" أن سرعة الضوء لا تتأثر بحركة الارض وهي على ما يبدو نتيجة أعجبت اينشتاين. فإذا كانت سرعة الضوء ثابتة لا تتأثر بحركة الأرض فإنها أيضا لا تتأثر بحركة الشمس والقمر والنجوم؛ وبالتالي فالخلاصة هي أنها مستقلة عن كل نسق آخر متحرك في أي

مكان من الكون. وبناء عليه،كما يقول اينشتاين فإن "قوانين الطبيعة تظل كما هي لا تتغير. في كل نسق فيزيائي متحرك، أو فيما إذا ما انتقلنا من نسق متحرك إلى نسق متحرك آخر". وبهذا يكون اينشتاين قد جمع في ان واحد مبدأ النسبية الجاليلينية ،الذي يؤكد ان قوانين الميكانيكا هي هي في جميع الانساق الفيزيائية، كما عممه كمبدإ يصدق على جميع قوانين الضوء والظواهر الكهربائية والمغناطيسية ،وهذه هي خصوصية النظرية النسبية. لكن ما هي الدلالة الفلسفية لهذا التأكيد؟

إن التأكيد على عدم تغير قوانين الميكانيكا تبعا لعدم تغير الظواهر الطبيعية يدل على السعي إلى البحث عن بديل للاطار السكوني المطلق للكون. فطالما ان المجرات والكواكب والنجوم وكلما يضمه الكون يتحرك دونما انقطاع ولا يعرف الهدوء، وطالما أنه لا توجد حدود قارة وثابتة فلا بد من الكف عن البحث عن اطار سكوني مطلق للكون. ويتضمن العجز هنا عن تحديد مقياس لسرعة نسق معين، اعتمادا على الضوء كوحدة قياس. فسرعة الضوء ثابتة لا تتغير. إن مدلول هذا هو أن الطبيعة لا توفر أي نقطة متميزة تسمح لنا باجراء مقارنة مطلقة أما فيما يخص المكان "فلنعلم ان الفيلسوف ليبنيتز قد قال إنه يعكس نظام العلاقة بين الاشياء ولا يوجد المكان إلا بواسطة هذه العلاقة"(8).

ولقد أسس اينشتاين في الفيزياء المعاصرة أربع مفارقات رئيسية هي أهم مبادئ التجديد في نظرية النسبية، قلبت تصورات الفيزياء الكلاسيكية لجاليلي وانيوتن حول هذه القضايا لدرجة أنها بدت للوهلة الاولى وكأنها ليست سوى مفارقات. غير أنها تأكدت فيما بعد باعتبارها أهم انجازات الابستمولوجيا المعاصرة وثورتها؛ وأفسحت المجال الذي ظل ضيقا أمام كثير من التطورات التي شهدها حقل التكنولوجيا والابداع التقني للانسان. وهذه المبادئ هي(نسبية التزامن، نسبية المكان، نسبية الحركة وثبات سرعة الضوء).

الخلاصة:

هذه كانت هي أهم محاور الثورة التي أحدثها اينشتاين والتي قبلت التصورات العلمية التي خلفتها فيزياء انيوتن وجاليلي. وإن كانت في البداية قد تأسست على رفض الافكار المعروفة والمألوفة والمتداولة ورفضت لهذا السبب فإنها للسبب ذاته قد فرضت نفسها باعتبارها اغرب ثورة واعظم تدشين للعلم المعاصر. وقد اثبتت المراجعة النقدية التي قام بها اينشتاين للفيزياء الكلاسيكية – وهو ما أكده التقدم التقني المعاصر – ان البداهات والاخطاء الميتافزيقية ظلت رغم الثورات العلمية السابقة راسخة في المعرفة العلمية؛ إلى أن أزاحت النظرية النسبية الغموض والالتباس وأسست الفيزياء المعاصرة كما نعيشها اليوم.

الهوامش:

1.Einstein la théorie de la relativité restreinte et générale. Tr. Maurice Solovine. 1976 - P9
2. Ibid. P10
3. Ibid. P15
4. Einstein, Comment je vois le monde. P 12.
5. Einstein, la théorie de la relativité. Op. Cité. P12
6. Ibid. P12.
7. Ibid. P12.
8. Ibid. P 10

تقويم النظام التربوي: الدلالة والوظائف

محمد ولد مكحل
المفتشية العامة للتعليم الثانوي والفني

لقد استعملت كلمة التقويم في علوم التربية لترجمة مصطلح Évaluation، لذلك من المهم جدا أن نبذل في البداية، جهدا مضاعفا لمعرفة دلالة الكلمة في اللغة العربية من جهة ومعرفة المعنى الاصطلاحي الذي اكتسبه المفهوم من جراء استخدامه كترجمة لما ينتمي إلى فضاء دلالي غير فضاء اللغة العربية من جهة اخرى.

حول معنى التقويم في اللغة العربية جاء في لسان العرب: "قوم درأه: أزال عوجه..وكذلك أقامه وقوام الأمر بكسر نظامه وعماده، وقوم السلعة واستقامها، قدرها..". كما جاء في القاموس المحيط للفيروزأبادي ما يلي: "القيمة بالكسر واحدة وماله قيمة، إذا لم يدم على الشيء، وقومت السلعة واستقمتها ثمنها واستقام اعتدل وقومته عدلته فهو قويم ومستقيم". وفي المنجد في اللغة والاعلام، في باب فعّل (قوّم) جاء ما يلي:"قوم الشيء عدله ومن تقويم البلدان..وقوام الأمر وقيامه: نظامه وعماده وما يقوم به، يقال: هو قوام أهله وقيامهم: أي يقيم شأنهم..وقوم المتاع جعل له قيمة معلومة".

هناك خلط في استعمال كلمتي التقويم والتقييم، حيث يعتقد الكثيرون بأن كلتيهما تعطي نفس المعنى ومع العلم أنهما يفيدان في بيان قيمة الشيء، إلا ان كلمة التقويم صحيحة لغويا وهي الأكثر انتشارا في الاستعمال بين الناس، كما انها تعني بالاضافة إلى بيان قيمة الشيء، تعديل أو تصحيح ما اعوج منه. أما كلمة التقييم فتدل على إعطاء قيمة للشيء فقط. ومن هنا نجد أن كلمة التقويم أعم وأشمل من كلمة التقييم، حيث لا يقف التقويم عند حد بيان قيمة الشيء، بل لا بد كذلك من محاولة إصلاحه وتعديله بعد الحكم عليه. وعند استشارة بعض المعاجم العربية نجد في العموم أن مصطلح التقويم مرتبط لدرجة رئيسية بالتعديل والتصحيح والتحسين كأهداف يتم السعي إلى تحقيقها بواسطته. ومهما يكن من خلاف أو جدل حول مصطلحي التقويم والتقييم فإن من الملاحظ ان التقييم عملية يتم بها تقرير الصلاحية(القيمة التربوية للمنهج) في حين ان التقويم عملية تصحيحية يتم بها تحسين المنهج كوثيقة تربوية للتعلم والتعليم، او تحسين ما يلزم من عوامله وعملياته المتنوعة، وذلك حسب مقتضيات الحكم التقييمي على صلاحيته، قيمته التربوية. فالتقييم إذن عملية وأداة سابقة للتقويم المنهجي الذي يجسد بدوره هدفا ونتاجا لسابقه (التقييم).

وفي مفهوم آخر يعتبر التقويم عملية مقارنة الظاهرة، العملية المنهجية، أيا كان مجالها بمعايير موضوعية، يتقرر نتيجة ذلك مصير المنهج: تحسينه بالتعديل والتنقيح، أو صيانته واستمرار الأخذ به، أو إلغائه نهائيا من التربية المدرسية، أو في حالات أخرى تعديل المعايير المقترحة لقياسه وتقييمه. كما فهم، كعملية اختيار صلاحية مجالات منهجية محددة لتعيين انواع البيانات المطلوبة ثم جمعها وتحليلها وتلخيصها للجهات المعنية لغرض مساعدتها

على مفاضلة واختيار الأجدى تربويا ونفسيا وعمليا لتعلم التلاميذ.

وتتفق معظم النماذج التي اهتمت بتقويم المناهج على تحديد موضوع هذا التقويم في ثلاثة مستويات أساسية هي:

-مدخلات المنهاج، ويتعلق الامر بالمصادر والامكانات ومؤهلات العاملين وتوفر الموارد وخصائص التلاميذ.

-تقويم العمليات ويشمل مكونات المنهاج وعمليات تنفيذه مثل مضامين وطرائق ووسائل التعليم والبيئات المدرسية.

-تقويم المخرجات ويملي تقويم النتاجات المتحصل عليها، وتقويم كفاية المنهاج قصد اتخاذ قرارات تصحيحية.

ومن خلال ما تعكسه هذه المقاربة من وظائف تربوية أساسية تتحقق من خلاله. يتضح أن أي نظام تربوي يسعى إلى عقلنة سيره وبلوغ الكيف المرجو منه، لا يمكن أن يستغني عن التقويم، فهو محركه إلى ذلك كله. فالتقويم في المجال التربوي هو وسيلة دعم اتخاذ القرار المناسب انطلاقا من وضعية دراسية ما، ذلك أننا نقوم من أجل ان نعرف وتلك المعرفة الحاصلة يجب ان تقود إلى القيام بتدخلات اصلاحية جوهرية.

في جميع الدول، أصبح تقويم النظام التربوي عملية أساسية تحظى باهتمام كبير بالنظر إلى التكاليف التي تمثلها، والشركاء الذين هم معنيون بها، والآمال التي يعلقها عليها المستفيدون، وكذا المجتمع بشكل عام. هذا التقويم يجب أن يستند إلى مؤشرات الكلفة والسير (أو الخدمات المقدمة) وكذلك النتائج:

يجب تقويم النتائج التي تحصل في المدرسة، أي أن نقيس ولو بشكل تقريبي إلى أي حد تحققت الأهداف التي رسمت بداية؟ ما هي المعارف والمهارات التي اكتسبها التلاميذ؟ أي استعداد أو تحفيز للحياة المهنية تم خلقه لديهم؟ أي تكوين مدني تقدمه المدرسة لهم؟..الخ. هذا التقويم يجب أن يسمح باجراء مقارنة في الزمان وبين الدول أو على مستوى الدولة الواحدة، بين مختلف مناطقها. وفي نفس السياق، فإن تقويم المؤسسات أصبح مهما وضروريا، شريطة أن يتم باعتبار محيطها الخاص، الاجتماعي والثقافي. وما يهم هنا تقييم "القيمة المضافة" التلاميذ من طرف المؤسسة.

يمكن أن نميز ما بين التقويم داخل النظام التربوي وتقويم النظام التربوي نفسه. فالتقويم داخل النظام التربوي يتعلق برقابة المعارف من خلال نظام الامتحانات والشهادات. فبغض النظر عن الامتحانات المقررة رسميا، فإن هاجس الرقابة، بعد حصة تربوية ما، يدفع الاستاذ الذي يسعى إلى معرفة ما علق بأذهان التلاميذ، إلى تنظيم تقويمات خارج تلك التقويمات الرسمية كالاختيارات الخاصة والامتحانات التجريبية. وقد يطال التقويم داخل النظام التربوي السياسات والتجديدات والتجارب التربوية التي تجري داخله. إن التقويم يعني مقابلة مجموعة من المعلومات مع مجموعة من المعايير بغية اتخاذ قرارها. فكل نظام تربوي يتبنى هدفا يسعى إلى بلوغه ويتلقى معلومات في العودة (feedbak) حول مؤهلاته النجاحية حيث يحدد البون الملاحظ بين النتيجة المرجوة والنتيجة المحققة والخطوات التصحيحية التي يجب القيام بها. ويكون التقويم تنبئيا حين يهدف

إلى تقدير المفعول المحتمل لمختلف القرارات التي يمكن اتخاذها.

ويكون تقريريا حين يكتفي بمشاهدة وإثبات نتائج العمليات السابقة، وأخيرا يكون التقويم تكوينيا عندما يسمح بتحديد الخطوات التصحيحية الأكثر نجاعة من أجل الاقتراب اكثر من الأهداف المرسومة. وهكذا فإن أهمية التقويم جعلته يصبح في نهاية السبعينات من الالفاظ الأكثر شيوعا في لغة علوم التربية. وقد أصبح التقويم موضوعا للبحث مما انجر عنه ظهور لون معرفي جديد يسمى الدكسولوجيا(doxologie) الذي عرفه قيومين(J.Guillaumin) سنة 1968 بأنه "الدراسة المنظمة للدور الذي يلعبه التقويم في التربية المدرسية". كما ظهرت ممارسة جديدة تتعلق بالتقويم هي ما يسمى بسوسيولوجيا التقويم مفادها ان تقويم تقنيات تدقيق النتائج لا يكون مشروعا إلا في إطار تقويم المسار الذي تحققت فيه هذه النتائج.

في نهاية المطاف يجب ان يقود تقويم نتائج التلاميذ إلى تقويم النظام التعليمي الذي ينتج ويعيد انتاج هؤلاء التلاميذ. عندئذ يأخذ التقويم معنى اوسع ليمثل تحليلا حقيقيا لوظيفة النظام التربوي. وهذا التحليل يستدعي بالمقابل استراتيجية تناوبية في الممارسة اليومية لتقنيات التقويم، فالتقويم يمكن أن يعتبر إجراء لا ينفصل أبدا عن الاجراء التربوي.

ورغم ما ذكرناه سابقا فإن التقويم يتميز عن أشكال أخرى من البحث باعتبار أن لخطواته هدفا ابراجماتيا لا ابستمولوجيا. فغاية التقويم ليست انتاج معارف عامة، بل تنظيم وضبط العملية التي تجري في سياق خاص. هذه الوظيفة التنظيمية ترتبط ارتباطا وثيقا بمسار اتخاذ القرار وبآليات التفاعل الاجتماعي التي تحيط بهذا المسار. فالتقويم إذن أداة تسيير تمكن من تحسين فعالية ونجاعة مسار اتخاذ القرار. فدور المقوم (évaluation) لا يتمثل في أن يحل محل هيئات اتخاذ القرار(على المستوى البرلماني او الحكومي) ، بل يقتصر على أن يتمثل بوضوح ما يمكن ان ننتظره: طبيعة القرارات التي يمكن ان تأخذها وانعكاساتها الفعلية وكذا نوع المعلومات التي يجب جمعها والاستحقاقات أو الآجال التي يلزم احترام حلولها. بعبارة واحدة إن النظام التربوي الذي يرتكز على التقويم، جاعلا منه بعدا من أبعاده الأساسية، هو بكل بساطة نظام يسير وفق مقتضيات التخطيط وذلك هو الشرط الضامن للنجاح.

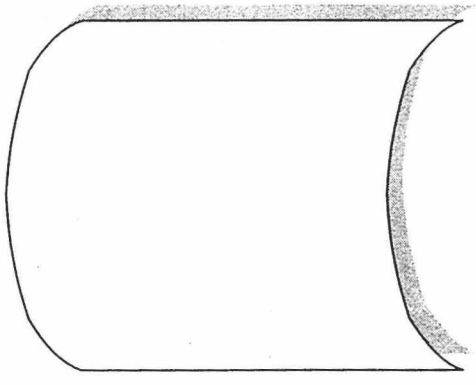

الهجرة القروية في موريتانيا
وإعادة إنتاج النسق التقليدي

عبدالوهاب ولد محفوظ
كلية الآداب – جامعة انواكشوط

لقد تم تأسيس الدولة في موريتانيا والعالم البدوي يشكل النسبة المهيمنة في البلاد لدرجة يمكن القول معها إن سكان المدن بشكل إجمالي – باستثناء المدن التاريخية كشنقيط، ولاته وتيشيت ومدن قليلة أخرى تأسست مع التدخل الاستعماري – هم سكان بدويون وقرويون هاجروا إلى المراكز الحضرية في المراحل الأولى، وبشكل شحيح نسبيا في الستينات بفعل ارتباط بعض افرادهم بأجهزة الدولة: موظفين، متعلمين، مستخدمين في المناطق الصناعية (الزويرات،..) لكن مع سنوات الجفاف في السبعينات ازدادت وتائر الهجرة بشكل متسارع بعد ما شكلت البادية مراكز طرد في وقت ظهرت فيه المدن أكثر من أي وقت مضى كمراكز استقطاب وجذب للجيوش الاحتياطية التي تكدست وخصوصا في الثمانينات وبشكل مكثف في أحياء هامشية بحثا عن العمل أو على الأقل الاقتيات من فتات النخبة الحضرية التي هي في طور التشكل (كبار التجار وموظفون سامون في الدولة).

غير ان ما يهمنا هنا هو كون هذه الأغلبية المهاجرة كانت في هجراتها هذه تحمل معها منظومتها الثقافية التقليدية ليس على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي فحسب بل على المستوى المجالي كذلك.

بمعنى أن هؤلاء المهاجرين الذين ينزاحون كل يوم اكثر إلى المدن، سيحافظون في مناطقهم الجديدة على خرائطهم المجالية القديمة في المجال البدوي والقروي؛ أي أنهم سيحتفظون بحدود التجاور المكاني الذي كان ملازما لحدود التجاور القرابي والنسبي وبالتالي البنيوي الذي ظل يؤمن لهم أسلوب التكافل الاجتماعي والاقتصادي في البوادي، إلى جانب التحالف السياسي؛ خيمة الأب إلى جانب خيام الأبناء ثم الاخوة وابناء العمومة، الأقرب نسبا فالأقرب حسب الترتيب المعروف لمراتب القبيلة(1) من الرهط إلى الفصيلة والعشيرة والفخذ والبطن ثم العمارة والقبيلة.

فالسكن في كل الأحوال هو إسقاط لعلاقات اجتماعية فوق المجال، لذلك ستكون الخريطة المجالية للحي البدوي (لفريق) أو القرية، محكومة بخريطة جينالوجية هي التي تحدد مواقع ومنازل كل حي من الأحياء القروية والبدوية فوق المجال الجغرافي، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى كون القرابي – السياسي والمجالي يخفيان في أغلب الأحيان العنصر الاقتصادي باعتباره بلعب حسب عبارة كودولييه(2) وظيفة علاقات الانتاج، ذلك أن الشروط الاقتصادية وعلاقات الانتاج هي المستويات المحددة في نهاية المطاف لبقية المستويات الاخرى طالما أن

المسعى الأساسي للإنسان هو ضمان وجوده المادي و استمرار هذا الوجود.

يقول ابن خلدون في هذا الاطار"..وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب، استولت على النعمة بمقدار، وشاركت أهل النعيم و الخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها."(3).

إن الهجرة في الأساس هي محاولة لوجود بدائل اقتصادية بعد ما نضبت الموارد البدوية بفعل الجفاف و التصحر، لكن ما دامت الهجرة تتعلق بتجمعات قبلية لها ثقافتها البدوية الضاربة في القدم و المتأسسة على القرابة و الرحم و التكافل الاجتماعي في الظروف الصعبة فإن أي انتقال لهذه التجمعات القبلية سيكون في الأساس انتقال لثقافتها البدوية، مما سيجعلنا أمام إعادة إنتاج لكل ما هو بدوي فوق المجال الحضري، ولكل ما هو تقليدي في إطار ما هو عصري، نجد هذا في المدن الداخلية التي تتوزع أطرافها قبائل مختلفة بشكل واضح، لكل قبيلة في الغالب جهتها، ولكل فخذ أو سكان قرية أو بادية حي من المدينة يعيد إنتاج نفس التجاور ونفس العلاقات الحميمة السابقة رغم بعض التغيرات، ونجد هذا أيضا في العاصمة السياسية انواكشوط وإن بشكل أقل، وضوحا حيث يعوض التجاور المكاني النسبي تجاورا جهويا أكثر اتساعا، فنجد مثلا في المقاطعات الشرقية: توجنين بما فيها بوحديدة، تن اسويلم وبدرجة أقل عرفات، نجد بهذه المقاطعات إذن حضورا مكثفا للجهة الشرقية من البلاد الموريتانية في نفس الوقت الذي لا نجد في المقاطعات الشمالية من العاصمة: دار النعيم، تيارت، لكصر بشكل أقل سوى سكان الجهة الشمالية و الشمالية الوسطى من البلاد، ونفس الأمر بالنسبة لبقية الجهات الأخرى، فلكأن العنصر الجينالوجي هو المؤسس الجهوي و التجاور القرابي هو المؤسس للتجاور المكاني و الشاهد على وجوده.

قد يدل هذا النقص النسبي للعلاقات التقليدية في العاصمة انواكشوط على وجود تغيرات أكثر تسارعا ووضوحا في هذه المدينة أكثر من المدن الأخرى، باستثناء انواذيبو، خصوصا على مستوى السلوك الفرداني الذي بدأ يكشف عن نفسه على حساب التضامن الآلي و التكافل الاجتماعي، وتفتيت الأسرة الممتدة لصالح الأسرة النووية وشبه النووية، الاعتماد على الرأسمال الاقتصادي بدل الرأسمال الجينالوجي خصوصا في مقاطعات تفرغ زينه حيث أصبحت القرابة المادية تحتل مكان القرابة النسبية شيئا ما لتساهم في إنتاج القرابة المجالية، بمعنى أن التجاور الاقتصادي أو بعبارة أوضح المعيار المادي هو الذي أصبح يؤسس التجاور المجالي ويشهد عليه في مقاطعة تفرغ زينه و المناطق القريبة منها، أما الأحياء الشعبية فلا تزال الخريطة الجهوية و الدموية هي المسيطرة على الخريطة المجالية و المؤسسة لقسماتها.

غير أن إعادة إنتاج النسق التقليدي بهذا الشكل الذي ذكرناه في المدن الداخلية وبدرجة أقل في العاصمتين السياسية و الاقتصادية لا يمكن ان يخفى ان هذه الهجرات و الحراك كفيل بجعلنا نتهيأ لاستقبال حراك آخر: حراك مهني (انتقال من مهنة الرعي مثلا او الزراعة إلى مهنة

أخرى) وحراك اجتماعي (انتقال من مستوى اجتماعي معين إلى مستوى آخر عندما يمتهن الفرد مهنة كبرى في الدولة مثلا)، لكن عدم وجود اختلاف واضح بين ثقافات كل من البدويين والحضريين بموريتانيا نتيجة عدم وجود عمق تاريخي للمدن يمكنها من أخذ مسافة بينها وبين أصولها البدوية، جعل ثقافة البادية تجد نفسها أمام مجال ثقافي مشابه في المدينة يجعل الانتقال المهني والاجتماعي يبقى أكثر الأحوال رهين الفضاء العام المسيطر الذي يعيش على إعادة إنتاج وتراكم التقاليد القروية والبدوية باستمرار.

بطبيعة الحال ليست هناك ادعاءات قبلية، على الأقل خلال العقود الأخيرة، للمجال الحضري كما هو الشأن بالنسبة للمجال القروي والبدوي في البلاد مثلا، كما أن تدخل الدولة بأجهزتها وسلطاتها بات واضحا في عموم المجال الوطني، لكن مسألة الاندماج الفعلي في الوسط الحضري بشكل يجعل هؤلاء المهاجرين حضريين حقيقيين، مسألة لا تزال تحتاج من الباحث إلى كثير من التروي وعدم الارتجال في الاحكام، خصوصا عندما نعرف ان مفهوم الحضرية نفسه لا يزال يعيش في البلاد على وتائر التقاليد، ليس على المستوى الديمغرافي أو العمراني - على الرغم من نسبية الأول وهشاشة الثاني- بل على مستوى العلاقات الاجتماعية والمنظومة الثقافية التي تكتنفها. ذلك أن دراستنا لأي مجال حضري تعني عندنا كاجتماعيين أولا ضرورة التعامل مع العلاقات الاجتماعية والثقافية في هذا المجال وقياس مدى تغيرها واندماجها سواء كان أصحاب هذه العلاقات مقيمين حضريين أو ما زالوا مرتبطين أكثر بمجتمعهم القروي والبدوي. لذلك نجد أنه ما دامت العلاقات الاجتماعية الحضرية في المدن الكبرى ومن بينها العاصمة انواكشوط لا تزال في شكل جنيني لا يقوى على احتواء ومثاقفة المنظومة التقليدية التي تتكدس كل يوم أكثر في المدن بفعل الهجرة المستمرة فإن مفهوم الحضرية نفسه سيبقى في نظرنا أمام أزمة قوية على الأقل في الوقت الراهن إن لم يكن خلال العقود القادمة.

قد تكون المدينة هي غاية البدوي التي يجرى إليها كما يؤكد ذلك ابن خلدون(4)، خصوصا عندما نعرف - وكما هو واقع فعلا في موريتانيا- "أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه"(5)، وان الضغط الديمغرافي في المدن اصبح يزداد كل يوم أكثر نتيجة امتصاص هذه الاخيرة المتزايد للتدفق القروي والبدوي، لكن ما وقع فعلا أن المهاجر القروي والبدوي في موريتانيا لم يجد أمامه تقاليد حضرية يتبناها بل هو الذي أسس هذه المدن والحواضر وبالتالي فمن الطبيعي أن ينقل إليها منظومته الثقافية ويعيد إنتاج نفس بنياتها وهياكلها السابقة.

لكن كل هذا لا يعني أننا أمام حالة جمود وإعادة إنتاج مستمرة لكل ما هو قديم بل هناك تغيرات تحصل حتى في إطار إعادة الانتاج هذه وإن كانت بسيطة بشكل لا يمكن معها أن تحدث تغيرا شاملا في كل البنية الاجتماعية وهو ما يسميه بارسونز بتغير التوازن الذي يحصل داخل البنية دون ان يظهر بصورة واضحة في التغير العام، أما النوع الثاني من التغيرات فيأتي في مرحلة تالية بعد أن يتهيأ

المجتمع للتغير بشكل عام وهو ما يعرف بتغير البنيات، بمعنى أن كل الأحداث الجزئية التي تمس الأفراد أو جزءا بسيطا من المجتمع قد لاتدخل في إطار التغير الاجتماعي العام ولكن قد يكون لها إسهام فيما بعد في إحداثه خصوصا بعدما يعم تغير التوازن كل عناصر البنية وينقلها من مرحلة معينة إلى مرحلة أخرى حسب كي روشيه **GUY ROCHER** مما يجعل عملية إعادة إنتاج النسق التقليدي هذه تبقى مهزوزة امام ضربات التحديث والتغيرات البسيطة المتدفقة باستمرار وهو ما يفتح المجال أمام تغيرات أخرى ستكون أكثر صمودا واكثر تسارعا.

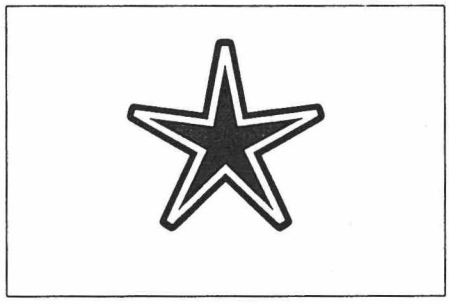

الاحالات:

1.للمزيد من المعلومات عن مراتب القبيلة يمكن الرجوع إلى:
*شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب(النويري): نهاية الإرب في فنون الأدب/ج2 المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر/ القاهرة- صص277-285.
*احمد بن علي(ابن عبد ربه الأندلسي): العقد الفريد:ج3، تحقيق، د.عبد المجيد الترحيني/ دار الفكر- بيروت ط1 /1983 ص289.

2.Godelier (Maurice) : Horizon et trajets marxistes- paris- Maspero-1966- p189.

3.ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة -ص441.

5.4.ابن خلدون نفس المرجع ص،120.

6.**GUY ROCHER** : introduction à la sociologie générale - T3- le changement social - Ed - HMH, 1968- p17

التنمية وإشكاليات حرية الاختيار

محمد ولد الطالب ولد سيدي
دكتورا السلك الثالث - الاقتصاد

لقد تزايّد الاهتمام العالمي بعدد من القضايا التي تتصل اتصالا وثيقا بقضايا التنمية وهي القضايا التي لم تكن مجهولة من قبل لكنها لم تكن تنال الاهتمام الكبير مقارنة مع القضايا الاقتصادية التي عادة ما يجري التركيز عليها في تناول التنمية، وما يهمنا هنا هي تلك القضايا المتعلقة بالتأثيرات الناجمة عن التنمية والتقدم التكنولوجي والتي عادة ما تؤدي إلى تغيرات في البنية الاجتماعية، هذا فضلا عن التأثيرات الناتجة عن تغير وسائل الانتاج ووسائل العمل بصفة عامة ووسائل ملء الفراغ وما ينتج عنها من تأثيرات على ثقافة الانسان وحضارة المجتمع.

ونحن هنا لسنا بصدد التحجيم من دور التنمية، بقدر ما نريد أن نعطي للموضوع ما يستحقه من دراسة وتعميق دون أن ننسى الربط بين الظواهر الكمية والكيفية للتنمية. لذلك سنبحث الموضوع من زاويتين هما:

1. تطور مفهوم التنمية
2. أثر التكنولوجيا على التنمية البشرية وعلى المجتمع بصفة عامة.

أولا: تطور مفهوم التنمية:

إذا تتبعنا مفاهيم التخلف والتنمية، فسوف نجد انها مالت في اول الامر إلى التركيز على جانب النمو الاقتصادي وما يتحقق فيه من انجاز، فقد كان التعريف الشائع للبلدان النامية منذ أواخر الأربعينيات وحتى أواخر الستينيات، أنها البلدان التي ينخفض فيها الدخل الفردي(1) كثيرا بالقياس إلى مستواه المحقق في البلدان المتقدمة. وفي هذا المجال تعرف التنمية بأنها الزيادة المستمرة والسريعة في مستوى الدخل الفردي عبر الزمن، بل إن البعض قد أعطى معدلا للزيادة المرغوبة في الناتج القومي الاجمالي، فعرفت التنمية بأنها الحالة التي يصبح فيها الاقتصاد القومي (الذي ظل في وضع يتسم بالركود لفترة طويلة) قادرا على توليد زيادات متواصلة في الناتج القومي الاجمالي بمعدل يتراوح بين 5% -7 %سنويا. صحيح أنه كانت تحدث إشارات إلى أهمية تحقيق أمور اخرى مثل محو الامية والقضاء على الامراض ونشر التعليم وما إلى ذلك، ولكن النظرة الغالبة كانت اقتصادية بمعنى أنها تركز على زيادة الانتاج من خلال مزيج ملائم من المدخرات والاستثمارات والمعونات الأجنبية بما يعطي الانطباع ان التنمية -بعد كل التحفظات- ليست إلا مرادفا للنمو الاقتصادي السريع، وكان يعتقد منذ صدور كتاب مراحل النمو الاقتصادي للاقتصادي الامريكي والت رستوم عام 1959م، بأن عملية التنمية تتضمن عددا من المراحل المتتابعة التي يتعين على كل الدول النامية ان تمر بها، وهي نفس المراحل التي مرت بها الدول المتقدمة في طريقها من الركود إلى التقدم.

غير أن الدراسات التي أجريت فيما بعد أوضحت عدم صواب مفهوم التنمية الذي يختزل التنمية إلى مجرد النمو الاقتصادي السريع، فقد شهدت بلدان نامية عديدة معدلات نمو للدخل القومي قريبة من المعدل الذي اعتبره الخبراء معدلا مرغوبا في تحقيقه. ومع

ذلك بقيت مستويات المعيشة فيها بدون تحسن واستمرت قطاعات واسعة من سكانها تعاني من الجهل والفقر والمرض والتعطل. وعلى عكس ما كان يتوقعه أصحاب المفهوم الاقتصادي للتنمية، لم تتكمش الفجوة بين الأغنياء والفقراء بل إنها اتجهت إلى الاتساع في الدول التي حققت معدلات مرتفعة لنمو الدخل. كما ارتفعت نسبة السكان الذين يعيشون تحت خط الفقر وازدادت اعداد المحرومين من إشباع الحد الأدنى الضروري من الاحتياجات الانسانية.

ومن الملاحظ ان تحقيق التقدم في عدد هام من مجالات الحياة الانسانية، وبالذات في مجال إشباع الحاجات الاساسية لدى عدد كبير من الناس في البلدان النامية، ليس بالضرورة رهنا بتحقيق معدلات عالية للنمو في الدخل، كما أنه ليس مرهونا بالوصول إلى مستوى مرتفع للدخل الفردي وأن العبرة ليست بسياسات زيادة الدخل وحده (أي سياسات النمو الاقتصادي) بل العبرة ايضا بسياسات توزيع الدخل والسياسات التي تهدف بشكل مباشر إلى تخفيف حدة الفقر وتحسين مستوى معيشة الافراد(2) وبالتالي فإنه يمكن التمييز بين النمو الاقتصادي والتنمية. فالنمو الاقتصادي يشير إلى مجرد الزيادة الكمية في متوسط الدخل الفردي الحقيقي والذي لا يرتبط بالضرورة بحدوث تغيرات هيكلية اقتصادية واجتماعية. أما التنمية فهي ظاهرة مركبة تتضمن النمو الاقتصادي كأحد عناصرها الهامة، ولكنها تتضمنه مقرونا بحدوث تغير في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والعلاقات الخارجية. بل يمكن القول إن التنمية إنما تتمثل في تلك التغيرات الكمية في الهياكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للدولة، وفي العلاقات التي تربطها بالنظام الاقتصادي الدولي، التي يكون من شأنها تحقيق زيادات تراكمية قابلة للاستمرار في الدخل الفردي الحقيقي عبر فترة من الزمن، إلى جانب عدد من النتائج الاخرى غير الاقتصادية.

ونظرا للاهتمام المتزايد بمفهوم التنمية من الناحية البشرية مما أدى إلى وضع البشر في بؤرة اهتمام المخططين واضعي السياسات، وما يرتبط بذلك من إعادة التأكيد على ان الناس هم الثروة الحقيقية لأية أمة، وان الهدف الاساسي للتنمية هو وضع البيئة الملائمة لكي يتمتع المواطنون بحياة كريمة. ونظرا لكل ذلك أصبح مفهوم التنمية البشرية يفرض نفسه وينال الاهتمام الكبير في التقارير والدراسات الدولية، والتي تعرف على أنها ليست مجرد تحسين القدرات البشرية من خلال التعليم والصحة والتغذية وما إلى ذلك، بل إنها – إضافة لذلك– تعنى انتفاع البشر بقدراتهم وبالتحسينات فيها سواء في مجال العمل او التمتع بوقت الفراغ.

فالانسان ليس مجرد وسيلة او عنصر إنتاج بل إنه الهدف أيضا من التنمية بمعنى ان التنمية تستهدف تحقيق رفاهية البشر في نهاية المطاف.

ولذلك تعرف التنمية البشرية (طبقا للبرنامج الانمائي للأمم المتحدة وتقاريره عن التنمية البشرية التي كان صدورها منذ عام 1995م). بأنها:"عملية توسيع الخيارات المتاحة للناس، بتمكينهم من الحصول على الموارد اللازمة لتحقيق مستوى حياة كريمة، وتمكينهم من العيش حياة طويلة خالية من العلل ومن ان يكتسبوا المعارف التي تطور قدراتهم وتساعدهم على تحقيق إمكاناتهم الكامنة وبناء

تقتهم بأنفسهم والشعور بالانجاز واحترام الذات"(3).

ثانيا: أثر التنمية والتقدم التكنولوجي على ثقافة المجتمع:

لقد مر بنا عصر كنا نفهم العملية الاقتصادية فيه على أنها عملية استخدام موارد محدودة في سبيل إشباع حاجات غير محدودة وأن الهدف النهائي من العملية الإنتاجية هو "الاشباع" او خلق"الشعور بالرضا" ولا يزال علماء الاقتصاد يعرفون علم الاقتصاد على هذا النحو، ولكن الامر يبدوا الآن وكأنه انقلب رأسا على عقب وإذا بالمشكلة التي تواجه المنتجين اصبحت هي ان الحاجات تبدو وكأنها للأسف "محدودة" والموارد وكأنها هي التي لا تنفد وإذا بالعملية الانتاجية تتحول إلى محاولة خلق شعور مستمر بعد الرضا وعدم الإشباع، إذ أنهم يقولون عن التنمية الاقتصادية (أو زيادة الانتاج) تستهدف اشباع الحاجات ولكن العكس فيما يبدو هو الآن الاقرب إلى الحقيقة، فالذي يحدث اليوم ليس إلا محاولة تعميق شعور الناس باحتياج في سبيل التنمية الاقتصادية.

إن ملاءمة الفرد للبيئة الاقتصادية تقوم على مكونات دوافعه النفسية، كما تتشكل بالظروف والاوضاع التقليدية التي يعيش فيها في هذا المجال، ستكون مهمتنا الأساسية هي تبيان دوافع وانماط التنمية وتأثير ذلك على الثقافة، إذ تعتبر المواقف التي تنطوي على تغيرات في الهيكل الاقتصادي والتكنولوجي بمثابة وجوه لمشكلة أوسع هي مشكلة التكيف الثقافي والتي ينبغي تحليلها عن طريق فحص أي مسألة تقع في ميدان الثقافة، وقد قال كارل بولاني: "عن الفرد لا يعمل من اجل المحافظة على صالحه الفردي من تملك السلع المادية، بل إنه يتصرف كذلك من أجل المحافظة على مركزه الاجتماعي ومطالبه الاجتماعية ومميزاته الاجتماعية، وهو يقدر قيمة السلع المادية بقدر ما تخدم هذه الغاية فقط. فليست عملية الانتاج ولا عملية التوزيع ترتبطان بمصالح اقتصادية معنية متصلة بتملك السلع، وإنما توجه كل خطوة في تلك العملية نمو عدد من المصالح الاجتماعية التي تضمن في النهاية أن الخطوة المتطلبة قد تم اتخاذها".

وانطلاقا من هذا القول فإنه إذا كانت الظواهر الكمية للتنمية قد ساهمت كثيرا في التقدم الذي نشهده اليوم، فإن ظواهرها الكيفية أملت على الفرد والمجتمع بصفة عامة ان يكون حبيسا لمعطيات ثقافية جديدة، لذلك ليس من المستغرب أن نجد الاقتصاديين المهتمين بقضايا التنمية والتخلف لا يحاولون إلا نادرا إثارة السؤال التالي: لماذا نريد التنمية؟ فإذا اثاره بعضهم فهم عادة من هؤلاء الاقتصاديين الذين لا يعتبرون من قبل إضاعة الوقت فقراءة مقال في الفلسفة او كتاب في التاريخ قبل الخلود إلى النوم.

على كل حال فإن أحدا من هؤلاء الاقتصاديين النادرين هو الاستاذ آثر لويس والذي كتب ما اعتبر افضل ما كتب عن البلاد الفقيرة (المتخلفة) على الاطلاق وهو ينتمي إلى إحدى هذه الدول وإن كان يحمل الجنسية البريطانية. ففي الفصل الاخير من كتابه، "نظرية النمو الاقتصادي" الذي نشر منذ أربعين عاما بهذا العنوان (لماذا نريد التنمية؟) إذ يقول الاستاذ الويس في هذا الفصل: "إن من العبث الادعاء بأن تبرير التنمية بأنها تجعل الناس أكثر سعادة، فالسعادة كما يعرف الجميع، تتوقف على أكثر من مجرد زيادة الدخل، فهناك مثلا الشعور بالاطمئنان على المستقبل وهناك

الحرية بالاضافة إلى نوع العلاقات الاجتماعية السائدة، بل وحتى مجرد الرضا بالنصيب، ولكنها قد لا تتغير بزيادة الدخل، وقد تؤثر فيها زيادة الدخل تأثيرا سلبيا"(5).

وإذا أمعنا النظر فيما ورد في مؤلف الويس فإننا نجد ما يبرر ذلك إلى حد ما، وذلك لأن البعض يقول إن التنمية الاقتصادية تستمد تبريرها من أنها تزيد من حرية الاختيار، وهذا ليس دقيقا تماما، ويستند أصحاب هذا الرأي إلى أن التنمية الاقتصادية تؤدي إلى زيادة الانتاج من السلع الجديدة والتي لم تكن موجودة من قبل وأصناف جديدة من السلع القديمة، مما يتيح للفرد حرية أكبر للاختيار بين عدد أكبر من السلع، كما أنها ربما تؤدي إليه من إشباع الحاجات الاساسية وما ترتبط به من إحلال للآلة محل العمل الانساني تسمح للفرد باختيار اوسع بين العمل والفراغ، إذ لا يغدو الفرد مضطرا إلى العمل أو على الأقل إلى العمل نفس العدد الكبير من الساعات، بل عن الفراغ نفسه، يحمل في طياته معنى إتاحة مزيد من الحرية في اختيار ما يرغب المرء حقيقة في صنعه، وينطبق هذا بصورة خاصة على المرأة التي يحررها مزيد من مكننة الاعمال المنزلية في الاضطرار إلى البقاء داخل المنزل.

ويحق لنا هنا ان نتساءل هل اصبحنا اكثر حرية مع ارتفاع معدل النمو وزيادة السلع والخدمات وتعدد أصنافها؟ فإنتاج هذا العدد اللامتناهى من السلع الجديدة لا ينطوي دائما على إضافة السلع القديمة، بل هو في كثير من الاحيان مجرد إحلال لسلع بدل اخرى، فبعض السلع لم تعد تنتج على الاطلاق أو أصبح انتاجها من الضآلة، واثمانها من الارتفاع بحيث أصبحت في عداد المتاح لـ "الأثرياء"، وخرجت عن متناول أيدي الغالبية، فليس لمعظم الناس اليوم حرية الاختيار مثلا بين تأثيث مساكنهم وفقا للطراز الأوربي أو الامريكي الحديث او الطراز العربي القديم او بين بناء مساكن طبقا لهذا الطراز أو ذاك.

ومع أن التغيير السريع في الموضات ليس فقط في الملابس بل وفي السلع الاستهلاكية المعمرة كالسيارات والثلاجات.. كثيرا ما يكون من المستحيل ان يتمسك الفرد باستهلاك الطراز القديم مهما كانت مميزاته الذاتية، ليس فقط بسبب ضغط الرأي العام الخاضع لمصالح المنتجين والذي يعتبر التمسك بالقديم دليلا إما على الرجعية أو عدم العصرية أو فساد الذوق او قلة الدخل، بل ايضا بسبب صعوبة العثور على هذا القديم أصلا او على قطع الغيار اللازمة له.

وهناك من السلع الجديدة ما أحدث انقلابا في عادات الناس الاجتماعية بحيث اصبح الامتناع عن استهلاكها يعد ضربا من الشذوذ يحتاج إلى إرادة حديدية أو إلى انفصال شبه تام عن المجتمع. ففي نفس الوقت الذي اقتحم فيه التلفزيون مساكننا تغيرت طريقة الناس في قضاء اوقات الفراغ بحيث أصبح حديث الأسرة فيما بينها من الأمور النادرة، إذ من أين للأب الإغراء الذي يجده الأطفال في الرسوم المتحركة الملونة.

قد يقال إن هذا التحول من العلاقات الإنسانية المباشرة إلى الاتصال بالعالم كل على انفراد من خلال شاشة التلفزيون، قد تم عن طريق اختيار حر اتخذه الناس بأنفسهم، وإلا فما كان عليهم إلا أن يستمروا في ممارسة عاداتهم القديمة فيتحادثون إذا شاءوا ويطالعون الكتب متى أرادوا، ولكن الواقع ان هذا الاختيار لم يكن حرا، فالتلفزيون وكثير من السلع الاستهلاكية الجديدة تتميز بأن استهلاكها

سرعان ما يولد ما يشبه الإدمان، بحيث يصبح من أصعب الأمور التخلي عنها حتى مع التأكد من ضررها، فكما أن البدء في مشاهد قلم من الأفلام البوليسية قد يجرك دون أن تشعر إلى مشاهدته حتى النهاية شاعرا مع ذلك بالأسف على ضياع فيما لا نفع فيه، فإن الجلوس أمام التلفزيون أو ركوب السيارة سرعان ما يتحول كفنجان القهوة أو قراءة جريدة في الصباح إلى عادة يصعب التملص منها.

وهناك سبب آخر لفقدان الحرية في الاختيار، على الرغم من زيادة عدد السلع والخدمات المعروضة، يرجع إلى الطبيعة الخاصة للحضارة الصناعية الحديثة، فهذه الحضارة تقوم على الآلة والانتاج الكبير والوحدات الانتاجية الضخمة وقد ادى هذا إلى ازدياد درجة التماثل بين وحدات السلع المعروضة وانتشار نمط واحد من أنماط الاستهلاك، ليس في الدولة الواحدة فقط بل بين الدول، فالأصناف المتعددة من السلع الواحدة تخفي وراءها في الحقيقة صنفا واحدا لا يختلف عن غيره إلا في الاسم أولون الورقة المغلف بها، وإذا بالفوارق تزول بين المدن مهما تعددت القارات، فإذا كانت التنمية قد أتاحت لنا حق التنقل بين عاصمة وأخرى بسهولة وسرعة أكبر ووسعت دائرة الاختيار أمامنا بين المدن التي يمكن أن نزورها، فإنها قد قضت في نفس الوقت على مظاهر الفرد والاختلاف بين المدن، وفي الوقت الذي اعطتنا فيه حرية الاختيار أفقدت هذه الحرية معظم قيمتها.

قد يقال إن العيب ليس في التنمية ولا في نمط الحضارة الحديثة بل في الانفجار السكاني الرهيب إذ كيف يمكن تلبية حاجات هذه الأعداد الغفيرة من الناس إلا عن طريق الاكثار من التصنيع ومن المكننة؟ وإذا كان للتصنيع والمكننة ثمنهما الذي يتمثل في تفكك بعض من مكونات الروابط العائلية ومزيدا من الفردية ومزيدا من التماثل، فهو ثمن يتعين علينا دفعه راضين من أجل أن نضمن وصول السلع الضرورية إلى عدد كبير من السكان. ولكن الرد على هذا يسير، فمن المستحيل ان يقبل المرء أن اشباع الحاجات الحقيقية للناس يتطلب انتاج هذا العدد الهائل من السلع عديمة القيمة، مما يؤدي إلى موجات الكساد من حين لآخر، وان انتاج الكميات اللازمة من السلع الضرورية يتطلب حقا هذا التركيز في الانتاج في مصانع ومدن محدودة العدد، وهذه الدرجة من التشابه والتماثل بين السلع.

وعندما يكون كل ذلك مرده الأسس السيئة، فإن الدواء الذي يقدمه صندوق النقد الدولي ربما يكون هو العلاج المناسب، ولكن عندما تكون المشكلة أو الأسباب من النوع الذي يتحقق ذاتيا بالتفاعل مع معطيات جديدة فإن كل أنواع العلاج لا تجدي(6).

وأمام موجة الاعلان التي يقوم بها المنتصبون في صناعة الاعلام مستخدمين كل الوسائل فإن حرية المستهلك في الاختيار بين سلع متعددة، تتحول إلى علاقة إرغام من ناحية وخضوع من ناحية اخرى ليس من السهل الفكاك منها مما يعني أن الواقع التنموي الجديد يملي مجموعة من القيم والعادات "الاستهلاكية" لا بد من توفرها خدمة لتلك التنمية.

الهوامش:

1.أي متوسط دخل الفرد أو متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي او من الناتج القومي الاجمالي.

2.د.ابراهيم العيسوى، التنمية في عالم متغير، دراسة في مفهوم التنمية ومؤشراتها، دار الشرق، الطبعة الأولى، 2000 ص 13-15.

3.د.ابراهيم العيسوي، مصدر سبق ذكره، ص36.

4.التغير الاجتماعي والتنمية الاقتصادية، ترجمة محمود فتحي عمر، الهيئة العامة للكتب 1967 ص70.

5.د.جلال أمين،تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتب 1995 ص226.

6.روبرت جران، ترويض النمو، نهاية المعجزة الآسيوية(ترجمة) سمير كريم الطبيعة الأولى مركز الأهرام للترجمة والنشر 1999 ص 209.

نحو استراتيجية بعيدة المدى
لتحقيق الامن المائي في موريتانيا

الشيخ سعد بوه ولد محمد الحسن
دكتوراه السلك الثالث في الجغرافيا البشرية

يتكون الماء –هذه المادة الحيوية جدا– نتيجة لتفاعل بين ذرة اكسجين وذرتين من الهيدروجين. ومن الناحية العلمية يمكننا القول عن الماء بأشكاله المختلفة إنه: سائل، صلب،او غازي، موجود في جميع طبقات الغلاف الجوي. والماء عنصر ضروري لحياة جميع الكائنات، ويحتوي الجسم البشري على كمية من الماء تتراوح بين 90 و 99 % من وزنه ماء. وبالاضافة إلى ذلك فإن الماء ضروري للأغراض الصناعية والزراعية وغيراها من الاحتياجات اللازمة لاستمرار الحياة على الأرض.

وقد اصبح جزء لا يستهان به من بلدان العالم مهدد بمكابدة مشكلة نضوب الماء. لقد بذرت المياه وأسيئت ادارتها واستعملت استعمالا مفرطا منذ عقود خلت، مما أصبح ينذر بالخطر في المستقبل. هذا التأزم في مجال الماء سببه انخفاض مناسيب المياه الجوفية ونضوب البحيرات واختفاء النقاع. ويقترح المهندسون حل مشاكل الماء باحداث أنظمة لتحويل مجاري الانهار، تتسم دائما بضخامتها الهائلة وأثمانها الباهظة وآثارها المضرة بالبيئة.

ولمواجهة مشكل خصاص الماء في بلد قاحل كموريتانيا، لا بد من وضع استراتيجية محكمة لتحقيق ما أصبح يطلق عليه اليوم الامن المائي – على غرار الأمن الغذائي، في عالم أصبحت ساكنوه يخشون اندلاع حروب مدمرة للبحث عن مصادر للتزود بالماء. ومن هذا المنطلق سيكون من المفيد عبر هذه المقاربة المبسطة التطرق للموضوع بكل جوانبه:

الموارد المائية، انتاجها، توزيعها، استخداماتها، تخزينها على المستوى الوطني.. وفي الاخير محاولة الخروج بجملة من التوصيات والاستنتاجات، الهدف منها إثارة انتباه المقرر ومن ثم القارئ حول خطر أصبح يحدق بنا، بتمثل في أزمة مائية خطيرة، بدون ايجاد الحلول المناسبة لها سوف لن نضمن الاقلاع الصحيح نحو تنمية مستديمة.

I–الموارد المائية في موريتانيا: التوزيع الجغرافي

قبل الحديث عن الموارد المائية لا بد ان نستعرض بعجالة الطبيعة الهيدرولوجية للفرشة المائية الموريتانية. تتميز الموارد المائية في موريتانيا وخصوصا الجوفية منها بتشتت جغرافي له علاقة مباشرة بطبيعة البنية الجيولوجية للبلد والتي يمكن تقسيمها إلى أربع وحدات هيدرولوجية أساسية وهي تباعا من الأسفل إلى الأعلى:

*الحوض الشاطئ: وهو عبارة عن حوض واسع مملوء بالنفايات العضوية، ومغطى بمساحات من الكثبان الرملية وتبلغ مساحته 10000 كم2 ويحتوي هذا الحوض على اهم البحيرات الجوفية (بحيرة الترارزة، بنشاب، بلنوار) ويمثل ثروة البلاد في مجال المياه.

*سلسلة الموريتانيد: والبنية الجيولوجية لهذه السلسلة تجعل منها منطقة خالية من المياه. وهي تمتد من إنشيري باتجاه الجنوب، وقد

توجد بها بعض التشققات التي تؤدي احيانا إلى تكون بعض البحيرات غير المتصلة.

*الحوض الترسبي لتاودني: وهو عبارة عن حوض شاسع جدا ممتد نحو الشرق باتجاه جمهورية مالي. ويحتوي الحوض على جيوب عديدة وهو منطقة غنية بالسوائل غير أنها مدفونة تحت تلال رملية كثيفة، مما يؤدي إلى صعوبات في مجال البحث والتنقيب، ويضم هذا الحوض التجويفات المائية في آدرار وتكانت والحوضين والعصابة وعيون العتروس، كما يضم الحوض الترسبي الثلثوي في الحوض الشرقي (منطقة الظهر).

*منطقة الهضاب الشمالية بتيرس الزمور وتازيازت: وتتميز هذه المنطقة بكونها أقدم منطقة تكونت عبر العصور الجيولوجية الاولى، وتمتد هذه المنطقة في شكل أحواض قديمة ثابتة، وغير عميقة، وهي غنية بالمعادن لكنها فقيرة من السوائل وإن كانت تحتوي على بعض التشققات الجوفية والمياه فيها بصورة عامة مالحة(1).

II-الماء في موريتانيا، الاحتياطي والانتاج:

تقدر المصادر المختصة(2) الاحتياجات الحالية للبلاد بحوالي 70 مليون متر مكعب في السنة منها 20 مليون متر مكعب تستخدم للأغراض المنزلية، أما الباقي وهو 50 مليون متر مكعب، فيستخدم لسد الحاجيات الأخرى.

ولتلبية هذه الاحتياجات تتوفر البلاد على موارد مائية يقدر الخبراء السطحية منها (بستة مليارات متر مكعب فيما يقدرون الموارد الجوفية بحوالي 50 مليار متر مكعب. ويشكل النهر السنغالي وروافده داخل البلاد إضافة إلى السدود المنتشرة في وسط وجنوب البلاد المصدر الرئيس للموارد المائية السطحية. أما بخصوص المياه الجوفية، فتتميز بطابع التشتت الجغرافي المرتبط مباشرة بمختلف البنيات الجيولوجية للبلاد. ويمكن تقسيم البلاد من حيث الغنى بالمياه الجوفية إلى ثلاث مناطق:

*المنطقة الهيدرولوجية: وهي منطقة غنية بالمياه وتضم الحوض الشاطئ والحوض الثانوي لتاودني ومنطقة العيون.

*الوحدات الهيدرولوجية المحددة طبقا لمعايير جيولوجية أساسية، وتضم هذه المنطقة آدرار، تكانت، العصابة وهي منطقة متوسطة الغنى بالمياه.

*المنطقة الثالثة: وهي منطقة فقيرة بالمياه وتضم الموريتانيد والشمال الموريتاني، وتنقسم المياه الجوفية فيها إلى مياه "متصلة" ومياه "متقطعة"، فالتجويفات المائية التي تعرف بأنها "متصلة" تقع في الأماكن ذات الثغرات للحوض الترسبي الشاطئ وفي منطقة "الظهر" بالحوض الشرقي ومنطقة العيون وتنتج هذه التجوفات كميات هامة من الماء تتميز بالجودة العالية. وعلى الرغم من العمل والدعوة إلى الاهتمام بمشكل المياه والتسيير المعقلن لها، غير أننا في الواقع ما زلنا نفتقد استراتيجية محكمة على المدى القريب والبعيد تعتمد تحقيق امن مائي لبلد كموريتانيا، يتوفر على مساحة شاسعة ويتعرض بصفة تواترية لموجات جفاف خطيرة.

وفي هذا الاطار يلزم النظر من جديد في برامج الانتاج والتزويد بالماء على المستوى الوطني عن طريق إعادة توزيع الماء من خلال إعادة تحديد النسب بكيفية دقيقة، خاصة ثروتنا المائية من نهر السنغال وهذا لا يعني ان علينا ان نوقف تدفق الماء إلى القطاع الزراعي بل يعني أن بإمكاننا خفض كمية

الماء الممنوح للفلاحة ليقل بنسبة 11% أو 5%.

لقد أثبتت الدراسات الخاصة بهذا الجانب أننا بقدر أقل من الماء نستطيع إنتاج محاصيل فلاحية أكبر وذلك من خلال الاستعانة بتقنيات معينة يتم اللجوء إليها كلما أصبحت الكميات المتوفرة من الماء قليلة، ويرى بيتر روجيرز peter rogerz الباحث الأمريكي الخبير في قضايا الجفاف وآثاره ان الناس كلما أحسوا بأنهم لا يدفعون سعرا مرتفعا مقابل الماء كلن استعمالهم له أكثر تبذيرا وفوضوية.

إنه سلوك إنساني وليس نتيجة وضعية اقتصادية معينة ينبغي إذا أن نطرح السؤال التالي: كم يكلفنا إنتاج وتوفير الماء؟ وما هي القيمة البديلة التي نحصل عليها مقابل هذه العملية المكلفة أي عملية استخلاص الماء من الأرض وإرساله إلى الجهات المستهلكة؟(3)

هناك إذن نقطتان للتحليل:

أولا: نقطة متعلقة بالاجابة على السؤال، لأي غرض يجب ان نستخدم هذا الماء بشكل يضمن تعويض ما خسرناه في انتاجه وتوفيره "يعني المردودية النهائية على اقتصاد البلد".

ويحدد دروجرز ثلاث جهات مستهلكة هي الزراعة والصناعة والسكان، ثم يطرح قضية تحديد السعر التي يرى أنها تحتل الصدارة في وضع أي خطة سليمة لاقتصاد الماء. وبصدد هذه النقطة يقترح روجز ملاءمة الأسعار مع مستويات القيمة المنتظرة من جهة ومستويات التكلفة الخاصة بالانتاج والتوزيع من جهة ثانية، ذلك ان التعرفة الخاصة بالماء المباع للسكان لمجرد الشرب والاستعمال المنزلي لايجب آن تكون مثل الماء المباع للأغراض الصناعية والزراعية، هذا لا يعني أن الغرض الأخير ليس مردودية لكن الأول أكبر مردودية.

ومن خلال تناول الموضوع من زاوية اقتصادية مثلا عن طريق إثارة تكلفة الانتاج والسياسات المائية المتبعة في موريتانيا، فإنه ينبغي القول إن نصيب القطاع المدني مثلا لا يزال ضئيلا جدا حيث تعاني معظم المراكز الحضرية في البلاد من خصاص كبير ومزمن في هذه المادة الحيوية، هذا على الرغم من أن موريتانيا لا تعتبر من البلدان التي تعاني فقرا مائيا لتوفرها على مخزون جيد من المياه السطحية، لكنه غير مستغل بشكل عقلاني حيث تقتصر الاستفادة على القطاع الفلاحي وتزويد بعض المراكز الحضرية المحاذية لضفاف النهر السنغالي بالماء.

وبخصوص برامج السياسات المائية من تنقيب عن الماء واستخراج وصيانة وبرمجة على المستوى الوطني فإنه يمكن ملاحظة تطور في مخططات التزود بالمياه الصالحة للشرب، فمثلا قبل فترة الثمانينات كانت معظم نقاط المياه في البلاد عبارة عن آبار تقليدية، وكان أول مشروع لحفر الآبار الانبوبية عرفته البلاد في وسط التسعينات "هو مشروع ستة وثلاثين بئرا" الذي اقتصر في النهاية على ثمانية عشر بئرا مجهزة بمضخات تعمل بالطاقة الكهربائية. هذا وقد وافقت الدولة سنة 1990 وبتمويل من الهيئات المائية على خطة تعمل على أساسها بتوفير نقطة مائية لكل تجمع سكني يزيد على 150 ساكنا، حيث تمت برمجة 2750 نقطة مائية قبل نهاية 2001 حسب مصادر إدارة المياه، ومنذ سنة 1993 اتخذت الدولة قرارا أصبحت بموجبه المجموعات السكانية تقوم بالتسيير التام لمنشآتها المائية.

وفي هذا الاطار دائما، أي وضع استراتيجية بعيدة المدى للحيلولة دون وقوع أزمة مائية، نقترح مجموعة من النقاط التي نرى أنها يمكن ان تساعد في التخفيف من مشكل خصاص الماء:

أولا: يجب على الدولة أن تضع أسسا ادارية وتنظيمية في اطار سياسة محكمة توفق بطريقة معقولة بين الموارد والحاجيات، واتباع المناهج الهادفة إلى المحافظة على انتاج زراعي يضمن تدبيرا معقلنا لمخزوننا من المياه السطحية، وذلك عن طريق استخدام تقنية السقي بالمحور الدائري، واستعمال نباتات تقاوم الجفاف واخرى يمكن سقيها بالماء المالح، والاستفادة من تقنيات جمع المياه وتخزينها.

ثانيا: بخصوص المستوى التشريعي، أنشاء مجلس اعلى للماء مهمته اعداد الاختيارات الوطنية الكبرى في ميدان السياسة المائية لمعرفة وتخطيط وتدبير المياه، وكذا التجهيز الشامل للأحواض المائية، بما فيها الناضبة. هذا المجلس تسند إليه اعادة النظر في مشروع الأمر القانوني رقم 85/144 الصادر بتاريخ الرابع يوليو 1985 الذي أنشأ النظام المتعلق بالمياه وكيفية تسييرها بالنسبة للمياه غير الاقليمية، ونظام المنشآت المائية، وهو النظام الذي يلغي ويحل محل النظم التقليدية المتبعة في مجال المياه(4).

ثالثا: تدبير المياه الصالحة للشرب عن طريق تطبيق برنامج يعتمد على الحد من التبذير في الماء على مستوى الانتاج او التوزيع وتوعية العموم والمستهلكين الكبار من أجل اقتصاد الماء.

رابعا: المراقبة الكاملة لعملية الضخ، لتفادي الاعطاب التي تسبب ضياعا غير ضروري للماء.

خامسا: تعبئة كل الوسائل للتعرف على الموارد المائية الجوفية، وخاصة ما يتعلق منها بالطبقات المائية العميقة.

سادسا: في مجال التكوين والبحث الجيولوجي:

*تنمية برامج البحث قصد الاستعمال الفعال للماء.

*تكوين الأطر المتخصصة في تدبير المياه.

*تعميق وتطوير البحث وتنمية تبادل الخبرات بيننا وبين الدول الرائدة في مجال جمع وتخزين المياه وتدبيرها بشكل عقلاني.

إن الأخذ بهذه النقاط مجتمعة يمكن أن يشكل بداية لرسم استراتيجية مستقبلية للماء في موريتانيا تكون فعالة ومضمونة النتائج وذلك لتحقيق هدف الإقلاع نحو تنمية مستديمة.

الهوامش:

1-

2- الشعب عدد 6860بتاريخ 19 مايو 2000

3- بيتر روجرز: محاضرة بعنوان الآثار الاقتصادية للجفاف على المغرب العربي- الوكالة الأمريكية للتعاون الدولي. الرباط- سبتمبر 1995

4- الأمر القانوني رقم 144-85 الصادر بتاريخ 4 يوليو 1985 المتعلق بتنظيم المياه وكيفية تسييرها.

التصنيع في موريتانيا: دراسة جغرافية

تقديم اطروحة

محمد المختار ولد النحه

يندرج اهتمامي بموضوع "تصنيع موريتانيا: دراسة جغرافية" في سياق دراسة المشكلات الراهنة التي تشهدها موريتانيا كاحدى بلدان العالم الثالث، والمتمثلة من جهة في حيثيات احداث التنمية القطاعية الجهوية بعد فشل إستراتيجيات التنمية الشاملة المعتمدة خلال العقدين الأولين للاستقلال، ومن جهة أخرى دراسة هذه الحيثيات في اطار الانعراج الجديد في العلاقات الاقتصادية والتعاون الدولي، ممثلا في العولمة الاقتصادية، بعد أن ظلت هذه العلاقات حتى نهاية السبعينات ثنائية الربط بين الدولة المستعمرة والمستعمرة الأم. وقد ظل التصنيع بالبلاد نتيجة لذلك نظاما مستوردا، تابعا للتجارة الخارجية، مما أحدث تناقضات اقتصادية ومجالية واجتماعية عميقة، رغم انه قد هيمن على أولويات التنمية الوطنية باعتبار أهميته في احداث تنمية منشودة ظلت خياراتها اوطنية المعلنة ضبابية سواء خلال مرحلة التسيير الاقتصادي، وبعد ان أصبح القطاع الخاص يتحمل مسؤولية التنمية خلال مرحلة التحرير الاقتصادي. وقد حققت الموضوع من خلال طرح اشكالية عامة واخرى فرعية، شكلت بالنسبة لي مرشدا اساسيا خلال كامل مراحل التحقيق.

وقد تمحورت الاشكاليات العامة حول ما اذا كان واقع الانشطة الصناعية بموريتانيا يشكل تصنيعا فعليا من حيث مفهومه التنموي؟ أي ما إذا كان له دور في احداث تطور اقتصادي وهيكلة في المجال وتحول للمجتمع؟ أما الاشكاليات الفرعية فتتمحور حول الطبيعة النوعية لهذا التصنيع، أهو تصنيع توضيبي؟ أو استراتيجي؟ او تحويلي؟ بعبارة اخرى ما اذا كان تصنيعا خفيفا لاحلال الواردات ام تصنيعا لتقويم الصادرات؟ وما هي الميكانزمات التي ساهمت في احداثه وتطوره؟ وقد حاولت تفكيك رموز هذه الاشكاليات من خلال افتراض فرضيات من أهمها:

-كون عدم تجانس واندماج هذه الأنشطة وحداثتها نسبيا كلها عوامل قد حدت من قدرتها على تقويم قطاعات اقتصادية اخرى وامكانيات هيكلة المجال وتطوير انماط الاستهلاكات العصرية.

وقد حققت الموضوع وفق مقاربة منهجية مفادها ان طبيعة البحث الجغرافي الذي يتميز بدراسة تداخل العلاقات والتفاعلات الاقتصادية والمجالية والاجتماعية تفرض على الباحث ضرورة الاستفادة من مقاربات مختلفة، حتى ولو كانت غير جغرافية. وعليه، فقد اعتمدت على المقاربة التاريخية في رصد تطورات التصنيع بالبلاد وامكانية تحيينها، والمقاربة الاقتصادية في تحديد عوامل قيد أو دفع التنمية الظاهرة، ثم المقاربة الاجتماعية في قياس مستويات تطور الاستهلاكات العصرية مما يساهم في مضاعفة تصريف المنتوجات الصناعية، وأخيرا المقاربة الجغرافية الشمولية بالاعتماد على المنهج

المنظومي و التحليـــل الاســتنباطي باعتبــار اشكاليات:

*العوامل الداخلية و الخارجية التي ساهمت في احداث الظاهرة.

*دراسة المحـــددات الطبيعيـــة و الاقتصاديـــة و السوسيو مجالية للظاهرة.

*دراسة عناصرها البنيوية.

*دراســة الخصــائص الوظيفيــة للبنيــــات الصناعية وترابطاتها المجالية.

*الانعكاســات الوظيفيــة علــى المســتويات الاقتصادية و المجالية و الاجتماعية.

ونتيجة لندرة الدراسات الجغرافية فـــي هــذا الحقل، و الطابع الموضوعاتي الذي يغلب علــى ما تم إنجازه حتى الآن، فقد اعتمـــدت علـــى تحقيقاتي الميدانية بهدف سد الفراغ المعرفـــي، ومن أجل تحيين المعطيات المتعلقة بالموضوع عن طريق تحقيق وتطبيق ثـــلاث اســتمارات نوعية، تشتمل كل منها على أســئلة مفتوحـــة وأخرى مغلقة، ثم دعمها بالكثير من المقابلات الشخصية.

ورغم ان لصعوبات كانت حتمية ومتنوعـــة، فقد تم تحقيق الموضوع وفــق تصميــم عــام يتمحور حول اربعة ابواب وتســعة فصــول، ممهد لها بمقدمة عامة.

الباب الاول: الامكانـــات المتاحـــة ومراحـــل التصنيع.

الفصل الأول: الأســس الطبيعيـــة و البشـــرية للتصنيع.

الفصل الثاني: مراحل تطور التصنيع.

الباب الثاني: البنيات العامة للقطاع الصناعي.

الفصل الاول:بنية المؤسسات الصناعية.

الفصل الثاني: القطاعات الصناعيـــة: هيمنـــة الانشطة التصديرية.

الباب الثالث: التمركزات الصناعية: العوامـــل التفسيرية الحالية و الأشكال.

الفصل الأول: التوزيع المجالي للصناعات.

الفصل الثاني: العوامل المفســـرة للتمركـــزات الصناعية.

الفصل الثالث: أشكال التمركزات الصناعية.

الباب الرابع: الصناعات و علاقاتها بالمجـــال و المجتمع.

الفصل الأول: التوزيع المجالي للصناعات.

الفصل الثاني: العوامل المفســـرة للتمركـــزات الصناعية.

الفصل الثالث: أشكال التمركزات الصناعية.

الباب الرابع: الصناعات و علاقاتها بالمجـــال و المجتمع.

الفصل الأول: أثر الصناعـــة علـــى البنيـــات الاقتصادية الوطنية.

الفصل الثاني: الصناعة و البنيات الاجتماعيـــة و المجالية.

خاتمة استنتاجية.

ونستنتج من خريطـــة التوزيعـــات المجاليـــة لامكانات التنمية الجهويـــة أن هنـــاك خمـــس مجموعات كبرى لموارد الثورة التي يمكنـــها ان تساهم في قيام وتطور التصنيـــع بـــالبلاد (الخريطة:2)، من حيث أهميـــة المنتوجـــات الزراعية (صناعة مطاحن الحبوب)، وتربيـــة الحيوانات(صناعة الجلود و النســيج و الحليـــب و الألبـــان و الزيـــوت الحيوانيـــة، و صناعـــة العلف..) المجموعتان "2" و "3"، ثم صناعـــة تعصير الفواكه و الخضـــراوات. (المجموعـــة

الجدول رقم "13" توزيع المقاولات حسب الاستثمارات سنة 1994:

(القيمة بالمليون اوقية)

فئات الاستثمار	المقاولات الصناعية-		الاستثمارات	
	العدد	%	القيمة	%
اقل من 50 مليون	14	38.88	366600	3.06
من 50 إلى 999	19	58.77	2958785	24.70
اكثر من 999	3	8.53	8651204	72.24
المجموع	36	100	11976589	100

المصدر تحقيق ميداني –شتمبر 1996.

الجدول رقم "15" توزيع القطاعات الصناعية حسب المؤشرات سنة 1993 القيمة بالمليون:

المؤشرات الصناعية/ القطاعات الصناعية	المؤسسات		الانتاج		القيمة المضافة		الشغل	
	العدد	%	القيمة	%	القيمة	%	العدد	%
الصناعة الاستخراجية	7	10.76	21651	39.8	9012	62.88	4210	72.3
الصناعة المعملية	43	70.76	4904	9.01	1005	7.01	1012	17.4
الصيد الصناعي	12	18.48	27837	51.1	4314	30.1	600	10.3
المجموع	65	100	54392	100	14331	100	5822	100

المصدر تحقيق شخصي من مرجعي:

Ministère du Plan – publications ONS 1995. Éléments de conjoncture PP 5/11.1

Ministère des Mines et de l'industrie publications 1994 op . cit p/1.2

"4") والصناعات الاستخراجية، والسمكية، والفلزية، والميكانكية (المجموعة "5"). بالاضافة إلى نسيج خفيف للصناعات المعملية والانشطة الخدماتية (المجموعة "1").

وقد شهد النسيج الصناعي تطورات اساسية خلال ثلاث مراحل متمايزة بفعل سياسة الدولة التي جعلت من أولوية قطاعية خلال العقود الثلاثة الأولى للاستقلال، سواء بالنسبة لاصدار سلسلة من قوانين الاستثمارات الصناعية او بالنسبة لمساهمتها المباشرة في التحقيق لصناعي كاستخراج الحديد والنحاس، وتكرير البترول، وصناعة السكر والخياطة العصرية..(الخرائط رقم: 4،5،و6).

ورغم ان النسيج الصناعي الوطني يتكون من قطاعات وفروع صناعية متمايزة (الرسم 2)، فإنه يتميز بهيمنة الصناعات الصغيرة والمتوسطة، سواء من حيث متغيرات عدد فئات المستخدمين بالمؤسسات (الجدول رقم "8")، او متغيرات رقم المعاملات (الجدول رقم "11") والاستمارات (الجدول رقم "13").

كما يتميز النسيج كذلك بضعف التجانس والاندماج بين القطاعات الصناعية النوعية من حيث اهمية المؤشرات الصناعية المحققة لفائدة القطاعات التصديرية (الجدول رقم "15")، نتيجة لهيمنة الانشطة المنتجة لمواد نصف مصنعة تعتمد على عمليات الاستخراج والتعبئة والتلفيف والتوضيب الصناعي مقابل ضعف النشاط الصناعي التحويلي. أي أن نسبة 33.8 فقط من المؤسسات هي التي تعمل على تقويم مواد اولية محلية.

اما القطاع المعملي، فيشهد هيمنة فروع الصناعة الفلاحية ،الغذائية والكيماوية البالستيكية، والصناعة الفلزية وصناعة مواد البناء (الجدول رقم "26")، أي سيطرة الصناعات الاستهلاكية، خاصة الغذائية وفق إستراتيجيات ملء البطون على حسب إستراتيجيات إحداث صناعات التجهيز التي تشكل اللبنات الأولى لأنظمة التصنيع.

الجدول 8: توزيع المؤسسات الصناعية حسب فئات المستخدمين

فئات المستخدمين	المؤسسات		المستخدمون		متوسط الاستخدام بالمؤسسة
	العدد	%	العدد	%	العدد
اقل من 49 عاملا	39	62.5	1050	10.4	26.4
من 50 الى 99	11	17.74	710	7.03	64.5
من 100 الى 199	1	1.61	165	1.63	165
اكثر من 200 ع	11	17.74	8171	80.9	742.8
المجموع	62	100	10096	100	999.2

المصدر تحقيق ميداني اغشت 1996.

الجدول رقم "11" توزيع المقاولات الصناعية حسب حجم رقم المعاملات سنة 1995 القيمة بمليون اوقية

فئات رقم المعاملات	المقاولات		رقم المعاملات	
	العدد	%	القيمة	%
اقل من 50 مليون	5	19.23	96173	0.29
50 الى 999	17	65.38	3792921	11.78
اكثر من 999	4	15.39	28300608	87.93
المجموع	26	100	32189703	100

المصدر تحقيق ميداني شتمبر 1996.

خريطة رقم 2 : التوزيعات المجالية لامكانات التنمية الجهوية بموريتانيا

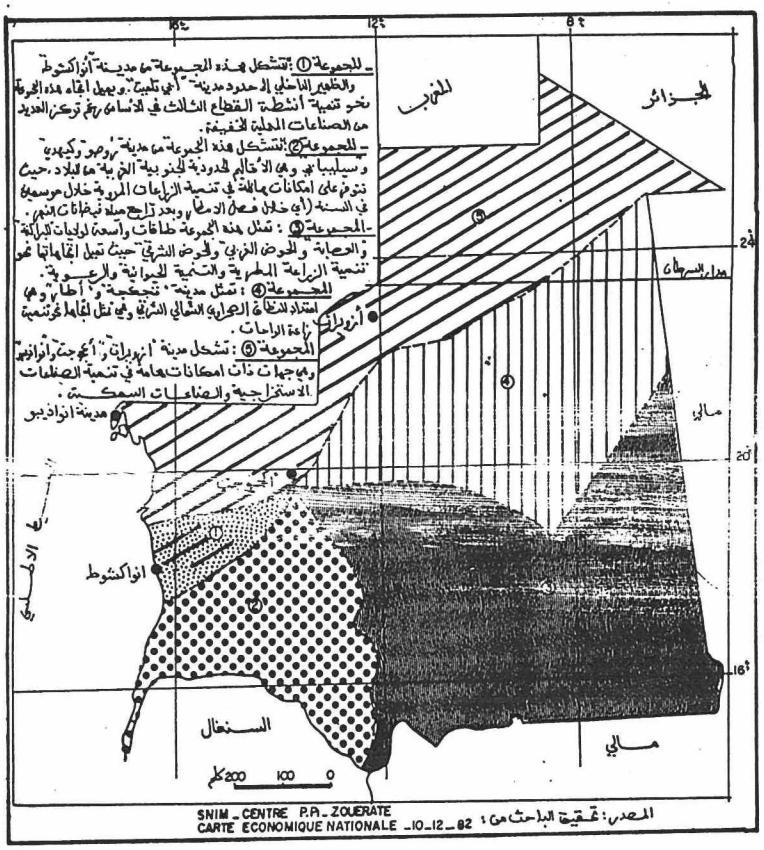

خريطة رقم 6 : التوزيعات الصناعية بموريتانيا سنة 1995

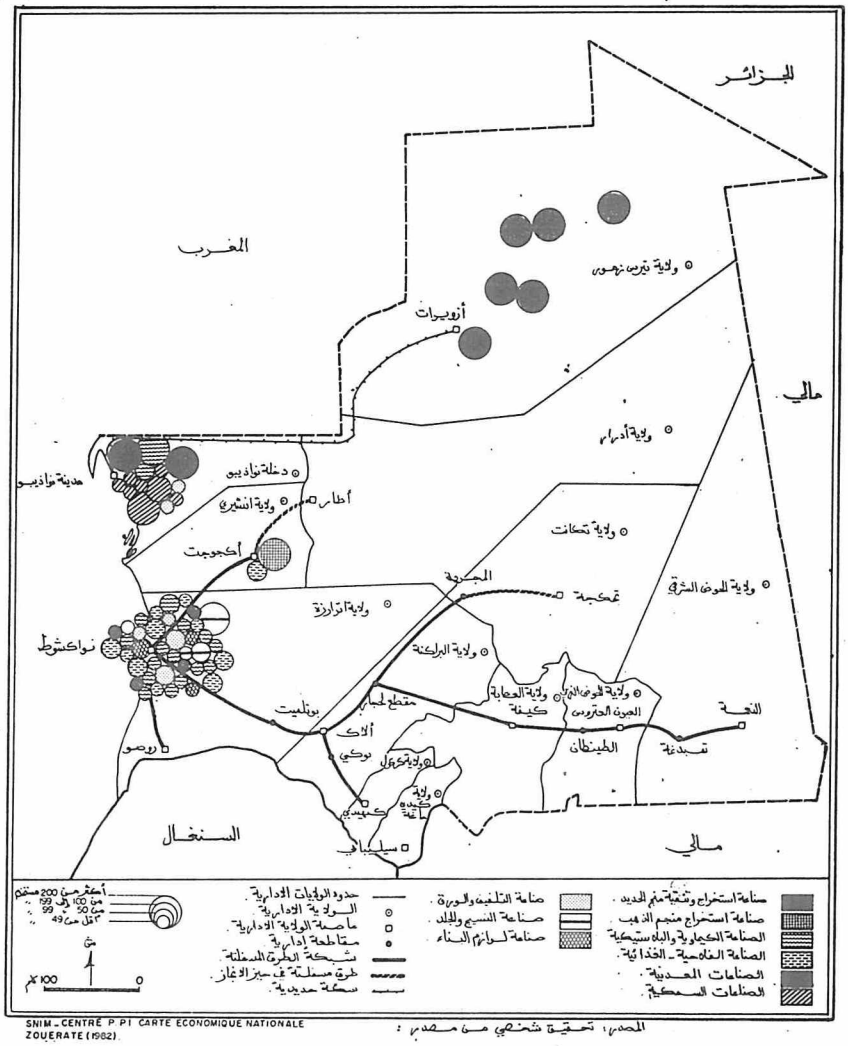

SNIM - CENTRE P PT CARTE ECONOMIQUE NATIONALE ZOUERATE (1982)

المصدر : تحقيق شخصي من مصدر :

خريطة رقم 5 : التوزيعات الصناعية بموريتانيا سنة 1985

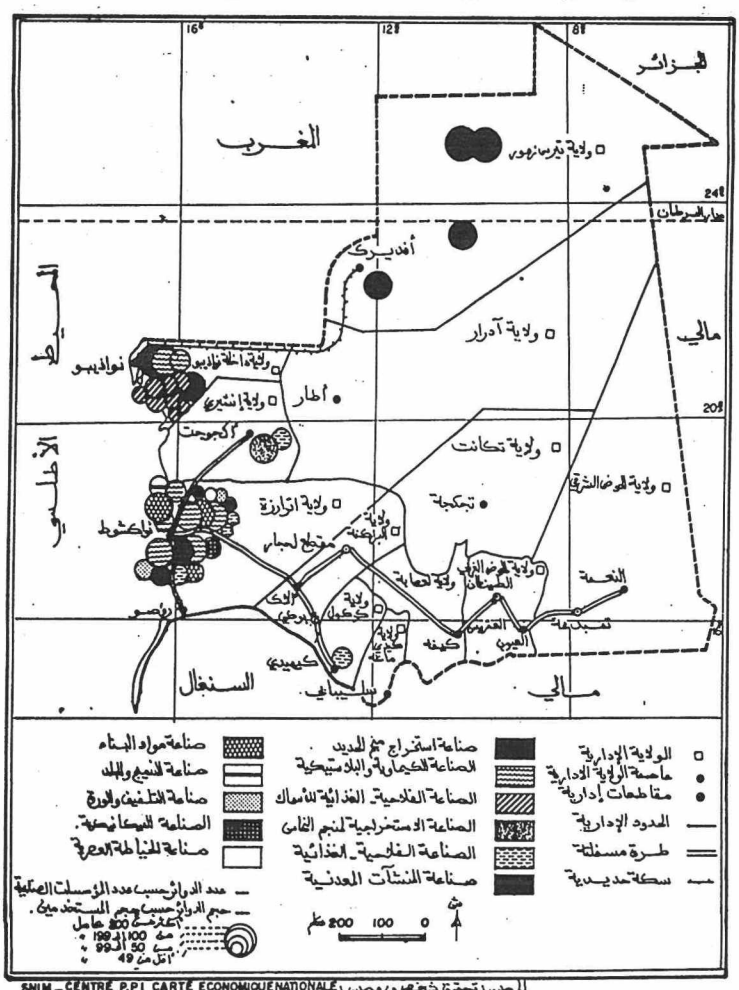

المصدر : تحقيق شخصي من مصدر : SNIM _ CENTRE P.P.I CARTE ECONOMIQUE NATIONALE ZOUERATE (1982).

خريطة رقم 4: التوزيعات الصناعية بموريتانيا سنة 1975

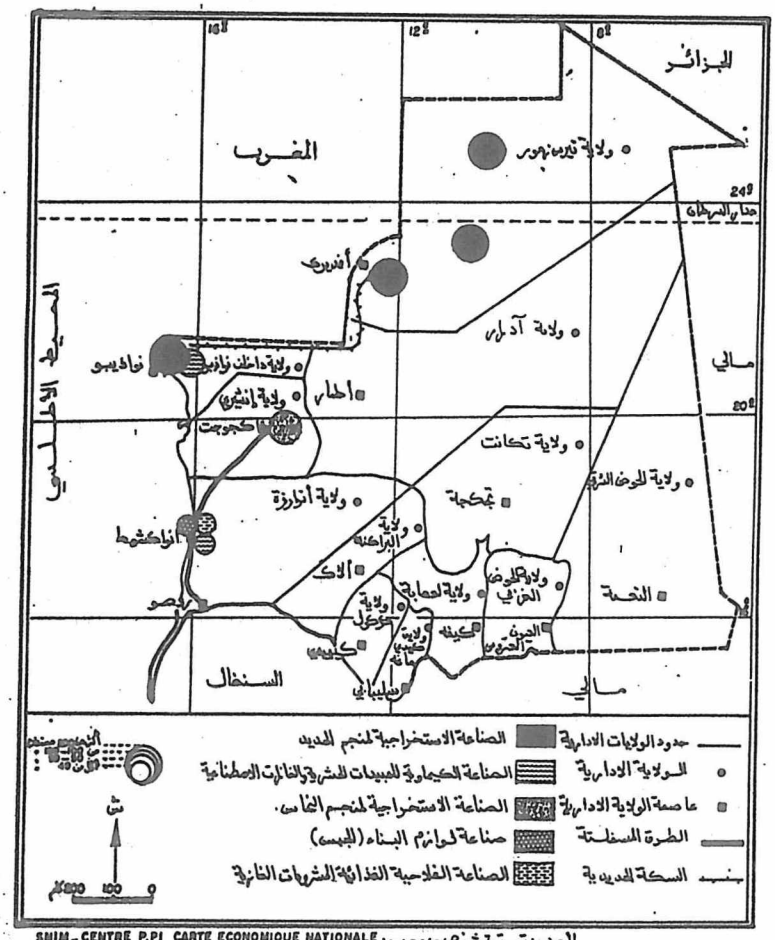

المصدر: تحقيق شخصي مصدر: SNIM_CENTRE P.PI CARTE ECONOMIQUE NATIONALE ZOUERATE (1982).

الرسم رقم (2)

بنية النشاط الصناعي الوطني سنة 1995

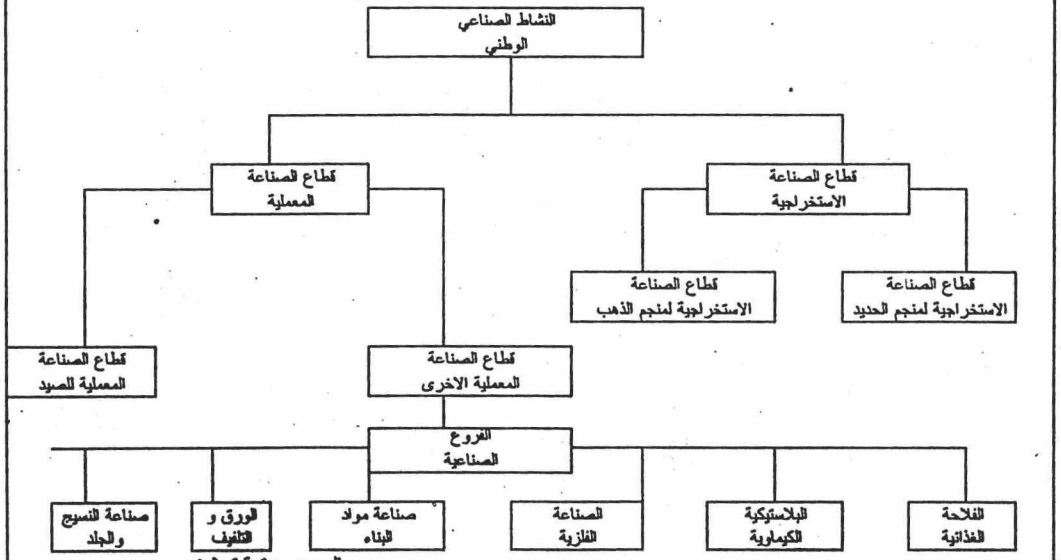

المصدر : تحقيق شخصي

جدول رقم (26) : التوزيع الصناعي حسب المؤشرات والفروع الصناعية بقطاع
الصناعة المعملية سنة 1993
القيم بملايين الاوقية

المؤشرات الصناعية	المؤسسات الصناعية			الاستمارات الصناعية			الانتاج الصناعي			القيمة المضافة			حجم الشغل			إنتاجية الشغل	
الفروع الصناعية	العدد	%	نسبة التطور 93/92	القيمة	%	92/93	القيمة	%	92/93	القيمة	%	92/93	العدد	%	98/93	القيمة	%
الصناعة الفلاحية الغذائية	16	34,78	-11.2	1694863448	40.1	16.02	1837.2	43.6	34	316.3	31.4	10	445	43.9	4.4	4128651	15.7
الكيماوية البلاستيكية	15	32,6	-16.7	705657938	16,7	5,18	758,62	18,04	19,5	245,944	24,46	30,22	181	17,88	-1,63	4191292	15,97
الصناعة الفازية	5	10,88	-50	864511022	20,46	10.64	652,042	15,5	9,5	240,009	23,87	35,43	192	18.9	0,52	3,396,052	12,94
لوازم البناء	4	8,69	0	580684130	13,75	4,07	704,4	16,75	7,7	121,9	12,18	-9,4	84	8,3	0	8386238	31,98
التاليف والورق	3	6,52	-50	146715752	3,48	0	250.383	5,95	7,56	80,9	8,05	-9.72	41	4,05	-24,07	610644	23,27
النسيج والجلد	3	6,52	-50	231602177	5,48	0	1,953	0,04	0	–	–	–	69	6,81	0	28,304	0,10
المجموع	46	100	-24.6	422403445	100	35,91	1904675	100	20,36	1005230	100	-3.87	1012	100	-20,72	4846.516	100

المصدر : تحقيق الباحث من الملاحق I , II , III , IV , V من مصدر
Publications MMI (1994) Op , cit

charges obligatoires qui constituent le noyau dur de sa vie dont la ceinture protectrice est une sociabilité respectant ses ressources limitées et sa personnalité individuelle. L'histoire n'est plus au respect de la «thèse du temps statique de l'Africain »fier de son passé et consommateur de la modernité mais comme l'écrit avec raison Schreiber : « le temps en Afrique a à la fois une valeur culturelle et symbolique très importante dans la manière dont il est vécu et ressenti. Pour cela, il est pour être franc, une richesse et un handicap. Une richesse dans la mesure où l'on est en concurrence au niveau de la productivité par exemple »6. Cette rationalité du pouvoir peut asseoir solidement notre culture profonde. La première est la base sans laquelle nous nous perdrons dans le labyrinthe de la modernité. La seconde nous éclaire comme la lanterne du Diogène et nous assure un équilibre psychologique par la bonne gestion de nos ressources rares faces à nos besoins illimités.

Notes et renvois :

1. Samuelson (P.A) l'économie I Tome I, P.8 collection Arnand Colin 1980
2. Tylor in Dictionnaire économique et social Hatier 1990 P.123
3. Rochert(G) Dictionnaire Op cit P123
4. Lopez Tribaliques P.68 NEA, 1987
5. Manguelle (D.E) l'Afrique a t-elle besoin d'un programme d'ajustment culturel ? P.55
6. Samuelson (P.A) l'économie I Tome I P.8 collection Arnand Colin 1980
7. Tylor in Dictionnaire économique et social Hatier 1990 P.123
8. Rochert(G) Dictionnaire Op cit P123
9. Manguelle (D.E) l'Afrique a t-elle besoin d'un programme d'ajustement culturel ? P.55 Edition Nouvelles du Sud 1991
10. Scheirber in Manguelle Op cit P.45 ENS 1991

Bibliographie

1. Samuelson (P.A) l'économie I Tome I, P.8 collection Arnand Colin 1980
2. Abraham-frois (G) économie politique Economica 5ème édition 1992
3. Gillis (M) et all. Economie du développement nouveaux Horizons 1990 Traduction de l'Américain par Baron-Renault (B)
4. Manguelle (D.E) l'Afrique a t-elle besoin d'un programme d'ajustement culturel ? P.55 Edition Nouvelles du Sud 1991
5. UNESCO l'affirmation de l'identité culturelle dans le management : comment dans l'Afrique contemporaine UNESCO/PUF. 1981
6. Bollingert (D) et Hofste de Les différences culturelles dans le management comment chaque pays gère-t-il ses hommes ? les éditions organisations, Paris 1987
7. Davidson(B) les Africains ; introduction à l'histoire d'une culture noire Editions du seuil 1971.
8. Diop (C.A) l'unité culturelle de l'Afrique noire présence africaine 1959
9. Henry (J/R) nouveaux enjeux culturels au Maghreb Edition du CNRS 1986
10. Njoh –Mouelle (E) jalons III problèmes culturels Edition clé, 1986

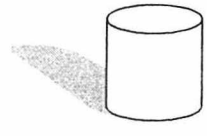

signifie pas la rigidité des préférences des agents économiques que les consommateurs et les producteurs mais une souplesse qui permet la correction des écarts entre la réalité et l'escompte. Evoluant dans un environnement caractérisé par la rareté des ressources par rapport aux besoins des hommes doivent opérer des choix pour obtenir les meilleurs résultats. Donc un individu est dit rationnel s'il est capable d'effectuer ses dépenses à la limite de ligne budgétaire autrement dit en consommant tout son revenu ou en n'en dépensant qu'une partie. Dans le premier cas son épargne est nulle : dans le deuxième cas il pourra dégager une épargne positive . S'il dépense plus que son revenu, il accusera une désépargne c'est à dire un épargne négative ou un endettement . Ainsi dans une économie à deux biens , si un individu gagne un salaire de 20000 UM : il peut consacrer tout son revenu à l'achat des deux biens ou il affectera 15000 UM à l'acquisition des deux biens et aura une épargne positive de 5000UM.. S'il dépense 30000UM pour obtenir les deux biens et pour ses loisirs ou les cas dits sociaux alors il doit s'endetter de 10000UM. Cela revient à dire que les agents économiques qui gagnent des revenus ont intérêt à être rationnels c'est à dire à s'efforcer de rendre maximal le résultat de leurs opérations pour un coût donné ou rendre minimal le coup de leurs opérations pour obtenir un résultats ».

Cependant l'on sait que dans la réalité, les comportements des agents économiques sont irréfléchis, irrationnels, largement déterminés par des conditionnements sociaux ou instinctuels. Combien de fois avons-nous succombé au charme de la marchandise la plus chère croyant qu'elle est de meilleure qualité ? Combien de fois les cas sociaux nous ont incité à vider nos épargnes ou à nous endetter ? Les pays africains sont minés par une convivialité excessive et un réseau de solidarité sociale qui peuvent tuer des talents, traumatiser des familles et inhiber des capacités individuelles. Tout se passe comme si la plupart des chefs de famille avaient la fierté d'entretenir toute une kyrielle de dépendants de soumis acquis à leurs causes. Ils cultivent cet égoïsme abject jusqu'à la jalousie et au désir d'empêcher certains de ces actifs méritants de percer, d'obtenir un travail d'être enfin économiquement indépendants. L'économiste Barrada n'avançait-il pas qu'en «Afrique le grand malheur du patriarche, c'est de voir rétrécir le cercle des dépendants ». ces chefs de familles devenant les miroirs du village ou de la famille veulent le rester tout en cultivant la médiocrité et en enterrant les valeurs naissantes que peuvent être leurs cousins, leurs frères, les ressortissants du même village et les autres citoyens. Choses étranges ! Personne n'est content mais on rit ensemble, on mange ensemble et on étouffe tout conflit ouvert au détriment de la rationalité et de la justice comme l'écrit si bien Manguelle ; «c'est la recherche effrénée d'une paix sociale basée sur l'unanimité qui pousse l'Africain à évacuer tout conflit et à refouler la violence dans le monde de l'invisible... dans certaines sociétés africaines, le refus des conflits est tel que même la justice ne peut être rendue au grand jour 5 ».

On voit que la mauvaise responsabilité de la mauvaise gestion du revenu est partagée. Si le réseau de solidarité sociale était ouvert, entendu, les contributions individuelles au produit social vont soit améliorer le bien être de la grande famille africaine soudée soit engendrer des autonomies individuelles libres de diriger leur destin. En tout état de cause goûter à la solidarité et la perpétuer. Aucune analyse économique et culturelle ne peut être complète si elle ne cherche pas insérer l'Afrique dans la mouvance de la mondialisation «ce fait exprimant l'effacement des frontières nationales ». Les pays africains ne peuvent pas donc se payer le luxe de s'enfermer dans des comportement qui les mettent à la touche de la contribution à la civilisation de l'universel . Chaque individu a des

pas leur art à la recherche pécuniaire. Nos peintres, nos artisans et sculpteurs se font un nom dans d'autres nations en participant à des manifestations internationales (foires, expositions.) Nos comédiens se fraient un grand chemin dans le monde artistique. Ils constituent l'une de nos fiertés. Une main experte façonne un objet et met une chose culturelle représentative du vécu social. Une autre main le saisit, se l'approprie par l'échange pour nourrir un autre esprit culturel et réjouir un autre cœur individuel quant à nos cinéastes, beaucoup de nuages obscurcissent le ciel de leur profession ; non seulement la faiblesse de leur nombre est manifeste mais la modicité de leur moyen est un handicap ; ils avancent à pas timides dans la qualité de leur production s'ils ne sont pas la marge des consécrations internationales.

Quiconque analyse l'économie de la culture en Afrique ou s'y intéresse reste frappé par la prédominance de la musique, la vivacité de la comédie, la beauté de la peinture, la somptuosité de l'artisanat, les grands pas de la sculpture, la timidité du cinéma et le difficultés du livre. Il est bien vrai qu'il est absurde de mettre dans la même loge le Burkina Faso, le Nigeria, le Mali, la Mauritanie et le Cap vert par exemple. Cependant on a l'impression que ces propos de Henry Lopez gardent toute leur fraîcheur et leur vérité : « je me disais - il faut bien s'amuser et se détendre. C'est un besoin moral. L'instant d'après, je me reprenais et me disais que la meilleure détente n'est pas la danse, qu'un bon livre est en la matière, supérieur et que l'Afrique à force de rire et de chanter s'était laissé surprendre par des peuples plus austères, qu'elle avait déporté et desservi(4). Il n'est pas donc pas illogique de parler de la faiblesse ou de la banalisation de la culture livresque, scientifique et technologique. Cette partie de l'économie de la culture ne cesse de verser des larmes dans l'océan houleux de la technoculture.

Dans nos familles les bibliothèques font partie du décor de nos salons mais soit elles sont remplies d'objets dignes de se pavaner dans la cuisine ou la chambre à coucher, soit les livres qui s'y trouvent dorment si longtemps et si morosement les enfants épatés par les merveilles de la télévision ou des jeux informatiques n'y goûteront pas le plaisir de la lecture à telle enseigne que leur contact avec le monde livresque, à l'école devient un «choc psychologique », une déchirure culturelle «. Ainsi sur le plan scolaire et universitaire, de nombreux élèves étudiants n'acquérant pas l'habitude de la lecture ne peuvent pas devenir amoureux du savoir et de la culture. Ce handicap intellectuel est aggravé par la médiocrité d'une grande partie de nos instituteurs et professeurs qui préfèrent le fleuve de l'argent à la mer de la richesse. Ces enseignants du primaire jusqu'à l'université entretiennent des rapports de superficialité, de banalisation, de désaffection et d'extériorité avec le texte, et n'ont jamais relu et approfondi un œuvre? Il est certain qu'il n'y a pas de lecture sans relecture ; point de culture intellectuelle solide sans ancrage idéologique ; point de réussite scolaire et universitaire sans amour intellectuel.

Nos administrations et nos entreprises souffrent de la défaillance de la culture intellectuelle. Combien de cadres de la fonction publique avouent ne lire que la presse publique obtenue sur abonne-ment officiel ? Heureux ceux qui lisent des journaux privés régulièrement ! Il ne peut pas y avoir de vraie culture d'entreprise si les employés ne lisent pas la lecture, malgré la fièvre de l'Internet demeure une pratique culturelle indispensable à l'homme moderne.

L'Afrique ne lit pas ou lit peu : cela est devenu une chanson fredonnée par maints observateurs ? Ceci ne facilite pas la vie des spécialistes ou des amoureux de la plume dans un monde ou la division du travail devient de plus en plus impitoyable . Dans ce sens, la culture économique s'avère primordiale pour la bonne gestion des revenus des agents économiques et pour épanouissement culturel. Elle est fondée sur le concept de rationalité. Cette dernière ne

Economie de la culture et culture économique

Par: Bâ Oumar Math
Docteur en économie
Chercheur

Le mot économie se réduit dans le langage courant à la limitation par un agent de ses dépenses pour constituer un pécule. l'individu prudent se soucie donc de mettre de côté une partie de son revenu ou de ses fonds pour pouvoir satisfaire des besoins ultérieurs. Au-delà de cette conception populaire, les économistes donnent une explication scientifique au concept de l'économie. C'est une science des richesses écrira l'auteur de la «richesse des Nations » ; c'est une science de l'échange et des choix défendront les économistes néo-classiques. Les agents économiques se confrontent à une rareté des moyens et à l'existence des besoins illimités ; par conséquent, ils sont obligés de faire des choix alternatifs et concurrents d'utilisation d'un revenu provenant de la répartition de la production nationale. C'est pourquoi, l'économiste américain Paul Samuelson affirme : l'économie recherche comment les hommes et la société décident, faisant ou non-usage de la monnaie d'affecter des ressources productives rares à la production à travers le temps de marchandises et de services variés ; et de répartir ceux-ci, à des fins de consommations présente et future entre les différents individus et les collectivités constituant la société1 ».

Quant à la culture, elle oppose chez l'homme, ce qui est inné de ce qui est acquis. C'est ethnologiquement, un englobant complexe qui dans une société interpelle «les connaissances, les croyances religieuses, l'art, la morale, le droit de la société »(2).

Ce condensé social donne la raison d'être et de se perpétuer à une communauté dont l'âme profonde se reconnaît et vit à travers ce miroir collectif. Une définition sociologique nous donnera une autre dimension de la culture. G. Rocher écrit : « la culture est un ensemble de manières de penser, de sentir, d'agir, plus ou moins formalisées qui sont apprises et partagées par une pluralité de personnes en collectivité particulière distincte»(3). Cette définition significative montre qu'on soit un Sibérien du Népal, un pygmée d'Afrique, un américain de New York ou français de Paris, la culture est une dimension importante de la vie sociale.

Les contenus ethnologiques de la culture englobent la culture intellectuelle qui s'exprime pour l'individu par l'émergence et la profondeur de ses lectures ses connaissances artistiques et musicales son bain profond dans le savoir livres que. C'est cette culture qui enfante la science, féconde la technologie, ouvre les horizons de l'aventure, donne le plaisir à la découverte et des ailes au progrès : Même si la culture intellectuelle est fille des cultures ethnologique et sociologique, elle s'impose trop tardivement dans l'évolution du patrimoine dynamique vitale, l'économie de la culture et la culture économique sont donc deux variantes indispensables à dissiper dans une Afrique directement impliquée dans les mutations du «village planétaire » d'Edgar Morin.

Dans les pays africains la culture intellectuelle est le parent pauvre de la culture générale. Elle a du mal à scruter dans nos administrations, dans nos entreprises dans nos institutions scolaires et universitaires. L'Afrique noire et blanche est réputée pour ses prestations musicales et artistiques. On assiste à une explosion et à une multiplication de musiciens à stature nationale et internationale ; beaucoup de ces musiciens excellent dans la musique folklorique ou moderne s'ils ne réduisent

1825 : Stendhal «d'un nouveau complot contre les industriels »
1834 : Balzac «la recherche de l'absolu »
1837 – 1843 : Balzac : « illusions perdues »
1837 : Barbier «Lazare »
1838 : Musset «Dupont et Durand »
1840-1842 : Cabet « voyage en Icarie »
1843 : Vigny «la maison de boges »
1846 : P.Dupont : « le chant des ouvrages »
1846 : Michelet : «le peuple »
1853 : V.Hugo : « les châtiments »
1855 : M.Ducamp : « les chants modernes
1856 : Victor Hugo «Les contemplations »

1862 : Cl Michu : « les chants de l'industrie »
1665 : J. Verne : « de la terre à la lune »
1867 : Labriche : « les chemins de fer »
1876 : A. Daudet. « Jack »
1877 : Cournot : Revue Sommaires des doctrines économiques
1880 : Lafargue : « le doit à la paresse »
1881 : Flaubert : Bouvard et Pecuchet (posth)
1884 : Huysmans : à Rebours
1885 : Zola. «germinal »
1886 :Villiers de l'Isle-Adam «l'Eve future »
1890 : Zola : «La bête humaine»
1891 : Courteline. « faceties dejean de Bulles ». «le train de 2 heures 47 »
1895 : Verhaeren : «les flammes hautes »
1901 : Zola : « Travail »
1909 : Marinetti : « Manifeste du futurisme »
1909 : R. Roussel : « Impression d'Afrique »
1914 : R. Roussel : « Locus – Solus »
1915 - 1923 : M. Duchamp : « Le grand verre »

Conclusion

C'certes ce répertoire n'est pas complet, mais nous l'avons voulu ainsi. Car les inventions contemporaines sont devenues l'objet d'autres types de réflexion.
Ce que nous avons voulu tenter à travers cet essai, c'est de démontrer d'abord les rapports historiques liants l'éducation à la philosophie et celle-ci à un type donné des sciences.
Aujourd'hui si l'UNESCO s'occupe du développement de l'éducation, de rayonnements culturel et scientifique et de la paix entre les peuples : il ne faut pas sous-estimer les efforts des philosophes d'hier qui ont inventé l'éducation, pensé la science, harmonisé la culture. D'autres philosophes continuent aujourd'hui.

Notes et renvois :

1. Christian Deschamps, artistes et philosophes : éducateurs? Collection Espace international. Philosophie. Paris 1994 éditions du Centre George Pompidou P.9
2. Paul Ricoeur. le conflit des interprétations
3. Mario Vieira De Mello. vers une éducation de la culture éditions UNESCO- l'harmattan 1999. P.160
4. Viera de Mello. Vers une éducation de la culture op. cité P.164
5. Christian Deschamps : artistes et philosophes : éducateurs op. cit.P.9
6. Ibid. P.13
7. (Abelard est un homme d'action français aux responsabilités ecclésiastiques et politiques considérables)
8. Renée Descartes : le discours de la méthode
9. Jean Louis Martinaud. Missions de l'éducation scientifique et technique revue internationale d'éducation n°25 mars 2000
10. Marie Madeleine Fontaine : l'homme et la machine Brodard Tarin paris 1981
11. Francis Bacon : le Novum Orgnum. extrait traduit par Gérard Escat in Bacon P.UF paris 1969 P.69
12. Alexandre Koyré. études d'histoire de la pensée scientifique P.UF paris 1986 P.148
13. Bacon : Novum Organum cité par Gérard Escat. Bacon op. Cité P.27
14. Gérard ESCAT. Bacon. Op cit P.14
15. Ces ouvrages pour ceux qui veulent approfondir leurs visions du sujet se présentent ainsi

- Brunschwigg. le progrès de la conscience. Presses universitaires de France paris 1966
- Galilée : Dialogues sur les deux grands systèmes. Traduction Michel Hermann 1966

16. Voir pour Koyre
- Etudes Galiléennes. Hermann 1966
- Etudes d'histoire de la pensée scientifique P.UF 1966

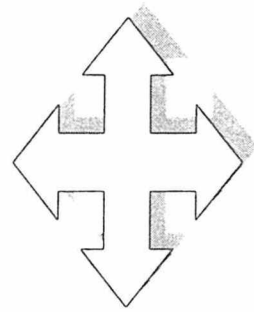

Découvertes et inventions

1450 : Gutenberg : Presse à imprimer
1492 : Christophe Colomb : découverte de l'Amérique
1452-1519 : Vinci mécanique : optique
1543 : Copernic : «De Révolutionibus Orbium Coelestium ».
1570 -1590 : Développement de l'optique

XVII siècle essor de la physique
1602 : Manufactures des Gobelins
1606 : Métiers à la tire pour le tissage
1611 : Kepler : théorie de la lunette astronomique
1616 -1663 : Procès de Galilée
1629 : Branca : Dessin de turbin à vapeur
1644 : Tube barométrique de Torricelli
1647-1653 : Pascal : - Expérience sur le vide
- Principe d'hydraulique
1651 : Machine pneumatique
1657 : Huyguens : Utilisation du pendule pour les horloges
1663 : Worcesler : Machine à élever l'eau par la vapeur
1670 : Balance de Roberval
1673 : Machine arithmétique de Leibniz
1681-1685 : Machine de Marly
1682 :Newton : Loi de Gravité
1690 :Machine à vapeur de Denis Papin

XVIII Siècle Apogée de la manufacture
1711 : Utilisation du coke pour réduire le minerai de fer.
-Machine à vapeur de Newcomen
1747-1754 : Lettre de Franklin sur l'électricité
1767 : Watt «perfectionnement de la machine à vapeur »
1772 -1793 : Travaux de Lavoisier et Laplace
1783 :Ballon de Montgolfier
1789 : Révolution française
XIXème siècle : essor de la chimie naissance de la grande industrie
1792 : Eclairage au gaz
1794 : La convention crée le conservatoire des arts et métiers
1799 : Système métrique
1803 : Première locomotive à vapeur
- Fullon : bateau à vapeur : roues à aubes
1805 : Métier à tisser de jacquard
1812 : presse à imprimer à cylindre
1822-1825: chemin de fer de stockton à Darlington - Stephenson)
1823 : Becquerel : travaux sur la thermoélectricité travaux de Faraday. Arago. Ampère.
1829 : Locomotive «la fusée de Stéphénson »
1833 : Chemin de fer Bancaire-alès
1837 : Chemin de fer Paris-Saint -germain Morse : télégraphie électrique faraday : induction électrostatique
1850 : Corliss : machine à vapeur
1852 : Second empire
1856 : Procédé Bessemer de préparation de l'acier
1860 : Moteur à gaz de Lenoir
1864 : première voiture automobile à essence
1869 : Canal de suez : exploitation du pétrole
1869 : Berger : turbine hydraulique
1871 : Commune de Paris
1871 : Dynamo électrique de gramme
1876 : téléphone de Bell Otho Moteur à 4 temps
1877 : Cros et Edison : invention du phonographe
1879 : Edison «lampe électrique à filament de charbon »
1886-1887 : Hertz : ondes électriques et effet photo-électrique
1889 : Exposition universelle de Paris Tour Eiffel
1890 : Laval : turbine à vapeur
1893 : Cellule photo électrique Kinéboscope (Edison)
1895 : Les frères lumière : 1ère projection cinématographique
1896 :Roentgen : rayons X
1897 Ader vol mécanique avec passager
1898 P et M curie : radium. Masconi : transmission radiotélégraphique

XXe Siècle :
1900 : Zeppelin : dirigeable
1902 : Bosch. alllumage magnéto électrique
1903 1904 : Les frères wrigtt : avion
1905 : Einstein : théorie de la relativité
1909 : Blériot : traversée de la branche
1918 : Rutherford : désintégration de l'atome
1919 : Films sonores
1921 : Téléphotographie
1927 : Realisation de télévision
1928 : Enregistrement sur bande magnétique cinéma parlant
1933 : Microscope électronique. Joliot-curie Radioactivité artificielle
1934 : Zworykin: Télévision
1940 : Radar
1945 : Bombe atomique d'Hisroshima

Ouvrages historiques

1532 : Rabelais «Gargantua »
1548 - 1551 : Rabelais : «Quart-Livre»
1562 : M-Scève : «Microcosme »
1637 : Descartes : «Discours de la méthode»
1650 : Cyrano de Bergerac : «Histoire comique des Etats et Empires de la lune»
«Des Etats et Empires du soleil»
1668-1694 : La Fontaine : «Fables»
1690 : Furetière: «Dictionnaire» Posth
1748 : «L'homme -machine»
1748 : Montesquieu: «Esprit des lois »
1751-1772 : D'Alembert et Diderot «encyclopédie »
1755 : Rousseau - « Discours sur l'origine de l'inégalité »
1782 : Condorcet : « Eloge de Vaucanson »
1803-1846 : Chateaubriand «mémoire d'outre-tombe »

devenues pour ainsi dire, des thèmes centraux des sciences de l'éducation(9), que c'est Mari Madeleine Fontaine qui dans un ouvrage(10) très intéressant, avait attiré l'attention sur l'intérêt croissant de cette culture.

Elle avait précisé que l'étonnant développement des machines n'a cessé de provoquer la réflexion sur les rapports que l'homme entretient avec cet instrument privilégié qui furent à l'origine de ces inventions. Notre point de départ parait donc être une conception de la science héritée du Novum Organum de Francis Bacon : «l'homme, interprète et ministre de la nature n'étend ses connaissances et son action qu'à mesure qu'il découvre l'ordre naturel des choses, soit par l'observation soit par la réflexion, il ne sait et ne peut rien de plus »(11). Ici se croisent la science et la puissance humaine et se renvoient pour avoir le même but. Car selon Bacon c'est l'ignorance où nous sommes qui nous prive de l'effet, pour transformer ce qui n'était que principe en règle, but ou moyen dans la pratique. Et c'est pourquoi certains commentateurs comme Alexandre Koyré(12) n'hésitent pas à le considérer comme l'un des artisans de la grande révolution intellectuelle que nous a donné la science classique, si on le compare à Galilée ou Descartes. A partir de la fin du XVIème siècle jusqu'à la fin du XVIIème siècle un changement spirituel commence dans tous les domaines: la science, la philosophie, la religion, la politique, la morale et aussi l'attitude de l'homme vis à vis de la vie et de la nature se transformera de façon radicale.

La «science devient active opératrice» même. On substitue « la praxis a la théorie»(13).

La grande révolution industrielle a donné naissance à un paradoxe: l'homme fait de la machine la marque de sa volonté de puissance, de sa maîtrise des forces de la nature qui jadis étaient brutales et désordonnées, et en même temps, elle (la machine) est pour lui le symbole du progrès.

C'est ce progrès, cette recherche du bonheur que la pensée philosophique a tenté de penser avec la grande idée de la philosophie nouvelle qui a pris forme le 12 octobre 1620(14), avec la parution du Novum Organum.

D'autres ouvrages plus sérieux, plus intéressants ; méritent ici la citation: «1- le Progrès de la Conscience. 2- le dialogue sur les deux grands systèmes»(15).

Les commentaires d'Alexandre Koyré(16) sur ses différents ouvrages et sur les idées scientifiques ne sont pas moins intéressants.

Un index chronologique des découvertes et des inventions scientifiques et des parutions d'ouvrages historiques nous parait intéressant pour le lecteur.

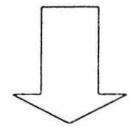

qui fût à l'origine de la séparation drastique qu'il a opérée entre métaphysique, éthique et politique, et avait abandonné totalement l'idée de l'éducation comme processus fondamental de la fusion des deux mondes, l'immanent et le transcendant. Donc contrairement à Platon et sa République qui est d'abord un dialogue sur l'éducation Aristote à dû abandonner cette idée. Mais cela ne pourrait jamais mettre en doute son statut de «maître» c'est-à-dire enseignant, véhiculé par la philosophie arabo-musulmane. Nous pouvons dire donc que le philosophique s'est tissé au pédagogique, depuis Platon (7). Ce qui n'a cessé de se développer tout au long de l'histoire de la philosophie. Car au moyen-âge, la tradition grecque s'est poursuivi, en se renforçant davantage avec le parti–pris de l'Eglise et de la nouvelle génération de penseurs théologiens. Ceci est d'autant plus clair à partir du «deuxième quart du XIIème siècle qui voit la (première scolastique) s'épanouir et la dialectique prendre son essor sous l'impulsion d'Abelard»(8). L'impulsion de l'action éducatrice du philosophe s'est exprimée de façon plus claire avec le discours de la méthode de René Descartes. Nous savons tous que Descartes publie ici le premier ouvrage philosophique dans une langue autre que le latin. Son ambition ici est de publier un livre que «la ménagère dans sa cuisine pourrait lire, que le jardinier pourrait comprendre. » Comme disait Descartes, pour la première fois la philosophie n'est plus réservée aux philosophes, mais à tout le public instruit. C'est une façon d'éduquer tout le monde et l'emmener à méditer et à raisonner. A partir de cet instant tous les importants ouvrages philosophiques sont des cours ou conférences prononcées par des enseignants philosophes. Des noms parmi les plus célèbres figurent dans cette liste : KANT, HEGEL, Kojève, Koyré et Foucault ... pour ne citer que ceux là.

Reste à préciser que l'éducation en tant que discipline se différencie de la philosophie de la théologie et de la politique. Car il existe un certain dynamisme que nous avons cité plus haut. Ce dynamisme est obligatoire et l'éducateur ne peut plus remplir ses fonctions sans ce dynamisme.

II- la philosophie et la science

A lire le titre de cette deuxième partie de cet article, le lecteur s'attendra comme dans la première partie, qu'il serait question de la philosophie et de la science, ou de la relation entre les deux. Mais il s'étonnera, car il ne serait question ni de philosophie ni de science ni de leur relation. (nous renvoyons à des articles précédents publiés en arabe dans cette même revue. Nous envisageons dans cet essai le problème d'un autre point de vue, celui du lecteur des sciences sous leur nouvel essor technologique. Nous pouvons dès à présent parler de culture scientifique ou culture technologique, face à la philosophie des sciences.

Il faut tout d'abord souligner les prémisses de ces deux types de cultures

instituant »(3). Cette ambition est certes importante, car elle vise directement le but de l'éducation qui est l'autonomie donc la liberté de soi. Eduquer c'est aussi véhiculer le savoir entre les hommes, mais surtout les instruire de façon à ce qu'ils soient en mesure d'en prendre conscience et de pouvoir en tirer les profits adéquats, et de le transmettre à leur tour. Cette idée est née d'abord en philosophie. Nous savons que les sophistes (par leur négation du savoir sous sa forme et son fond philosophiques), ont poussé Socrate à instaurer son historique méthode pédagogique : L'ART DE LA MAÏEUTIQUE. Celle-ci constitue à éduquer les hommes, tout en sachant qu'ils connaissent, mais oublient leurs connaissances. Le long questionnements (les fameux dialogues(4)) représentent le moyen de rappeler à l'homme ses connaissances, et ainsi il se libère.

PLATON, avait lui aussi dans la République poursuivit le chemin tracé par son guide penseur Socrate. Il a comme l'avait remarquablement souligné Vieira de Mello(5) dans son ouvrage édité par l'UNESCO que «les intentions éducationnelles ne précèdent pas mais succèdent aux projections politiques ». Car il semble que l'on avait vu dans la République, que son caractère politique. Celui-ci est certes présent voir dominant, mais le titre de l'ouvrage a joué le rôle de rideau qui cache tout sauf la scène destinée au public. Cet état prôné par Platon n'est-il pas un idéal d'éducation? Son Roi ne pourrait-il être qu'un philosophe, donc un éducateur?.

Il suffit d'exploiter «l'aspect mythe de la caverne » ou «allégorie de la caverne » pour en dire un peu plus. Elle se présente sous un dialogue et pour que celui-ci se déroule, il faut impérativement qu'il y ait deux dimensions : 1- une dimension imminente qui est le résultat des ombres projetées sur les parois de la caverne. 2- une dimension transcendante, résultat de ce qui est en dehors et au-dessus de la caverne: donc dans le monde des Idées.. Ces Idées, ces deux dimensions reflètent deux niveaux d'éducation ou deux types de cultures : le premier est celui des «habitants de la caverne » qui savent seulement qu'ils existent des ombres des choses, et celui du monde réel des idées, d'où nous pouvons comprendre le dynamisme propre à l'action éducationnelle du philosophe qui dirige le dialogue ou instruit les prisonniers de la caverne. Mais la philosophie platonienne ne pouvait prétendre au - delà de cette dynamique et de sa théorie des idées.

Chez Aristote par contre, la dynamique de l'action éducationnelle du philosophe est purement et simplement ignorée. Certes, il existe chez lui, comme l'avait remarqué Vernant Jean Pierre, «une certaine transcendance, mais on la rencontre seulement en métaphysique »(6). On pourrait aller plus loin encore avec DEMELO, en disant qu'Aristote a adopté une structure complexe des différents domaines de la discipline philosophique

L'éducation et la science en philosophie

Yacoub Ould EL Ghassem
Département de philosophie
Faculté des lettres

«L'empire de l'homme sur les choses n'a d'autre base que les arts et la science, car on ne commande la nature qu'en lui obéissant »

Francis Bacon

La philosophie s'est constituée dès sa naissance, selon deux modèles cognitifs(1). Une activité éducatrice, donc un travail intellectuel et culturel(2), et une pensée scientifique générale.

Ceci répond d'abord à une intention des philosophes de transformer leur méditation en une activité éducatrice, ce qui nécessite du talent intellectuel. (d'où la naissance de l'élite qui est la seule habilitée à méditer). Mais aussi nécessite une foi en l'intérêt de la science et son apport éventuel.

Si l'histoire de l'humanité avait commencé, comme le veut tout le monde, avec la civilisation égyptienne, c'est que l'homme avait pu inventer et détenir certaines «techniques scientifiques» de l'agriculture, Mais aussi la civilisation grecque a marqué cette même histoire et ce par la mise en place de «structures théologiques, rhétoriques, économiques sociales et scientifiques.

Les concepts de «l'éducation, la science et la culture », nés au sein de la philosophie, ont connu plusieurs transformations avant de devenir ce qu'ils sont aujourd'hui. L'objectif de cet essai n'est pas de retracer historiquement ces diverses transformations en philosophie, mais plutôt celui d'apporter certains éléments sur ces concepts, leurs usages, et sur l'intérêt de l'éducation et de la science pour les peuples et les nations. Cet article constitue donc essai sur l'espace philosophique qu'ils ont occupé avant la constitution d'une organisation internationale UNESCO dont l'action essentielle est de promouvoir, de développer et de faire rayonner l'éducation et la science.

Comment les philosophes ont pensé l 'éducation? Quels rapports avaient –ils institués entre l'éducation et la méditation philosophique? Comment ils ont pensé la science? Comment expliquer l'intérêt croissant et la foi qu'ils ont en la science?

I- La philosophie et l'éducation

Comment définir tout d'abord l'éducation? Christian Deschamps avait écrit «éduquer c'est transmettre, instaurer, avoir l'ambition que chaque petit homme, boule de muscles et de nerfs, devienne un être autonome,

l'amour du beau, du bien et du vrai en faveur de l'installation généralisée d'un outil de communication aussi efficace ! Quant à la documentation, si utile et indispensable, elle est encore presque partout le parent pauvre alors que les moyens techniques permettent de mettre toutes les informations à la portée de tous

Sur la libre circulation de l'information, l'on a écrit beaucoup de choses, on trouvera de bonnes synthèses. Je ne m'étendrais point –ici, cher lecteur, sur ces sujets rebattus qui vont de l'audiovisuel au droit à l'information, en passant par la protection de la vie privée contre l'abus et l'interconnexion des fichiers informatiques de personnes. Car tu les connais bien. Si tu lis attentivement quelques journaux et revues sérieuses.

O être humain ! Quand cesseras-tu de te voiler la face si tu refuses sincèrement la haine, la peur, la possessivité, l'avarice, la méchanceté, l'agressivité, la tyrannie par la rétention de l'information.

Bibliographie

1- Breton (J.M) Possibilités d'évolution vers l'accès universel aux textes de références informatiques

2- Breton (J. M) Aspects juridiques de l'harmonisation des politiques nationales d'amélioration de l'interconnexion et de la comptabilité de système : colloque international sur les systèmes de documentation IAEA, UNESCO et FAO, varna 30 septembre 1974

3- Marks (L.H) Un centre universel de l'UIT-projet de mise en commun des connaissances sur le plan international.

4- Antoine (Pierre) Information et socialisation in revue projet février 1991

5- Attali (Jacques) La parole et l'outil P.U.F paris 1975

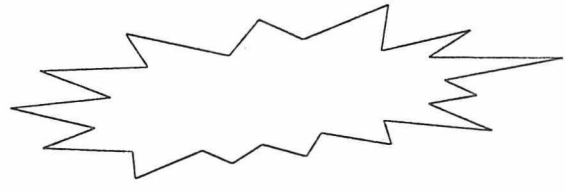

-Terrou (Fernant) – l'information collection «que sais-je?» N.1000 P.U.F Paris page 9 etc. ...

Il ressort de tout cela que l'information est une ressource immatérielle, caractéristique des êtres vivants, qui peut être représentée par des signes conventionnels matérialisés, échangée et distribuée sans perte pour la source, et dont la quantité acquise augmente pour chaque être vivant tout le long de sa vie.

C'est une matière abstraite, particulièrement malléable : elle se prête à de nombreuses représentations et codages.

En somme, nous avons vu que s'il ne peut y avoir d'harmonie sans ordre, la même simplification qui me fait schématiser abusivement ma pensée pour mieux te faire comprendre mon propos, cher lecteur, nous permet de dire qu'il ne peut y avoir d'ordre sans information, il faut donc étudier celle-ci.

Pour ce faire existe la science de l'information, qui étudie la structure et les propriétés de l'information ainsi que les méthodes de son traitement et l'organisation de son utilisation. Elle est bien entourée : théorie des communications linguistique, théorie des numérations et théorie des systèmes sont ses voisines.

Elle contient la théorie des codages ; les théories de l'information ; l'informatique théorique et, bien sûr, la documentologie, la bibliothéconomie et l'archivistique.

Beaucoup de gens vivent dans le mensonge : au contraire l'ordinateur nous aide à ordonner les réalités complexes au moyen de vérités, c'est pourquoi l'informaticien-qui est un platonicien et son outil l'ordinateur sont parfois l'objet d'attaques et dénigrement, qui ne peuvent être que des combats de retardements. Car au siècle de l'information il faut se servir des outils de traitement adaptés à cette fameuse «explosion de l'information » adaptés à cette fameuse «explosion de l'information » par laquelle tant d'être humains sont submergés.

Cher lecteur philosophe –et quel homme n'est pas philosophe ? –prenons un exemple typique afin de concrétiser parfaitement notre pensée ; la télévision par câble est un outil dangereux, qui nous permettrait à tous deux, cher ami philosophe de communiquer directement, puisque tout le monde peut s'exprimer dans les villes équipées de télédistribution.

La . communication entre les hommes peut être améliorée par davantage de souplesse, de bonne volonté, d'attention vers l'autre, d'ouverture vers l'autre.

Et la communication de chacun avec le savoir de tous est rendue possible par l'Internet ? l'informatique répartie et les efforts régionaux de coopération en matière de transfert d'information et la télévision transmise par satellite, etc. ?

Quant aux conditions moins techniques de ce bonheur, cher lecteur, tu les connais si bien que j'hésite à te les rappeler : l'optimisme lucide, la foi dans l'homme, le respect des autres et

Information et harmonie

Par : Hamoudi Ould Hamady
Université de Nouakchott

Tout être humain a rêvé, au moins un jour dans sa vie, d'un monde idéal de paix et de bonheur où tout le monde serait à tout instant gentil avec tout le monde, et d'où seraient disparues la peur, la haine, la méchanceté, l'insécurité et la lutte quotidienne pour la survie individuelle.

Quelque soit le fondement d'une telle harmonie (amour humain, amour divin ou toute forme de combinaison des deux), on peut se demander si la représentation que nous en avons, au moins provisoirement ne comporte pas une certaine part d'ordre.
Cet ordre social harmonieux, qui existera peut être un jour, espérons le, parmi nous ne sera-t-il pas un reflet de l'ordre de la nature et ses phénomènes merveilleux que Dieu nous présente chaque jour.
Ne ressentons-nous pas confusément que la pagaille sociale actuelle, due essentiellement à l'accaparement de tous les pouvoirs par une minorité de puissants sur cette planète, les chefs des quelques Etats les plus industrialisés, est soigneusement entretenue par une rétention de l'information par ces quelques tout puissants ? D'autres coupables existent à des niveaux plus modestes qui gardent pour eux des informations utiles à d'autres tant qu'ils croient pouvoir en tirer profit.
Or l'information est fille de l'esprit pétri de matière, l'homme a fini par s'apercevoir qu'il pense. Il est peut être le seul être vivant à avoir conscience, en sa conscience, mais il n'est pas le seul être vivant qui traite et échange des informations, non seulement avec ses semblables, mais même avec les êtres vivants d'autres espèces.
Car l'information est un élément de la vie de tous les jours, aussi nécessaire que le pain d'ailleurs. Pour trouver le pain, il me faut d'abord deux informations préalables :

- Où vend-on du pain dans ce village, dans ce quartier de la ville ?
- En vend –on à cette heure-ci ? puis avant de l'acheter, il me faut encore d'autres informations
- Quelle sorte, fabrication, matières ?

-Forme : long, petit, rond, gros ?
- quelle taille ?
- quel prix, etc.

Il existe autant de définitions de l'information que de dictionnaires et d'encyclopédies. Des auteurs d'ouvrages ont aussi donné chacun la sienne, comme par exemple

- Conffignal (Louis)- La cybernetique : collection «que sais-je ? » n°633 P.U.F Paris Page 32
- Dreyfus (Philippe) –l'information et son traitement collection «technique de l'ingénieur ».

même, la distinction devient floue entre recherches fondamentale et appliquée, appelées à interagir en permanence.

La synergie est particulièrement forte dans les entreprises de haute technologie- qui réalisent 40% de la R&D industrielle privée dans les pays industrialisés.

D'une part, ces évolutions, parallèles à la mondialisation des échanges économiques, n'ont fait que renforcer la domination de la triade Etats-Unis-Europe-Japon sur la recherche. Même si certains pays d'Asie dont la Chine, accroissent leur capacité d'innovation des régions entières sont en voie d'exclusion. La science «hors triade » avait permis des avancées non négligeables au début du siècle –en médecine, agriculture, science naturelles, économie, etc. et s'était ensuite puissamment développée à l'intérieur de nouveaux Etats indépendants. Depuis peu, le monde de la recherche s'étiole dans certains pays d'Amérique latine, il s'effondre dans les pays des l'ex –URSS et se «désertifie » en Afrique noire.

D'autre part, un processus de mondialisation partielle de la recherche est en cours. La coopération internationale se renforce (essentiellement, de nouveau, entre pays de la triade et entre pays asiatiques), ne serait-ce que parce que les budgets publics ont fondu à l'intérieur de chaque pays.

Les bouleversements qui ont marqué l'univers des quelques 4,5 millions de scientifiques et ingénieurs de la planète n'ont pas manqué de soulever de vifs débats. En tendant à mettre la science au service du marché ne prend -on pas le risque d'exclure le gros de l'humanité de ses bénéfices ? En obligeant universités et laboratoires d'Etat à améliorer leur rentabilité, ne va-t-on pas tuer le recherche fondamentale où le secteur public joue un rôle clé ? Comment lutter contre les dérives du brevetage qui ne se borne plus à protéger les applications de la recherche mais permet aussi de «privatiser » certaines découvertes ? Comment contrer l'émergence d'une culture du secret qui menace la libre circulation des connaissances. Comment éviter que des pans entiers de recherches soient négligées que seuls quelques « sentiers technologiques » soient explorés, quand de plus en plus d'entreprises tentent de créer des monopoles en imposant leurs standards ? A l'ère de la génétique et du virtuel, comment, construire des garde-fou éthiques, comment conjuguer le principe de précaution et la loi de la rentabilité maximale ?

Autant de questions qui devraient inciter les décideurs internationaux à relancer une activité scientifique vraiment universelle (voir l'encadré ci-dessus). Elles devraient aussi pousser les opinions publiques à entrer dans le nécessaire débat sur les moyens et les fins de la recherche. Encore faudrait-il qu'elles sachent ce qui s'y passe.

Ces dispositifs présentaient l'avantage de préserver une certaine autonomie des chercheurs. Ils valorisaient la recherche fondamentale, qui produit de nouveaux savoirs aux applications innombrables. Mais ils ont aussi servi d'alibi pour légitimer des dépenses publiques somptuaires, à des fins civiles et militaires. Et le contrat tacite entre chercheurs et société présentait un déficit d'universalité et de démocratie : la science se développait essentiellement dans quelques centres métropolitains dans des cadres nationaux, et les citoyens ordinaires n'étaient jamais consultés. les orientations de la recherche dépendaient essentiellement des élites politico–scientifiques et des complexes militaro-industriels » de quelques grandes puissances.

Depuis une vingtaine d'années, le monde de la recherche a connu d'importants changements. L'Etat a perdu de sa capacité d'initiative. L'idéologie du progrès soulève doutes et controverses. Le prestige de la science, adossée aux technocraties publiques, s'est érodé. Ses grandes orientations tiennent de plus en plus compte des intérêts des entreprises privées, qui financent et réalisent aujourd'hui les deux tiers de la recherche dans certains pays industrialisés.

Cette nouvelle donne découle de plusieurs facteurs. Dès les années 70, les bénéfices de la technoscience ont été contestés, notamment par les milieux écologistes et dans le tiers monde.

Après la fin de la guerre froide, les intérêts stratégiques qui justifiaient d'importants financements publics ont changé, et les fonds accordés pour des raisons militaires ont fortement décru. C'est alors que les Etats-Unis ont constaté avec angoisse que le Japon, où la recherche était dominée par l'industrie , faisait des prouesses dans des secteurs d'avant garde comme l'informatique , l'électronique ou les nouveaux matériaux.

Enfin, tandis que les enjeux devenaient prépondérants, l'idée s'est largement répandue que l'entreprise était beaucoup plus efficace pour réaliser le bien être des peuples que l'establishment politico-scientifique. Dans cette bataille pour la compétitivité, la science a perdu sa suprématie au profit de l'innovation technologique; l'objectif n°1 a alors été de développer de nouveaux produits et des procédés de fabrication novateurs.

La puissance d'une nation dépendant désormais de ses performances économiques et donc de sa capacité d'innovation, tous ses acteurs, y compris l'Etat et les universités, sont censés la renforcer. Partout, les dispositifs de recherche sont réaménagés pour produire en priorité des objets inédits, plus vite et moins cher. Les scientifiques sont moins appréciés pour leur désintéressement, et plus pour leur sens de l'efficacité marchande ?. Du coup, les frontières entre les secteurs public et privé s'estompent. Des ponts sont jetés entre les deux, que les chercheurs franchissent en nombre croissant de

A qui profite la science ?

Par : Roland Waasi et Sophie Boukhari
(Courrier de l'UNESCO)

Ce papier, a été rédigé par des journalistes de «Courrier de l'UNESCO » comme «préface» à un dossier spécial : A qui profite la science? (Mai 1999). Nous le publions en intégralité car il pose avec une acuité d'esprit fort peu commune les grandes questions d'aujourd'hui.

Longtemps, la science a été surtout l'affaire des responsables et des chercheurs des grandes puissances. « Faites-nous confiance : disaient-ils aux citoyens, nous travaillons pour vous, pour votre sécurité et votre prospérité. »

Ce contrat tacite entre science et société ne vaut plus. Dans la bataille économique mondiale, la recherche sert de mieux en mieux le marché et met le cap sur l'innovation technologique. Les frontières se brouillent entre les laboratoires (publics et privés) et les services de marketing des entreprises. Dès lors, comment la science, de plus en plus assimilée à une «ressource commerciale », peut elle bénéficier à tous ?

« Ce qui est bon pour la science est bon pour l'humanité ». Jusqu'à la fin de la guerre froide, quelques rares contestations osaient mettre en doute ce postulat, hérité de la philosophie des lumière et renforcé après la Seconde Guerre mondiale. Malgré les menaces d'apocalypse nucléaire qu'elle avait rendue possibles, la science était parée d'une aura bénéfique ? A l'Est comme à l'Ouest, elle était investie d'une mission sacrée : garantir la sécurité et la prospérité des Nations.

Aux Etats-Unis, riche leader du «monde libre » l'idée s'est imposée après 1945 que les citoyens devaient faire confiance à l'état et aux savants, il fallait dépenser sans compter pour la recherche fondamentale et militaire. A terme, la science pure produirait forcément des applications utiles au progrès et au bien être des sociétés. On confia aux universités et à de grosses sources de financement, comme la Nationale Science Fondation ou les différents corps d'armée, le soin de déterminer-les priorité de la recherche. En France, les citoyens étaient aussi censés faire confiance, qui optaient pour une science plus «orientée » : à l'Etat de définir une politique et des domaines stratégiques : puis d'administrer et de financer les agences d'exécution ad hoc (le centre national de la recherche scientifique ; le Commissariat à l'énergie atomique, etc.). Le reste du monde s'est fortement inspiré de ces deux modèles.

comprenons aujourd'hui est un mouvement qui allait dans différentes directions à commencer par le point de vue humaniste jusqu'à la position du savant ethnographe qui fût le plus souvent un fonctionnaire de l'administration des affaires autochtones ou dans les services du «deuxième bureau »). Mais le questionneur qui nous intéresse directement ici c'est l'intellectuel des contrées arabes musulmanes avec toutes les connotations existentielles et les dimensions historiques que revendique ce terme dans le cadre de la relation avec la tradition. Plus précisément encore, c'est l'intellectuel qu'incarne l'historien de la pensée quand il est doublé du philosophe. C'est l'intellectuel qu'incarne l'historien de la pensée quand il fait de la philosophie la famille de pensée à laquelle il revendique l'appartenance. Cet intellectuel est en général professeur de philosophie dans son pays. Nous pouvons enregistrer les différentes formulations par lesquelles ce questionnement conduit à la construction des modèles chez l'intellectuel. Il y a par exemple l'intellectuel qui croit régler le compte d'un seul coup avec la tradition en feignant de l'ignorer tout simplement.

Il peut mener un combat civilisationnel fondé sur le conflit entre «le passé » et le «présent » : et dans ce combat, il est condamné à rejeter le passé au profit du progrès.

Mais il y a de l'autre côté de multiples autres façons négatives de questionner, dangereuses et qui ne consistent pas dans la déclaration d'abandon du passé, mais qui déclarent explicitement le contraire.

L'expression claire de ce point de vue est précisément un appel au retour pur et simple à ce passé dans lequel on cherche à retrouver l'image flamboyante de la «personnalité arabo-islamique », à l'époque de sa dignité et au moment où l'Occident était faible, divisé et ne méritait aucune considération. Ce point de vue est précisément un appel au retour pur et simple à ce passe dans lequel on cherche à retrouver l'image flamboyante de la personnalité arabo- islamique, à l'époque de sa dignité et au moment ou l'occident était faible, divisé et ne méritait aucune considération. Ce point de vue trouvait dans le passé proche ses raisons idéologiques solides qu'il tire de l'exigence d'affronter le colonialisme occidental. Ce point de vue ne renvoie le regard sur le passé que pour y voir le moment éclatant auquel il a irrésistiblement envie de faire appel pour le substituer au présent

Notes et renvois :

1. Jemil Saliba, la pensée philosophique dans la culture arabe contemporaine (in la pensée Arabe dans Cent Ans) / travaux du Congrès des Etudes philosophiques 1966
2. Renaissance du Monde arabe (colloque inter-arabe devain)
3. Ibid PP331-341
4. Ibid P.334

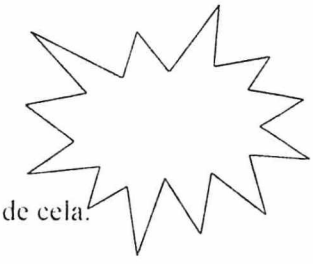

ire de cela!

LA PENSEE ARABE CONTEMPORAINE : LES ENJEUX DE LA THEMATISATISATION DE LA TRADITION

Par : Mohamed Ould Mékhallé
IGEST/MEN

Depuis plus de deux décennies maintenant, le penseur arabe, feu Jemil SALIBA a essayé de présenter un tableau statistique général de la pensée philosophique arabe du 20ème siècle. A l'issue de cet effort il lui est apparu qu'il est possible de distinguer au sein de cette pensée sept tendances principales(1).

Quelques années après, un autre penseur, Nacif NASSAR a émis quelques «observations sur la renaissance de la philosophie dans la culture arabe moderne (2) » qui n'avaient pas manqué de faire allusion à la tentative de Jemil SALIBA.

C'est ainsi qu'il avait remarqué que «cette classification a une valeur historique et descriptive indéniable puisqu"elle montre la richesse et la diversité de la pensée philosophique arabe moderne » (3). Néanmoins, il ne pouvait que noter que cette classification «n'est ni exhaustive, ni suffisamment critique... »(4).

Il y a en réalité différentes manières par lesquelles le chercheur peut constater la présence de la philosophie dans la pensée arabe contemporaine. Il y a aussi différents niveaux à travers lesquels il peut juger la négativité ou la positivité de cette présence. Mais nous pensons qu'il existe une autre façon de parler de la présence philosophique dans la pensée arabe contemporaine. Il y aussi différents niveaux à travers lesquels il peut juger la négativité ou la positivité de cette présence. Mais nous pensons qu'il existe une autre façon de parler de la présence philosophique dans la pensée arabe contemporaine et de savoir la place effective qu'occupe la philosophie dans le discours philosophique arabe contemporain. En effet c'est à travers une QUESTION qui touche cette pensée dans l'intimité de son être que réside la possibilité de reconnaître cette philosophie et de l'éprouver ; il s'agit de la question de la TRADITION.

Tout discours possible sur la Tradition doit être, a notre avis, un questionnement implicite ou explicite portant sur les trois éléments suivants : Qui s'interroge sur la TRADITION ? Quelle est la valeur DE CE QUESTIONNAIRE pour ceux qui s'y interrogent ? Pourquoi la TRADITION ? Enfin, qu'est ce qui délimite le cadre général d'un discours sur la tradition. Considérons d'abord les deux premiers éléments du questionnement : Qui s 'interroge sur la tradition ? et quelle est la valeur de ce questionnement ? Evidemment, il y a comme nous l'avons déjà dit, différentes façons de questionner qui justifient l'existence de différentes figures de pensée qui questionnent. Il y a le questionnement de l'historien de la civilisation ; il y a celui de l'historien de la pensée : il y aussi le questionnement de l'orientaliste (l'orientalisme tel que nous le

Le grand tort d'Odette du Puigaudeau c'est de n'avoir pas compris que la Mauritanie devrait être un Etat, retrouver son indépendance, avoir une voix à part dans le concert des nations. Non, elle refuse cela pour « ses » maures : elles les veut éternellement « pouilleux et grands seigneurs ».
Odette du Puigaudeau s'empêtrera dans un combat douteux, vite abandonnée par ses amis, vite délaissée par ceux-là mêmes qu'elle croyait aider. Trop fière pour reconnaître son erreur, trop elle-même pour revenir en arrière, elle assumera son choix et terminera sa vie, oubliée, dans un pays qui n'est jamais devenu le sien. Elle a laissé tout de même d'inoubliables témoignages sur notre pays, elle s'est attachée passionnément à une société qui fut nôtre, qui restera toujours un peu nôtre Elle l'a embrassée sans préjugés, avec la modestie et la sincérité nécessaire à tous les écrivains honnêtes. «Je suis venue, pieds nus et les mains vides, avec le désir d'établir des contacts et de gagner l'amitié, j'ai eu tout à apprendre des Maures et ils ont eu plus d'influence sur moi que je n'en ai eu sur eux ».

J'ai eu personnellement à rencontrer Odette du Puigaudeau dans les années 80. Je lui ai été présenté par un ami qui la connaissait assez bien. J'étais échaudé par cette rencontre, je voulais discuter avec cette femme de légende, tirer d'elle des souvenir, des anecdote, des vérité d'antan et de toujours. Je vis une vieille femme qui me parut déjà usée, désabusée, en rupture avec le monde extérieur. Quelques mots de bienvenue une rapide digression sur ma famille, et mon lieu de naissance qu'elle a connus. Puis un silence, un sourire ennuyé, un regard tourné ailleurs vers le passé certainement. Nous primes congé rapidement, j'étais déçu, et j'en tirai vite la conclusion : les maures vivants ne l'attirent pas. Seuls les Maures bien morts l'intéressent.

Le livre de Monique Vérité doit être lu car on y découvre un personnage fabuleux, un passionnante histoire d'amour entre un désert et une fille de la mer, une idylle où les fils se rompent mais où l'amour est toujours présent. Ce livre peut aussi être lu comme une fiction, comme un beau roman d'aventures car Odette du Puigaudeau aurait bien eu le droit de s'exclamer, elle aussi : « quel roman que ma vie !»

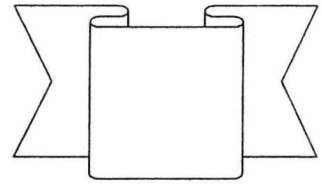

Cette petite fille de négrier, héritière de richesse de colonies, exploratrice pour le plus grand bienfait de l'empire, boursière des œuvres coloniales, habituée des popotes, des casernes, aimant se faire entourer de goumiers, aimant donner des ordres à ces pauvres barbares, chauvine dans maints de ses propos, raciste même parfois ; sait pourtant pourfendre les méfaits du colonialisme, dénoncer ce qu'il a d'insensé, d'avilissant pour les cultures et pour les hommes.

Troisième grande contradiction d'Odette du Puigaudeau : elle a tant de mal à choisir qu'elle ne s'est, elle-même, pas vraiment choisie. Fille unique, elle est restée très longtemps le garçon dont son père avait rêvé. Elle avait choisi cet état comme pour se le prouver, elle était montée comme aide marin, avait pêché, s'était habillée en garçon pour enquêter à la Bourse... Elle avait jeté son dévolu sur une seule femme, Marion Sénones, son amie de toujours. L'officier rencontré dans une tournée en Adrar, l'ingénieur rencontré sur la Piste... des faiblesses honteuses qu'elle minimise, qu'elle cache pudiquement, qu'elle renvoie dans le noir d'un geste dédaigneux. Odette du Puigaudeau, au moins, épouse ses contradictions, les assimile ; elles sont elle, font sa marque propre, son moi originel.

En vérité, Odette du Puigaudeau n'a qu'une seule passion, vraie celle-là jamais démentie ; le désert. Elle sait trouver les mots qu'il faut pour le chantier : «Sahara ! Quelle éblouissante percée ouvre ces trois syllabes arides et comme haletantes ! Quel vertige de lumière d'espace et de silence ! Quel allégement déjà de nos étroites contraintes! ». Elle a trouvé en ces étendues désertiques ce qu'elle a vraiment cherché chez elle : le sens de l'éternité. « Débarquer en Mauritanie, c'est faire un bond en arrière de vingt siècles, c'est retourner aux temps bibliques... c'est le temps des seigneurs, des patriarches ».

Ce désert qu'elle a aimé, elle s'est attachée à le connaître. Elle a analysé, classé chaque roche, chaque insecte, chaque plante. Elle en a décortiqué les, mœurs, les habitudes. Elle a écrit des dizaines d'articles riches, savants.

Elle a écrit plusieurs livres où elle transmet sa passion. Elle est l'une des rares «spécialistes» de la Mauritanie à l'avoir vraiment pénétrée, comprise dans son âme, bu goulûment à la source. Et pourtant, cette «mauresque» n'a jamais appris véritablement à parler notre langue. Du Hassaniya : elle n'a su que quelques bribes de mots, de quoi soutenir une conversation anodine. Elle était peut être trop pressée d'apprendre pour apprendre D'ailleurs j'ai l'audace de penser que cette mal- connaissance du Hassaniya l'a aidée : à trop pénétrer un monde, on risque de s'y empêtrer, de se laisser ligoter par les détails, de manquer d'éloignement pour survoler le réel et saisir l'essentiel, la quintessence.

« Odette du puigaudeau une Bretonne au désert »

Par : M'Bareck Ould Beyrouk

Qu'est qu'un livre sur Odette du Puigaudeau ? qu'est-ce cette ambition de figer comme du marbre, un être vivant, vif, constamment agité de soubresauts qui font sa vérité propre et parfois de l'histoire ?

Odette du Puigaudeau n'est pas de ceux qu'on peut statufier au détour d'un mot, à la faveur d'une tournure elliptique. Elle est trop elle-même pour se laisser enfermer dans un livre, dusse-t-il être celui d'une bonne connaisseuse. C'est pourquoi avec Monique Vérité, elle louvoie tout le temps, elle cache sa vérité propre, sous un paravent de bons mots, de certitudes branlantes, de pudeur aristocratique. Mais Monique Vérité a eu l'intelligence nécessaire pour affronter ce fleuve rusé et bouillonnant, pour ne pas se laisser tromper par ses faux affluents, ses rivières miroitantes de secrets bien enfouis. C'est pourquoi elle ne donne aucune prise aux détours trompeurs de son personnage foisonnant, elle ne se laisse pas happer par les miroirs de la scène. Elle sait soupçonner, sous les masques, les vrais actes de l'acteur et la théâtralité de l'acte.

Il est vrai qu'Odette du Puigaudeau, consubtantiellement rétive aux clichés, est un personnage rebelle, insaisissable, inconciliable avec les faciles certitudes. Odette de Puigaudeau, a-t-elle d'ailleurs jamais su elle-même s'accepter, habiter un unique personnage, épouser une unique manière d'être ? Non, cette bretonne a toujours oscillé entre ce qu'elle est et ce qu'elle aurait pu être, ce qu'elle veut et ce qu'elle devrait vouloir, ce qu'elle fait et ce qu'elle ferait si... le « si » joue un rôle premier dans la vie de Puigaudeau car le génie qu'on ressent en elle, que le livre de Monique Vérité nous fait parfois apparaître- n'a jamais pu véritablement éclater, n'a jamais trouvé la porte du labyrinthe où il s'est enfermé.

Odette de Puigaudeau, c'est d'abord trois contradictions majeures jamais résolues.

Cette aristocrate, héritière des préjugés des siens, ulcérée par la fin de la vie de château et des vieux privilèges, sait se révolter contre les injustices, s'armer de conviction révolutionnaire, s'inscrire –ô pas pour longtemps quant même!- dans les rangs du parti communiste. C'est ce sentiment aristocratique, cet attachement aux antiques fiertés qui lui a fait instantanément aimer le peuple maure. C'est ce même amour des fortes traditions, des habitudes centenaires qui lui fera haïr toute évolution de «sa» Mauritanie.

Les locuteurs « hassan », par ces emprunts, ne cherchent pas, de façon consciente, un enrichissement de leur langue. Ces emprunts concernent, le plus souvent des réalités nouvelles, qui le plus souvent aussi n'ont pas de noms dans le hassania. Plus rarement, à cause de l'avancée technologique de l'Occident, le Hassanniya donne à ces objets des noms doublures créées après coup. Ainsi des mots comme «càre » (carré), « si-gna-tir », « marsandis » (marchandise) sont passablement concurrencés.

Il y aussi ce qu'il est convenu d'appeler «les mots d'époque ». L'entrée de ces mots et expressions français dans le Hassanniya s'est faite d'une manière très variable selon les époques (époque coloniale et époque moderne). Ainsi, certains mots ont une existence circonscrite dans le temps : goum ye (goumier), «partizan» (partisan), «conng-re » (congrès). Ce sont des « maux » coloniaux qui évoquent aujourd'hui encore des histoires de colons, de colonisés et de gardes-chiourmes.

Il reste à évoquer enfin le degré de parallélisme sémantique entre le mot français et son «répondant » en Hassanniya.

Ces emprunts sont, le plus souvent au-delà de toutes variations phoniques, les répliques d'une même entité signifiante (3). Ou bien le sens en Hassanniya reste le même que celui en français ; ou bien le mot français «hassanisé » ne rend que quelques uns des aspects de ce mot et ignore les autres.

C'est dans ce cas précis que nous le faisons suivre d'une explication succincte.

Il est rare d'assister, après l'intégration du mot français, à une désintégration du sens. Cela peut arriver tout de même en passant par deux étapes

1- Le locuteur «hassan» prend le mot avec l'objet ou la réalité qu'il représente. Les montres, les radios envahissent le marché. Ils cessent d'être des «objets rares » et le nom (français est dans toutes les bouches. Progressivement, ils intègrent le parler populaire. Ils sont adoptés/.
2- Cet objet ou cette réalité génère par la suite un autre sens à partir d'un usage local que la langue d'accueil confère au mot français. Le mot «gérricane » jerrican, récipient d'une contenance de vingt litres environ), est devenu –aussi- le nom d'une danse folklorique des haratine du Brakna. L'intérêt linguistique donc si nous nous obstinons à le rechercher, réside dans ces écarts.

Notes et renvois

1- Nous adjectivons ce mot au même titre que «hassanisé », « hassan » désignera ainsi ce qui est relatif au Hassaniya ou aux tribus qui parlent ce dialecte
2- L'après -indépendance il va sans dire
3- Il s'agit d'un parler au sens strict du mot, nous le rappelons
4- La prononciation du mot français «hassanisé » est très souvent soumise aux règles qui régissent le hassanya. Certains mots , par exemple, seront précédés d'un ; « el » déterminatif équivalent à l'article défini « le »/ « la » : « el baqat » (le paquet) ; « el vour » (le four) ; « el bàze » (la base).

Devant tant de difficultés- j'ai cité seulement les difficultés de transcription- j'ai adopté un certain nombre de mesures susceptibles de rendre lisibles certaines graphies.

1. J'ai adopté, pour l'ensemble de ce travail et dans un souci d'uniformisation, la transcription, avec signes et valeurs approximatives que donne le petit Larousse illustré (édition 1994) et le Dictionnaire Universel (Hachette-edicef 1995).
2. En hasssaniya, il existe, à côté des sons traditionnels que le français, rend convenablement, d'autres sous- doublures, pourrait-on dire, plus longs et que nous distinguons des premiers en mettant une barre dessus : pôche, lî-ce-câsse.
3. Nous détachons les syllabes de certains mots pour indiquer leur prononciation convenable en Hassaniya : brâ-ce-le, cou-man-de.
4. Les entrées de certains mots conservent leur prononciation originelle. Elles seront entre parenthèses.
5. Enfin, et pour ne pas s'arrêter à un simple recensement de mots, j'ai voulu donner le sens du mot français «hassannisé » avec ses variations et ses flottements inhérents à la langue parlée. Tout en indiquant ses usagers (élèves, militaires, commerçants, galants, etc.). A ce sujet, une remarque s'impose : « le parler français Hassanniya » n'est pas un parler général. Les mots français « hassanisés » ne sont pas indifféremment produits par les locuteurs «hassan)1. Ce parler est, le plus souvent, des groupes de mots appartenant à des domaines bien déterminés. C'est un parler corporatiste. Il y a ainsi un parler militaire –grade ; recri, dizesti) un parler galant, un parler commercial (ramàs ,t"rait, be-ne-fis etc.). Dans le domaine de la mécanique, par exemple ; les différents organes de la voiture ainsi que les outils utilisés par les réparateurs ne sont désignés que sous leurs appellations françaises. Soulignons tout de même qu il arrive que le mot français «hassanisé » entre dans le parler général mais l'usage corporatiste est presque toujours un passage obligé.

Ces emprunts doivent être situés dans un contexte bien déterminé, celui d'un pays économiquement faible (la Mauritanie) dont les «marchés » sont envahis par les matières consommables en provenance d'un «ailleurs» jusque-là insoupçonné.

Les emprunts de mots accompagnent «l'arrivée » (l'arrivage) des choses fruits et légumes, vêtements, sports, etc.), plus rarement d'idées. Ils décèlent les influences des peuples les uns sur les autres, influence du colonisateur sur le colonisé, influence du pays industrialisé sur le pays sous développé, des producteurs sur le consommateur. C'est pourquoi il convient, pensons -nous, de ne regarder ces emprunts que d'un point de vue strictement socio-économique et non linguistique.

Le parler français hassaniya

Par : S'Neïba Mohamed

L'auteur de ses lignes a écrit un livre sur «le parler français hasssaniya. Il nous livre ici les grandes lignes de sa démarche et les conclusions auxquelles il a abouti.

C'est par désœuvrement d'abord que j'ai entrepris ce travail. L'idée m'est venue subitement. Mais éphémère à ses débuts, elle est devenue, lentement, une obsession.

Combien sont-ils ? Est la question que je n'ai cessé depuis lors, de me poser «Ils » sont tous ces mots et expressions de la langue française que le hassanya a, au fil des temps, incorporés dans son expression populaire seulement. La précision a son importance, car le hassanya « relevé »-si je puis l'appeler ainsi-celui des poètes et des gens sérieux , n'utilise que très rarement ces mots « impurs » quand il veut aboutir à des effets plaisants.

Le recensement de ces mots a constitué pour moi un jeu passionnant.

Au début, ils venaient par dizaines, se bousculaient dans ma tête : je les enregistrais n'importe où, n'importe comment : sur le chemin du Lycée, au cours d'une partie de jeu de dames, sur mes fiches de préparation, ma main, mon chéquier, etc. . Puis la source s'est tarie. Je les rappelais à la mémoire, ils ne venaient pas, les cherchais dans les objets, ils surgissaient par groupes de deux, de trois, jamais plus. Enfin : quand l'un de ces mots daignait se présenter, j'étais tenté de le refuser. Puis-je le soumettais à un ensemble de questions : a t-il une solide assise dans l'usage populaire ?

Une réponse efficace à toutes ces questions était un préalable pour l'acceptation du mot dans la liste établie.

Mais que pourrai-je faire au juste de ces matériaux ? Un premier travail s'imposait : donner forme à ce qui n'était encore qu'un vague recensement de mots, en confrontant le sens du mot en hassanya avec le(s) sens en français :

Ces mots et expressions français qui ont réussi à «percer » en hassanya sont dits. Ils ne sont pas arrivés jusqu'à nous inchangés. Leur prononciation s'est modifiée et certains s'emploient même en hassanya avec un sens nouveau. Comment alors les transcrire ? Comment attester leurs filiations quand on sait qu'il n'ont, parfois, qu'une lointaine ressemblance phonique avec le mot français ?

Certains phonèmes arabes n'ont pas d'équivalents en français. Le son (ط) n'a qu'une lointaine parenté phonique avec le son |t|. On essaie de la rendre avec (t) (th emphatique). Le son (ذ) par (d) (the anglais). Inversement, l'Arabe compte lui aussi ses absents. Le son (y) est inconnu, le son (i) lui supplée.

l'émergence de nouveaux types de déplacement.
Le transport par la charrette traînée par un âne ou un cheval a permis de résoudre d'une part les difficultés de déplacement d'une frange de la population et d'autre part le transfert de marchandises et autres.
Force est de le reconnaître, ce mode de transport s'impose désormais comme une activité urbaine incontournable dans le développement urbain de la ville de Nouakchott.
Par son dynamisme, il a permis de desservir les quartiers où l'accès des voitures reste difficile à cause d'un déficit lié au manque d'infrastructures routières.
Le commerce informel connaîtra aussi un développement spectaculaire par l'entrée en masse de populations pour la plupart issues de la migration. Il a déclenché une dynamique urbaine par sa force d'attraction et le climat que les vendeurs créent au niveau des marchés, sur les carrefours et artères de la capitale.

Dans ce secteur informel du commerce, ce qu'il faut noter c'est surtout la dynamique des femmes. Elles vendent sur étal les produits comme les légumes, les poissons, les voiles. Ces derniers assurent à 80% le ravitaillement des marchés locaux. Par leurs actions, elles participent à une diffusion plus large des effets de la croissance de l'économie populaire dans la capitale.
Parallèlement à cela se développe le commerce informel de l'eau potable dans la ville. L'un des problèmes majeurs de la capitale Mauritanienne est l'alimentation en eau potable. Cette situation est due au fait que l'évolution de la population n'a pas été suivie par celle de la production d'eau. Dans certains quartiers de la ville à une période de l'année, l'eau devient une denrée rare. A titre d'exemple le département le plus populeux de la ville, EL MINA, souffre d'une carence d'eau à une certaine période de l'année. Les habitants de ce quartier payent à cette période le fût d'eau de 300UM à 400UM selon les localités. Cette situation s'explique par le fait que la grande majorité des maisons n'a pas d'eau courante et s'approvisionnent au niveau des bornes fontaines ou chez les revendeurs d'eau.

Le secteur informel par le nombre d'individus qu'il draine à travers le pays, les hommes , les femmes, des vieillards et même des enfants qui, poussés par un naturel et légitime instinct de survie, combattent à leur manière pour s'extirper de la pauvreté.
Ainsi face à cette multitude, issue pour la plupart de l'émigration, qui vaque à cette activité, l'étude de la sociologie urbaine reste plus que nécessaire.
A cet objectif s'ajoute le poids de l'informel dans le développement urbain d'une ville, surtout africaine, sa capacité de pouvoir créer des emplois en vue de résoudre, en partie le problème du chômage mais aussi d'appréhender son devenir.

Urbanisation, migration et secteur informel dans une capitale africaine : cas de Nouakchott (Mauritanie)

Par : Ahmed Thioune

L'urbanisation, un phénomène mondial, se développe d'une manière amplifiée en intensité dans les villes africaines. Les villes mauritaniennes en particulier connaissent un processus d'urbanisation rapide dominé par l'essor de sa capitale, Nouakchott.

Les facteurs contribuant à ce développement urbain sont multiples et variés dont l'entrée en grand nombre de migrants et la diversification des activités informelles.

Dans la capitale, Nouakchott, plus d'un quart des travailleurs migrants exercent leurs activités dans le secteur informel. Dans sa ville, ce secteur représente une part significative voire prépondérante de l'emploi urbain.

Face à ce dynamisme, le secteur informel pourra t-il favoriser la croissance urbaine de la ville? Par son poids démographique peut-il créer une dynamique urbaine au sein de la ville ?

L'émergence du secteur informel dans la ville de Nouakchott est liée à des raisons multiples. Certaines études voient dans l'insuffisance d'emplois crées par le secteur moderne face à une croissance démographique souvent asymétrique et surtout urbaine, une des causes majeures de développement du phénomène.

Cette explosion démographique, suite à une arrivée massive de populations rurales victimes des effets dévastateurs de la sécheresse, crée une dynamique populaire dans la ville ou plus particulièrement dans les bidonvilles

L'installation de ces derniers va entraîner une croissance spatiale de la ville et une consommation d'espace par l'implantation des habitations.

Les migrants à la recherche d'emplois vont intégrer le secteur informel de la ville où foisonne et grouille désormais une pléthore d'activités multiformes en constante expansion allant du vendeur à la sauvette en passant par le cireur de chaussures ou encore de petites activités commerciales de productions ou de services pour ne citer que celles-ci.

Reflet du dynamisme des populations à la base, le secteur informel constitue un élément fort et dynamique dans la croissance urbaine de la capitale. Par son économie populaire, il occupe souvent plus ou moins bien deux tiers des citadins qui travaillent. Le secteur informel constitue le seul débouché immédiat pour la grande majorité des jeunes qui veulent travailler, il est générateur d'emplois à faible rémunération et de revenus.

L'impact de ce secteur informel dans la croissance urbaine est plus marquant dans les activités urbaines de la ville comme le transport, le commerce et les services.

La forte demande de transport par les populations a provoqué dans ce secteur

l'utilisation des techniques d'extraction manuelle (surtout dans le Hodh), la traction animale et l'extraction par motopompes (5000 motopompes surtout en Adrar).

Les palmeraies sont concentrées en grande partie en Adrar (51% des pieds productifs) et le Tagant (22%) et produisent en moyenne près de 25000 tonnes de dattes par an avec un rendement moyen de 20 kg par pied.

Les cultures sous palmier, représentées par les céréales (blé, orge), les produits maraîchers et luzerne occupent 250 ha de superficie. Les oasis sont soumises à un certain nombre de problèmes en particulier de protection et de mise en valeur.

Les principales menaces qui pèsent sur les ressources oasiennes sont :

- Les incidences négatives sur les rendements occasionnés par la cochenille blanche (Parlatoria blancharida) et les ovariens du palmier (oligomicus afrasiatacus)
- L'insuffisance des ressources en eau étant donnée que les nappes ne sont pas suffisamment, ni régulièrement alimentées à cause des déficits pluviométriques des dernières décennies. Cette situation prévaut surtout en Adrar et au Tagant.
- La multiplication des motopompes qui a occasionné une surexploitation des nappes phréatiques (touchant 45% des oasis).

Cette surexploitation s'est manifestée par la baisse de leur niveau et leur salinisation particulièrement en Adrar où bon nombre de palmeraies sont menacées de disparition et où la survie des populations locales s'en est trouvée compromise.

- enfin l'érosion hydrique avec les pluies torrentielles et les crues brutales des oueds qui entaillent les plateaux et opèrent un travail de ravinement au niveau des berges et des plaines d'épandage.

Notes et renvois

Références bibliographiques

- Chouaib A et M.S MERZOUG : gestion et préservation de l'environnement en Mauritanie MP.D.R.H. PNUD 1995
- MAED/DDS-PNUD : Rapport National sur le Développement Humain Durable 1997
- MDRE : politiques et stratégies générales pour le développement du secteur rural-horizon 2010-(1998)
- Mohameden B. Ould Ahmed : Bilan Diagnostic du secteur agricole sahélien et interrogations sur l'avenir du Sahel, document national MDRE 1997.
- PNUD.CEDRAT : contribution à la formation d'un programme de gestion et de protection de l'environnement rapport Diagnostic 1997.
- Rapport CECO CONSEILS : profil environnemental de la Mauritanie BAD 1997.
- UNSO.BNUS. MDRE : PMLCD ; programme multisectoriel de lutte contre la désertification 1991

zones inondables. A cette réduction s'ajoutent les différentes formes de dégradation des sols qui se répercutent de façon négative sur la production ; il s'agit de :

- La dégradation physique (perte de structure, de profondeur et de perméabilité)
- La dégradation biologique (perte de matière organique, décroissance de l'activité biologique).
- La dégradation chimique (salinisation, alcalinisation)

3- Les cultures irriguées :

Les superficies irrigables sont théoriquement de l'ordre de 138000 ha. Les aménagements hydro-agricoles qui se sont développés ces dernières années ont favorisé le développement de l'irrigué notamment dans la basse vallée du fleuve Sénégal.

A titre d'exemple les périmètres irrigués privés ont connu un accroissement annuel de 7% en 1989 et 1994.

Pour la campagne agricole 1996-1997 les superficies mises en valeur étaient de 16000 ha consacrés pour l'essentiel à la riziculture .

Néanmoins on constate, avec l'extension de ce système de cultures une détérioration de l'environnement qui se manifeste à travers la dégradation physico-chimique des sols (salinisation – alcalinisation) en lien avec l'absence ou l'insuffisance de leur drainage et la surexploitation des nappes phréatiques.

Le développement de la riziculture a eu, par certains aspects, des répercussions négatives sur la vie des populations riveraines du fleuve exprimées à travers la détérioration de leur environnement sanitaire par l'apparition et la recrudescence de certaines maladies comme le paludisme, la bilharziose, les maladies diarrhéiques et le ver de Guinée.

Les populations les plus exposées semblent être celles qui dépendent encore de l'eau du fleuve pour leur consommation courante. Cette culture irriguée s'est accompagnée de problèmes liés aux difficultés de reconversion de la paysannerie eu égard au mode d'exploitation imposé par les nouvelles méthodes culturales et les moyens devant être mis en œuvre.

4- Les cultures oasiennes :

Le sous secteur oasien occupe une place importante dans la réorganisation spatiale de la zone aride. Il s'agit des oasis de l'Adrar, du Tagant, de l'Assaba et des Hodh. Les potentialités (5000 ha) sont situées en grande partie en Adrar et au Tagant. Les surfaces cultivées des oasis sont essentiellement le domaine du palmier dattier et de certaines cultures maraîchères et céréalières en sous étage. L'eau constitue le facteur dominant. Elle est exploitée à partir des nappes dunaires (Assaba), des nappes alluviales des oueds (Adrar Tagant) et des nappes mixtes présentes dans les différentes régions d'oasis. Le système d'exhaure est caractérisé par

situation climatique du pays. Ainsi les terres arables, évaluées à un peu plus de 500.000 hectares, connaissent des oscillations notables d'une année à l'autre. Les fluctuations interannuelles des superficies cultivées et de la production sont significatives d'une telle dépendance. A titre d'exemple, pour la campagne agricole 1995-1996, 271.000 ha cultivés ont produit 220000 tonnes, alors que lors de la campagne suivante (1996-1997) les superficies cultivées se sont limitées à 199000 ha pour une production de 121000 tonnes ; des variations particulièrement manifestes au niveau des productions céréalières traditionnelles, qui ont chuté de 66% entre les campagnes 95-96 et 96-97.

Le domaine agricole se subdivise en quatre systèmes de cultures.

1- Les cultures pluviales :

Directement dépendantes de la pluviométrie, ces cultures extensives restent prépondérantes dans la production céréalière traditionnelle (mil, sorgho) associée aux pastèques, niébé etc.

L'extension des surfaces cultivées en zone pluviale est très variable d'une année à l'autre, ce qui explique des grands écarts dans la production. Les rendements en culture sous pluie sont faibles (0,5 tonnes/ha en moyenne de 1986 à 1996) et les productions qui ne couvrent que 15 à 30% des besoins nationaux sont pour l'essentiel auto consommés.

Pratiquées pour une bonne part dans le sud- Est du pays et le long de la vallée du fleuve Sénégal sur les terres surélevées non inondables (diéri), ces cultures régressent devant la dégradation et l'érosion des sols (érosion hydrique et éolienne, ensablement) ; ce qui a obligé les paysans, devant la réduction des terres arables à mettre en exploitation les sols marginaux sensibles à l'érosion et à réduire la jachère.

2- Les cultures de décrue :

Ce sont des cultures pratiquées sur les terres inondables par les crues du fleuve Sénégal et de ses affluents en particulier le Gorgol, en amont des barrages traditionnels et retenues d'eau et au niveau des mares et des bas_ fonds.

Des potentialités en cultures de décrue ne représentent que 0,15% de la superficie totale du pays (1550000 ha) : mais en 1996-1997 seuls 34000 ha étaient cultivés en décrue (18% des superficies cultivés) pour une production de près de 15000 tonnes, sont 13% de la production totale de la même année.

Les fluctuations des superficies cultivées en décrue sont importantes et sont fonction des quantités des pluies comme c'est le cas des cultures pluviales.

D'autre part, la maîtrise des eaux du fleuve suite aux aménagements de l'OMVS (notamment le barrage de Manantalli) réduit l'onde de crue du fleuve et par voie de conséquence les

Les grands défis environnementaux en Mauritanie

Par : Mohamed El Hacen Ould Beyah
Professeur à l'ENS de Nouakchott

Introduction :

La gestion et la préservation de l'environnement constituent aujourd'hui un impératif essentiel du développement durable. Depuis la conférence mondiale de Rio de Janeiro sur l'environnement, la Communauté internationale, désormais consciente de l'importance des impacts des politiques de développement sur la qualité de l'environnent et le devenir de l'humanité, a vu la nécessité de placer cette question au cœur du développement afin de pérenniser celui-ci et de sauvegarder l'avenir des générations futures.

Ainsi le concept d'environnement / développement est devenu un binôme se présentant comme la voie incontournable de tout développement humain durable, impliquant solidarité des nations et institutions et définition des cadres de concertation et d'action pour le développement.

Dans notre pays, le cadre environnemental a subi ces dernières les effets conjugués de la sécheresse, de son corollaire la désertification et de l'exploitation irrationnelle des ressources naturelle, notamment agro-sylvo-pastorales.

Cette situation est d'autant plus inquiétante que notre pays intègre une région structurellement en équilibre instable : le Sahel dans laquelle l'harmonie entre les hommes et leur milieu a été rompue au profit d'une dynamique de déséquilibres entraînant une dégradation de l'environnement et par conséquent une sédentarisation rapide des populations et une explosion de l'urbanisation

Pour juguler la sécheresse et la désertification ainsi que leurs conséquences, la Mauritanie, avec l'aide de ses bailleurs de fonds a développé tout un ensemble d'activés et défini des stratégies de lutte contre ces fléaux. Mais la dégradation environnementale persiste et les grands défis sont tels qu'il est nécessaire d'en saisir la portée. C'est dans cette optique que s'inscrit cette esquisse de diagnostic de la situation environnementale de notre pays ; une esquisse qui, dans le cadre d'une description des modes d'exploitation des ressources naturelles, se limitera dans ce premier article à l'environnement agricole. D'autres domaines pourront être abordés prochainement- le domaine agro-sylvo-pastoral, les ressources en eau , les ressources halieutiques etc.

I- L'environnement agricole :

Le secteur agricole en Mauritanie demeure étroitement dépendant de la

un caractère d'hostilité plus marqué que la plupart des écrits de ce genre... Le vocabulaire imagé et symbolique et toujours abscons dont se servent, avec une recherche laborieusement étudiée, les musulmans engagés dans ce qu'ils appellent une « voie », doit, sans doute, retenir notre attention, mais je ne pense pas qu'il faille en exagérer la portée »(8). Il y eut également un échange perpétuel de messages et de correspondances entre Diourbel la nouvelle demeure du marabout wolof et la zawiya de Cheikh Sidiya

Bibliographie sommaire

- VEZZANI, le mysticisme dans le monde Paris, Payot 1955
- GRUNEBAUM (von), Islam médiéval Paris, Payot 1962
- FAZLUR (R), Islam , london weidenfeld and Nicolson, 1966
- SY (Cheikh Tidiane), l'odyssée extraordinaire du soufi Ahmadou Bamba, fondateur de la confrérie sénégalaise des Mourides in congrès international des africanistes. Dakar 11-20 décembre 1967, présence africaine, paris 1972

ANNE (Moustapha), Hayât Cheikh Ahmadou Bamba, Dakar, Edition G.I.A ; 1978

Notes et renvois

1. SY Cheikh Tidiane «l'odyssée extraordinaire du soufi Ahmadou Bamba fondateur de la confrérie sénégalaise des Mourides »1967, P.143

2. ANNE (Moustapha), hayât cheikh Ahmadou Bamba, Dakar. Edition G.I.A,1978 P.40
3. Al Boukharri est un écrivain arabe, né le 21 juillet 1810 à Boukhara dans le Turkestan. Il doit sa renommée au recueil qu'il fit des traditions (al djanu-al sahih). Quant à Al Suyûti, il serait né le 3 octobre 1445. Ecrivain de l'époque des Mamelouks, ses œuvres se caractérisaient par leur extrême variété
4. SY(cheikh Tidiane)OP cit P.146
5. SY(cheikh Tidiane)OP cit P.147
6. Archives Nationales du Sénégal, lettre d'Ahmadou Bamba au Gouverneur du Sénégal, 1906
7. Archives Nationales du Sénégal,9G24. lettre n°112 P,1905
8. Archives Nationales du Sénégal, lettre au Gouverneur du Sénégal : novembre 1912

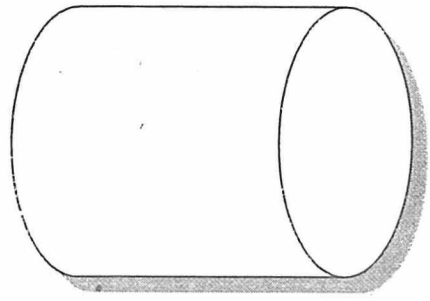

permettant de devenir khalife dans la Tariqa. Cet enseignement était axé sur la rhétorique, la logique, la littérature, la linguistique et la
biographie du Prophète. Ahmadou Bamba fut l'élève le plus attentif, celui qui surprit le plus Cheikh Sidiya. Et à causse de sa vivacité d'esprit et de sa curiosité, il finit par se lier d'amitié avec son professeur, nous rapporte Moustapha ANNE. Et à Sy Cheikh Tidiane de poursuivre que Cheikh Sidiya pour marquer son admiration au jeune Bamba, l'investit de la charge de khalife de la qàdriya dans le pays wolof.
« Ahmadou voyait ses efforts couronnés de succès puisqu'il rentrait dans son pays, vêtu de la «robe» (khirqa) tant convoitée par les disciples. Il était également marqué par la tradition soufie de fidélité à son maître, car cela était l'un des piliers de l'enseignement à Tindouja »(5).
Ainsi après avoir longtemps séjourné dans la zawiya de Cheikh Sidiya, Ahmadou Bamba reprit le chemin du Sénégal. A l'image de son maître Cheikh Sidiya, il préféra s'éloigner des grands centres. Il choisit de s'installer en un endroit qu'il fit défricher. Il y fit construire des cases et le baptisa «Darou-Marnâne». A l'image de Tindouja, Darou-Marnâne était un lieu de retraite et de méditation. Au milieu de ce village, Ahmadou Bamba se livra à l'enseignement du Coran et surtout à la formation religieuse de ses disciples et à des séances de retraite continues dans les forêts d'alentour. D'ailleurs la seconde arrestation de Ahmadou Bamba lui valut d'être éloigné encore du Sénégal. Il fut transféré en Mauritanie et assigné en résidence à Souet-El-Ma ou il vécut pendant quatre ans, à l'ombre de son maître Cheikh Sidiya. Ce dernier qui était un ami des Français usa de tout son pouvoir spirituel pour amadouer le comportement de Ahmadou Bamba. Celui-ci aurait interdit à ses talibés de l'approcher ou d'essayer de venir lui rendre visite. Dans une lettre qu'Ahmadou Bamba avait envoyée au Gouverneur du Sénégal, on pouvait lire : «je suis au courant que certains individus, déclarant être mes disciples, sont en train de tout mettre en œuvre pour faire du tort aux habitants du pays... Aussi je viens vous dire que j'interdis à toute personne susceptible d'être l'objet de plainte, de me suivre ou de m'approcher »(6).
Avant même la libération de Ahmadou Bamba, Cheikh Sidiya fut autorisé par le gouverneur Général à se rendre en 1905, à Saint-Louis(7). Cette autorisation donnée au chef religieux le plus vénéré de l'islam en Afrique Occidentale française n'était pas fortuite. Dans son entretien avec le gouverneur général, Cheikh Sidiya ne manqua certainement pas de lui faire comprendre le caractère mystique du marabout sénégalais préoccupé de vivre en paix et dans la tranquillité afin d'être en mesure de «servir Dieu et d'observer strictement, les lois du Prophète ». Dans le même ordre d'idée, la politique définie par le Gouverneur W. Ponty, signifiait en substance que «les écrits d'Ahmadou Bamba ne présentent pas

LA CONTRIBUTION DE LA MAURITANIE A LA PROPAGATION DE L'ISLAM EN AFRIQUE :

AHMADOU BAMBA, FONDATEUR DE LA CONFRERIE SENEGALAISE DES MOURIDES, DISCIPLE DE CHEIKH SIDIYA, MAITRE DE L'ORDRE QADRI DANS L'OUEST AFRICAIN.

Par : Racine N'DIAYE
Département d'Histoire
Université de Nouakchott

Mohamed Ben Mohamed Ben Habib Allah plus connu sous le nom de Ahmadou Bamba serait né en 1850 à M'Backé où son arrière-grand-père Mame Maram s'était installé depuis 1773 et s'était surtout signalé comme un grand jurisconsulte musulman. A M'Backé, Mame Maram avait ouvert une école coranique. Aidé par son fils aîné Mame Balla, il acquit la réputation d'un grand marabout puisque, de partout, des gens venaient le consulter. (1) Mame Balla avait son fils aîné parmi ses élèves : Momar Antassaly. Ce dernier fut envoyé en initiation auprès de plusieurs marabouts, dans plusieurs localités, pour acquérir les rudiments de jurisprudence et de théologie. Ayant acquis connaissance et expérience, il revint à M'Backé pour aider son père et pour se marier. Avec sa femme Mame Diarra Bousso il eut un fils qu'il décida d'appeler Ahmadou Bamba.

A la mort de son père en 1880, Ahmadou Bamba, tourmenté par les périodes de troubles incarnées par Maba Diakhou et Lat-Dior, resta au village de M'Backé Cayor et était alors âgé de trente ans.

Ce fut donc dans ces circonstances historiques que le fondateur de la confrérie sénégalaise des Mourides, en «homme de Dieu et serviteur du prophète » se rendit à Saint-Louis où il rencontra le Mouqqadam de la confrérie qadri qui le donna le wird «Djalanien ».

Après cette phase, il manifesta son désir de rencontrer Cheikh Sidiya, le grand maître de l'Ordre qadri dans l'ouest africain..

Ahmedou Bamba prend donc la route du Fleuve, en direction de la Mauritanie. Pour atteindre Tindouja où se trouvait le campement du maitre de la qàdriya, il fut obligé de se joindre à une caravane maure. Quand il fut au campement, Cheikh Sidiya l'accueillit avec chaleur et offrit de l'instruire lui-même des règles et principes de la Tariqa(2). Dans cette zawiya, Ahmadou Bamba apprit la théologie musulmane et les principes primordiaux de droit. Il reçut ensuite, l'enseignement des traditions prophétiques, contenues dans les ouvrages d'Al Boukhari et d'Al Suyùti (3). Qui traitent précisément des Hadiths et du sùfisme. Il s'intéressa, en outre, à la poésie comme en témoignera plus tard, la richesse de ses écrits(4). La méthodologie dans la zawiya se distinguait par une typologie des sciences : les plus doués, après le cycle d'initiation, suivaient des cours leur

paix ». La naissance et le développement de ce mouvement mondial vont devoir beaucoup à la stratégie mise en place par l'UNESCO et qui s'appuie sur deux axes fondamentaux : le partenariat et les nouvelles technologies de l'information.

La politique de partenariat vise à faire participer l'ensemble des acteurs à l'action en faveur d'une culture de la paix. Les comités nationaux pour la décennie qui seront créés doivent promouvoir un partenariat actif entre la société civile, les organisations internationales intéressées par ce combat, et l'ensemble des opérateurs nationaux.

Les nouvelles technologies de la communication doivent être largement utilisées afin de faire connaître les objectifs de la décennie et de faire participer de larges secteurs à l'action. Deux sites Web consacrés à l'année internationale de la culture de la paix serviront à la décennie.

La réussite de cette décennie de la culture de la paix permettra à des milliards d'humains d'entrevoir dans les années à venir une société où la violence et la haine n'auront pas droit de cité, où les hommes pourront boire ensemble au puits fécond de la fraternité et aussi de la solidarité.

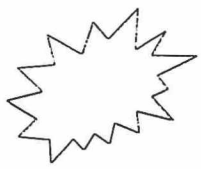

Déclaration sur une culture de la paix

(Extrait)

ARTICLE PREMIER

La culture de la paix peut être définie comme l'ensemble des valeurs, des attitudes, des traditions, des comportements et des modes de vie fondés sur :

a) Le respect de la vie, le rejet de la violence et la promotion et la pratique de la non-violence par l'éducation, le dialogue et la coopération ;

b) Le respect des principes de la souveraineté, de l'intégrité territoriale et de l'indépendance politique des Etats et de la non-intervention dans les questions qui relèvent essentiellement de la juridiction nationale de tout Etat quel qu'il soit, conformément à la Charte des Nations Unies et au droit international ;

c) Le respect de tous les droits de l'homme et de toutes les libertés fondamentales et leur promotion ;

d) L'engagement de régler pacifiquement les conflits ;

e) Les efforts déployés pour répondre aux besoins des générations actuelles et futures en matière de développement et d'environnement ;

f) Le respect et la promotion du droit au développement ;

g) Le respect et la promotion de l'égalité des droits et des chances pour les femmes et les hommes ;

h) Le respect et la promotion du droit de chacun à la liberté d'expression, d'opinion et d'information

i) L'adhésion aux principes de liberté, de justice, de démocratie, de tolérance, de solidarité, de coopération, du pluralisme, de la diversité culturelle, du dialogue et de la compréhension à tous les niveaux de la société et entre les nations.

j) Encourager un environnement national et international favorisant la paix.

Vers une décennie de promotion de la culture de la paix

L'année 2000, proclamée «Année Internationale de la Culture de la Paix », a été l'occasion pour l'UNESCO, les autres organisations internationales, et les commissions nationales de l'UNESCO, de propager l'idée de «culture de la paix », fondement d'un humanisme moderne tourné vers l'idée de tolérance et de progrès. Le manifeste 2000, largement diffusé dans tous les pays du monde a été signé par plus de 70 millions de personnes, et a joué un rôle majeur dans la promotion de cette «culture de la paix ». Mais cette culture de la paix ne saurait se concevoir qu'à long terme, car «élever les défenses de la paix », dans l'esprit des hommes ne peut qu'être une entreprise éducationnelle de longue haleine. C'est pourquoi l'Assemblée générale des Nations Unies a proclamé la décennie 2001-2010, «Décennie Internationale de la promotion d'une culture de la non violence et de la paix au profit des enfants du monde».

L'Assemblée Générale a également adopté le 6 Octobre 1999 une déclaration et un programme d'action sur une culture de la paix.

L'adoption de cette décennie sur une culture de la paix, rentre dans le cadre d'une série de résolutions mettant l'accent sur les problèmes fondamentaux rencontrés aujourd'hui, par les individus et les peuples. Nous avons ainsi eu la décennie de lutte contre le racisme(1993-2003), la décennie des populations autochtones (1994-2004), la décennie de l'éducation dans le domaine des Droits de l'Homme (1995-2004), la décennie de l'élimination de la pauvreté (1997-2006).

Le programme d'action en faveur d'une culture de la paix définit 8 domaines essentiels dans lesquels les Etats, les ONG et les institutions internationales devraient s'investir :

- l'éducation
- le développement durable
- le respect de tous les droits de l'homme
- l'égalité entre les sexes
- la participation à la vie démocratique
- la tolérance
- la libre circulation de l'information et des connaissances
- la paix et la sécurité internationale

- Un accent particulier est mis sur l'éducation des enfants, un accent qui n'est pas sans rappeler un des buts donnés à l'UNESCO par ses créateurs et qui consiste à proposer «des méthodes d'éducation convenables pour préparer les enfants du monde entier aux responsabilités de l'homme libre ».

Dans cet ordre d'idées, les médias ont un rôle important à jouer, car les enfants et les jeunes adultes étant des groupes d'âges qu'ils ciblent particulièrement, ils ne sauraient en conséquence être dégagés de leur mission d'éducation. Les parents, les collectivités locales, les ONG, les intellectuels et bien sûr l'école doivent également s'engager à promouvoir parmi les responsables de demain l'idéal de«culture de la paix».

La notion de «culture de la paix » exigeant un engagement sans faille, le programme d'action pour la décennie engage la société internationale à faire naître un «mouvement mondial en faveur d'une culture de la

année et les a replacé dans leur contexte institutionnel juridique, moral et politique.

Le Secrétaire Général du Ministère de la Culture et de l'Orientation Islamique, qui présidait l'ouverture solennelle, a exprimé la volonté politique de l'Etat mauritanien à appuyer les efforts pour la propagation des idéaux de la paix et de la tolérance et son engagement ferme à l'égard de ces principes.

Après de longues discussions et un large débat, la table ronde a émis les recommandations suivantes

- Financer et lancer des programmes d'éducation sur la culture de la paix dans les écoles et les communautés ;
- Etablir un partenariat actif entre le Gouvernement et toutes parties prenantes en vue de promouvoir et de valoriser la paix ;
- Renforcer les capacités des femmes et des hommes dans la culture de la paix, donner au niveau national, beaucoup d'importance à la diffusion de la culture de la paix dans la famille et dans les écoles ;
- Impliquer les imams de mosquées dans la diffusion de la culture de la paix ;
- Créer un réseau d'ONG nationales pour la sauvegarde de la paix ;
- Ouvrir, au niveau national, un site WEB sur la culture de la paix ;
- Généraliser la scolarisation et améliorer sa qualité ;
-

Notons, enfin que ces activités ont été largement reprises par les différents médias nationaux : radio, télévision et presse écrite.

Toutes les activités menées par la CMNESC ont été largement reprises analysés et commentés par les grands médias nationaux et la presse privée.

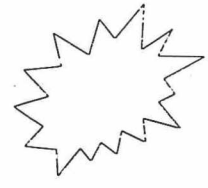

Année Internationale pour une culture de la paix

Vaste campagne de sensibilisation de la Commission Nationale

La Mauritanie s'est engagée dans une vaste promotion de la culture de la paix. La Commission Nationale Mauritanienne pour l'éducation, la science et la culture (CMESC) a lancé une vaste campagne de sensibilisation au profit de l'émergence et l'enracinement d'une culture de la paix et de la non-violence. Cette campagne à mis à profit l'enthousiasme, l'ardeur et la compétence d'un vaste secteur de la société civile (ONG, leaders d'opinion, parlementaires, intellectuels...) ainsi que tous les partenaires traditionnels de la Commission.

Ces journées ont été d'abord l'occasion d'une diffusion très large du manifeste 2000 pour une culture de la paix et la non-violence. Ce document de base a été diffusé auprès de tous les responsables, toutes les entreprises et au sein des milieux scolaires et universitaires. Des textes de base, élaborés par l'UNESCO et relatifs au manifeste ont été par la même occasion distribués parallèlement à ces textes. La Commission Nationale a édité un dépliant relatif à la célébration de cette année de la culture de la paix. Ce document, écrit en arabe et en français, a été lui aussi largement diffusé. Il explique d'une manière claire les grands principes de la culture de la paix et met en exergue les thèmes sous-jacents à ces principes comme tolérance, compréhension, démocratie, éducation...

Ce document porte les logos de l'année internationale de la culture de la paix, de l'UNESCO ainsi que celui de la CNMESC.

En même temps que ces documents, la CNMESC a entrepris la sensibilisation de la grande masse populaire aux principes de la culture de paix, en faisant dresser dans toutes les grandes artères de la capitales de très larges banderoles portant inscrits de grands slogans relatifs à la paix, à la non-violence, et au respect des principes de tolérance.

Point d'orgue de ces journées, une table ronde a été organisée le 11 décembre, dans les locaux de l'école Normale d'administration (ENA). Cette table ronde animée par trois consultants nationaux a vu la participation d'un large public constitué essentiellement de cadres féminins, de responsables d'ONG et d'élus.

Le secrétaire Général de la CNMESC a dans un mot d'ouverture explicité les grands principes fixés durant cette

Appel du Directeur Général de l'UNESCO aux médias du monde entier à l'occasion de la journée internationale des femmes

(8 Mars 2000)

Je lance un appel aux médias afin que les femmes journalistes exercent les fonctions de rédacteur en chef de l'information dans le monde entier le 8 mars 2000, Journée internationale des femmes. Si les journalistes, les médias et les organisations qui les représentent s'unissent pour assurer le succès de cette initiative, alors, pour la première fois dans l'histoire, une journée d'information, dans la presse écrite ou audiovisuelle, aura été produite partout dans le monde sous la responsabilité éditoriale de femmes.

En mettant l'accent sur le plafond de verre qui limite encore l'accès des femmes aux propositions éditoriales clés dans les médias, l'UNESCO marque une fois de plus son engagement, pris à la 4e Conférence mondiale sur les femmes à Beijing en 1995, de défendre l'égalité de traitement professionnel des femmes. Je suis fermement convaincu que cette question doit rester parmi les priorités à l'ordre du jour de chaque société – et de la Communauté internationale – jusqu'à ce que la parité soit atteinte à tous les niveaux de la hiérarchie professionnelle.

Par cet accent mis sur l'égalité des chances dans les médias, l'UNESCO veut également attirer l'attention sur le fait que la libre circulation d'une information pluraliste et indépendante sera mieux garantie si tous les journalistes de talent ont une chance égale de devenir rédacteur en chef et dirigeant des médias. Cette position doit être exclusivement justifiée par la capacité professionnelle, sans considération sur le sexe, l'origine ethnique ou religieuse, ni sur tout autre facteur non pertinent.

La Journée internationale des femmes est une occasion de manifester son engagement aux côtés des femmes et de chercher des réponses aux obstacles qu'elles rencontrent.

Faisons du 8 mars 2000 une journée mémorable où les femmes auront fait l'info.

Koïchiro Matsuura
Directeur général de l'UNESCO

Editorial

Système imparfait (parce qu'humain) la démocratie reste tout de même la meilleure organisation politique du pouvoir jamais inventée. Aujourd'hui, malgré les avatars d'une actualité très souvent perturbée, l'idée démocratique a conquis le monde.

Il ne serait pas fastidieux de s'interroger sur les raisons du succès de l'idéal démocratique, pourtant souvent décrié dans le passé par des idéologies qui promettaient, elles, le paradis sur terre à toute l'Humanité.

La victoire, si on peut l'appeler ainsi, du système démocratique tient d'abord à ce qu'il est la meilleure garantie de l'épanouissement de l'idée de tolérance.

La tolérance, c'est avant tout l'acceptation des différences, c'est reconnaître à autrui le droit d'avoir un idéal, une culture, une religion propres. La tolérance est la condition nécessaire pour une cohabitation harmonieuse entre les peuples et les individus.

Ce n'est pas un hasard si l'UNESCO et les autres organisations internationales du système des Nations Unies font de l'idée de tolérance la pierre angulaire de leur action. Car la tolérance entraîne vert la paix entre les hommes et les peuples. Elle est le fondement de toute «culture de la paix ».

En proclamant l'année 2000 «Année Internationale de la Culture de la Paix », et en faisant signer par des millions de gens, à travers le monde, un manifeste pour la Culture de la Paix, l'assemblée général l'ONU et l'UNESCO ont œuvré également pour l'enracinement, dans tous les pays, de l'idéal démocratique.

Aujourd'hui, nous nous préparons à œuvrer efficacement en vue de la réussite de la «décennie internationale de la promotion d'une culture de la non – violence et de la paix au profit des enfants » (2001-2010), proclamée par l'Assemblée Générale de l'ONU.

L'UNESCO a été choisie comme chef de file pour cette décennie.

Mais aucune culture de la paix ne saurait s'épanouir sans développement.

En Mauritanie, depuis l'adoption de la constitution du 20 Juillet 1991, nous assistons à l'émergence d'un nouveau cadre normatif et institutionnel qui renforce l'Etat de droit et privilégie l'idée de bonne gouvernance. Cette approche va incontestablement dans le sens de la promotion d'une «culture de la paix», dont la démocratisation est un élément essentiel.

La tenue en ce seul mois de février de deux séminaires internationaux, l'un sur «l'Etat de Droit au Maghreb» et le second sur «Le bicamérisme en Afrique» (nous sommes l'un des rares pays africains à avoir deux Chambres) prouve, s'il en est besoin, l'écho heureux que rencontre, à l'extérieur, cette expérience.

La démocratie est donc le meilleur système politique au monde, non pas parce qu'elle propose un Eden introuvable, mais parce qu'elle pose comme postulat l'idée de tolérance, donc de paix, donc de stabilité politique et de croissance économique.

A la Commission Nationale Mauritanienne pour l'Education, la Science et la Culture, nous avons bien le sentiment qu'en faisant propager l'idée de «Culture de la Paix», nous participons, à notre tour, à l'œuvre d'enracinement, dans les esprits et dans les faits, de l'idée démocratique. Conformément aux idéaux de paix, de justice, de tolérance, et de développement, qui sous-tendent l'octroi de notre gouvernement, sous la direction éclairée de monsieur le président de la république Maaouya Ould Sid' Ahmed Ttaya

Ely Ould Bouboutt

Al Mawqib Al Thaqafi

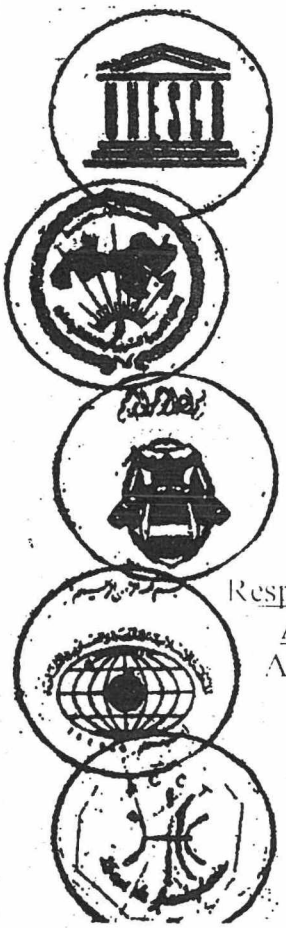

Responsable de la publication
Ely Ould Boubout

Rédacteur en Chef
Mohamed Lemine Ould Mounir

Directeur Technique :
Mohamedou Ould H'Dhana

Directeur Délégué
(édition française)
M'Bareck Ould Beyrouck
Assisté de : Ahmed Ould Cheikh

Service suivi et abonnements :
Responsable : Souleymane Ould Bouna Moctar
Assisté de : Mohamed Ould Amar Abal
Abderrahmane Ould Mohamed El Hafedh

Ont collaboré à ce numéro :
Racine Oumar N'Diaye
Bâ Oumar Math
Mohamed Ould Mekhallé
Yacoub Ould El Ghassem
Hamoudi Ould Hamdy
S'Neïba Mohamed
M'Bareck Ould Beyrouck
Ahmed Thioune
Med El Hacen Ould Beyah

Saisie et maquette : CNESC

Impression : Imprimerie Nationale

REVUE CULTURELLE, EDITEE PAR LA Commission Nationale Mauritanienne pour l'Education, la Science et la Culture N° 25 Décembre 2000 - Prix 200 UM

Al Mawkib Al thaqafi

Les guerres prenant naissance dans l'esprit des hommes,
c'est dans l'esprit des hommes que
doivent s'élever les défenses de la paix

Vers une décennie Internationale de la promotion d'une culture de la Paix

Les grands défis environnementaux en Mauritanie

« Odette du puigaudeau une Bretonne au désert »

Le parler français hassaniya

Directeur de la Publication : Ely Ould Bouboutt